سلسلة
المحاضرات والندوات

التي نظمها
جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية
والمعهد العالمي للفكر الإسلامي

المجلد الأول

تحرير
فاروق بدران

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية

Web site: www.isra-jo.com - E-mail: info@isra-jo.com

والمعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن

Web site: www.iiit.org - E-mail: iiitj@index.com.jo

ص.ب ٩٤٨٩ عمان ١١١٩١ الأردن

هاتف ٤٦٣٩٩٩٢-٦-٩٦٢ فاكس ٤٦١١٤٢٠-٦-٩٦٢

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٢/٥/١٣٠٣)

٢١١

سلس سلسلة المحاضرات والندوات/ تحرير فاروق بدران- عمان

جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية و المعهد العالمي

للفكر الإسلامي، ٢٠٠٢

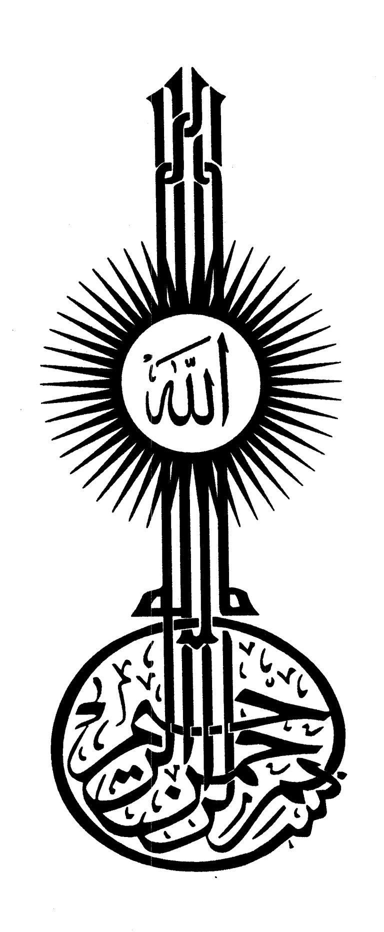
(٢٩٦ ص)

ر.أ (٢٠٠٢/٥/١٣٠٣)

الواصفات/الثقافة الإسلامية/ الإسلام/ الفكر الإسلامي

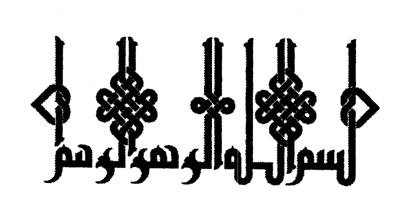
---

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية.



الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وقل رب زدني علماً



اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(العلق : ١ - ٥)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(النحل : ٧٨)

المحتويات


عية الدراسات والبحوث الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي
يرحبان بالضيوف الكرام

مقدمة

دأبت جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية منذ نشأتها على نشر الثقافة، وإقامة العلاقات بين المثقفين والمبدعين في شتى مجالات المعرفة العلمية والأدبية.

وبناءً عليه، استقدمت الباحثين والمحاضرين من شتى أنحاء العالم العربي، وأقامت لهم ندوات ثقافية حضرها المئات من أبناء شعبنا من العلماء والفقهاء، وطلبة الدراسات العليا في الجامعات الأردنية، وقد جرى في هذه الندوات تبادل للفكر، واستفاد الجميع من هذه التجربة. ومن ناحية أخرى أقامت الجمعية اللقاءات المبرمجة على شكل ندوات متخصصة، وعقدت مؤتمرات علمية بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومؤسسة آل البيت، وجامعة اليرموك، وجامعة مؤتة، والجامعة الأردنية.

ومن أجل توثيق هذا النشاط بدأت الجمعية بطباعة بعض هذه الندوات والمحاضرات التي ألقاها نفر من نخبة المفكرين، وهي بهذا تزود الجمهور بهذه المادة التي فاتهم حضورها والاستماع إليها.

هذا هو الجزء الأول من (سلسلة المحاضرات والندوات) التي نظمتها جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية بالاشتراك مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ومن أجل آن يجد القارئ ضالته، فقد حرصنا على تعدد الموضوعات التي اخترناها لهذا الكتاب. فقد اختيرت موضوعات تربوية ممثلة في (تعليم اللغة الأم واللغة الأجنبية في مرحلة ما قبل المدرسة) للدكتور يوسف مناصرة.

كذلك حرصنا على اختيار محاضرة (نشوء الحضارات وازدهارها في المنظور الإسلامي) للأستاذ الدكتور عمادالدين خليل، وكذلك (الاستشراق وجذوره التاريخية) للدكتور اسماعيل عمايرة، وفي هذا المحور محاضرة عن (المسلمون في أوروبا الغربية) للدكتور يورغون نيلسون، وكذلك محاضرة (من الاستشراق إلى الاستشراق المضاد) للكاتب والصحفي خيري منصور.

كذلك اشتملت الموضوعات على (عالمية الخطاب القرآني) للدكتور طه جابر العلواني، وكذلك (دراسة علمية رياضية حول الآية في القرآن الكريم) للمهندس حاتم بشتاوي.

وللمهتمين بالفكر الإسلامي الصافي من منابعه جاءت الموضوعات لتكون مصدراً لهم ومرجعاً، هذه هي رسالة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي مجددة الفكر، ومحيطة به، وجامعة للثقافة والفكر الإسلاميين، وملمة بما يحيط بهما من آراء.

إن العالم بلا ثقافة وفكر لا طعم له، وإن تبادل المعرفة بين الشعوب لدلالة على الانفتاح الذي نادى به الإسلام للتعارف بين الشعوب قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكركم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ صدق الله العظيم.

المحرر
فاروق بدران

تعليم اللغة الأم واللغة الأجنبية
في مرحلة ما قبل المدرسة

الدكتور يوسف مناصرة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الخلق وأشرف المرسلين سيدنا محمد وبعد

في بداية حديثي أتقدم بالشكر والتقدير لإدارة جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي على هذه الثقة التي أولوني إياها والتي انتهت بي إلى شرف التحدث إليكم وإنني على يقين من أنني بهذا الحديث سأخرج من هذه القاعة بأكثر مما دخلت به.

قد يبدو الحديث عن تعليم اللغة العربية واللغة الانجليزية في مرحلة ما قبل المدرسة قد يبدو قديماً وجديداً في الوقت نفسه، هذا الحديث سيكون مفصلاً على النحو الآتي: هناك مقدمة سأعرض فيها أهمية اللغة والاهتمام بها وتعريفها واكتسابها، ثم حديث عن الطفولة المبكرة وانتقل بعد ذلك إلى القسم الثاني وهو تعليم القراءة والكتابة، وأعرض السؤال الذي كثيراً ما يعرض وإلى الآن اجابته صعبة، متى نبدأ بتعليم القراءة والكتابة؟ وسيزداد الحديث تفصيلاً في هذا المجال إلى أن انتهي بعرض سريع لرأي في تعليم اللغة الأجنبية في مرحلة ما قبل المدرسة ثم لعرض رأي آخر لهذه القضية من منظور إسلامي.

لعلكم جميعاً تعرفون أهمية اللغة، وكونها الوسيلة الأساسية للاتصال بين أفراد المجتمع ووسيلة بناء الفكر والشعور لدى الفرد، وهي حافظة التراث البشري ذلك التي تنقله متجاوزة به حدود الزمان والمكان، وبغير اللغة لم يكن المجتمع الإنساني ليصل إلى ما وصل إليه.

أما في المدرسة فوضع اللغة أيضاً معروف، فهي أداة تحصيل المعرفة كلها وبدونها لا يتقن الطالب الموضوعات الأخرى ولا يتقدم فيها، ومن هذا المنطلق وجدنا أن اللغة قد اهتم بها عدد كبير من الباحثين والدارسين من مختلف العلوم، ولذلك وجدنا فئات من العلماء المهتمين باللغة من علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والفلسفة والمنطق والتربية كل هؤلاء مع علماء اللغة أبدوا اهتماماً كبيراً بتنشئة اللغة وتعليمها.

السؤال الذي يطرح نفسه هو ما تعريف اللغة؟

نقول إن اللغة نظام معرفي وهي ظاهرة اجتماعية بالغة التعقيد، ودون وجود مجتمع لا نقول أن هناك لغة، وهي تنظيم منفتح أي لا نهاية له. فمن تسعة وعشرين صوتاً نستطيع أن ننتج كماً هائلاً من المفردات الذي لانهاية له، إذن هي تنظيم منفتح يشتمل على تنظيمات فرعية وهو التنظيم الصوتي والتنظيم الصرفي و التنظيم النحوي والتنظيم الدلالي، ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به وتعمل بشكل متكامل، وتحقق الهدف الأساسي للغة وهو التواصل.

ويبدأ الطفل باكتساب لغته منذ الولادة فيبدأ بالأصوات العشوائية كما تعرفون وبالمناغاة ثم ينطق كلمته الأولى وهو في الشهر العاشر تقريباً، ومن نعم الله على البشر أن الطفل يكتسب الحد الأدنى المطلوب من اللغة في سنواته الأولى ودون معلم، ولو كان الأمر بحاجة لتعليم

لكان الأمر صعباً جداً، فإذا ماتملك الطفل هذا القدر الكافي من المفردات والأنماط اللغوية الذي يتواصل به مع المجتمع أمكن الآن التحدث عن برامج مقصودة لتعليمه اللغة، فنحن نتحدث عن تعليم اللغة بعد أن يكون الطفل قد اكتسب حصيلة كافية من المفردات والأنماط يبدأ بها، والبرنامج اللغوي الذي يكون في متناول أطفال هذه المرحلة أقصد مرحلة الروضة يتمثل بإحاطة الطفل بالأقران والكتب المصورة التي أعدت خصيصاً للأطفال وفي مشاهدة التلفاز وفي الرحلات وماشابه ذلك.

ومن خلال هذه البرامج تنمو حصيلة الطفل في المفردات والأنماط اللغوية وتمتلئ ذاكرته بالصور الحياتية المتعددة، كما أن هناك أمراً لا يقل أهمية عن هذا وهو تبلور أو تطوير الميل إلى القراءة في هذه المرحلة، وقد أثار تعليم اللغة في مرحلة الطفولة اهتماماً واسعاً لدى الباحثين وأجريت البحوث على الكثير من الجوانب التفصيلية لهذه القضية ذلك أن هذه المرحلة كما تعلمون تشكل قاعدة البناء وفيها تجري عملية ارساء القيم والاتجاهات الأساسية، ولعل هذا أكثر ما يربط التعليم في هذه المرحلة بالمنظور الاسلامي لأن الاسلام يهتم أولاً ببناء القيم والاتجاهات لدى الفرد ثم بعد ذلك يهتم بالعلوم والمعارف الأخرى وهذه المرحلة هي مرحلة بناء القيم والاتجاهات.

ثم إن هذه المرحلة هي مرحلة التأسيس لمرحلة دخول المدرسة التي يمكن أن نسميها مرحلة دخول المدرسة لكن الأمر لايتوقف عند حدود تعلم المفردات والأنماط اللغوية. قلنا إن هذا الاكتساب يكون بشكل عفوي ولايحتاج إلى معلم ولذلك دائماً حين نتحدث عن تعليم اللغة في مرحلة ما فإننا بشكل أكثر خصوصة نتحدث عن تعليم القراءة والكتابة،

وليس معنى ذلك أن بقية جوانب اللغة الأخرى لا يهتم بها، لكن هذا هو الموضوع الذي يحتاج إلى عناية أكبر.

متى نبدأ بتعليم القراءة والكتابة؟

هناك وجهتا نظر؛ وجهة النظر الاولى تقول بتأجيل مرحلة تعليم القراءة والكتابة حتى أن بعضهم لا يكتفي بسن السادسة وهي السنة الأولى الابتدائية فهناك دعوات في بعض الكتب ولدى بعض المشتغلين بتعليم اللغة وتعليم القراءة والكتابة ينادون بأن يتأخر تعليم القراءة والكتابة ستة أشهر أو حتى عام كامل أي يبدأ الطفل بتعلم اللغة في السنة الابتدائية الأولى وهم يقيسون في ذلك على بعض الحالات التي درست والتي تشير إلى أن هناك أطفالاً لم ينجحوا في تعلم القراءة في السنة الأولى نتيجة ظرف معين ثم استأنفوا تعلمها في السنة الدراسية الابتدائية الثانية ونجحوا فيها وأصبحوا بمستوى زملائهم الذين تعلموا في السنة الدراسية الأولى، ثم إن أصحاب هذا الرأي بالتأكيد يرفضون تماماً اخضاع الطفل لبرامج تعليم القراءة والكتابة في مرحلة ماقبل المدرسة ويرفضون هذا رفضاً تاماً ويعتبرون أن له نتائج سلبية أكثر من النتائج الإيجابية فيما يتصل باتجاهات الطفل نحو التعلم في المستقبل.

وهناك وجهة نظر أخرى وهي تستند إلى كم كبير من الدراسات والبحوث، ففي السبعينات كشفت هذه الدراسات النقاب عن أن الأطفال لديهم امكانات للتعلم تفوق كثيراً تصورات الكبار، ونتج عن ذلك ارتفاع الأصوات وبشكل خاص في الولايات المتحدة تنادي بإعادة تشكيل مناهج التعليم في رياض الأطفال ومنها بشكل خاص مناهج تعليم القراءة والكتابة، وانا شخصياً أميل إلى الرأي الثاني وهو التبكير

في تعليم القراءة والكتابة، واستندت في هذا الرأي إلى مجموعة من الأسباب:

أولها: مايتصل بعمليات القراءة ذاتها ، فلو قمنا بتحليل عمليات القراءة مسترشدين في ذلك بما نأخذ من دراسات علم النفس اللغوي فإننا نلحظ ثلاثة مستويات لعملية القراءة المستوى الأولى حركة العين فقد كان يظن قديماً أن العين تسير على السطر بشكل انسيابي ولكن ثبت بطلان ذلك قبل زمن بعيد من هذا القرن ، وتبين أن العين تمر على السطور بشكل قفزات سريعة بينها وقفات ، وفي هذه الوقفات تتم عملية ادراك الرموز المكتوبة، وأثناء القفز لاترى العين شيئاً، ماذا يعني ذلك بالنسبة لنا؟

ذلك يعني أن هناك عيناً تتحرك على السطر وهي تقف وفي أثناء هذه الوقفة تلتقط كماً من الخطوط المكتوبة والكلمات والمقاطع، وهناك احياناً مايسمى بعملية الانتكاس أو الارتداد فترتد العين للخلف ثم تعود من جديد، وهذا يبطئ عملية القراءة. وهناك عملية انتقال من آخر السطر إلى أول السطر الذي يليه وهذه تحتاج إلى برامج ترعاها، فلا تجيء هكذا بشكل عفوي بل تحتاج إلى تدريب.

العملية الثانية من عملية القراءة هي عملية تعرف الكلمة، كيف يتعرف القارئ الكلمة؟ هناك أربع قرائن لتعرف الكلمة:

القرينة الأولى هي السياق، فأحياناً لا يعرف القارئ الكلمة، لو فرضنا أن القارئ ناضج ولديه كلمة ممحوة فإنه يستنتجها من المعنى هذه قرينة.

والقرينة الأخرى من التركيب اللغوي يستنتج القارئ أن بعد الفعل يأتي الفاعل وهكذا يقرأ ، ثم هناك قرينة ثالثة اسمها بنية الكلمةأو شكلها

أي أن القارئ يعرف الكلمة من خلال شكلها بمعنى أنه يستطيع أن يقرأ كلمات دون أن يعرف حروفها، والقرينة الأخيرة هي قرينة الحرف أوالتحليل الصوتي للكلمة لأنه إذا نسي شكل الكلمة فلا بد له من وسيلة يهاجم بها الكلمة كما يقولون وهذه الوسيلة هي التحليل الصوتي أو قرينة الحرف، المتأمل في هذه القرائن يرى أيضاً أنها بحاجة إلى برامج تسبقها.

ثم هناك **العملية الثالثة** من عملية القراءة هي تمثيل المعنى وفهمه وهذا لا بدأن يستند على مخزون من الخبرة ومخزون من المفردات والأنماط اللغوية وهذه أيضاً تحتاج إلى برامج، هذا هو السبب الأول الذي يجعلني أقول إن القراءة تبدأ في وقت مبكر اعتماداً على أن عمليات القراءةذاتها تحتاج إلى برامج تبنيها أي أن نظر العين من اليمين إلى اليسار يحتاج إلى تدريب وهناك تدريبات خاصة بهذه القضية، إن الذاكرة البصرية التي يحتاجها القارئ لكي يرتبط ما قرأه قبل ثانية بما قرأه الآن هذه الذاكرة البصرية بعد مضي ثانيتين إن لم تكن قوية بالدرجة الكافية فإن القارئ سيضيع ونتحدث هنا عن قارئ مبتدئ وضعيف يتعلمها لأول مرة، والمدى الذي تدركه العين هو أ يضاً يدرب وهناك فرق بين أن تلتقط العين مساحة حرف وبين أن تلتقط كلمة أو مجموعة كلمات، وليس بالضروري أن تدرب على مجموعةالكلمات من البداية فالادراك أشكال على طريقة البطاقات الخاطفة هذه كلها عمليات أساسية في برنامج تعليم القراءة.

السبب الثاني هو الحديث عن الاستعداد لتعلم القراءة أو ما يسمى بمتطلبات تعلم القراءة وهو متصل إلى حد ما بالعمليات. إن الذي يأخذ

بهذا الرأي لابد أن يدرك أن القراءة لدى الأطفال لا تبدأ بالصف الأول الابتدائي بل تبدأ قبل ذلك بوقت طويل منذ اللحظة الذي يبدأ فيها اهتمام الطفل بالكتابة ومن هناك تبدأ العملية.

هناك جدل يدور احياناً بين المشتغلين بأمور تدريس القراءة وهو هل برامج الاستعداد لتعليم القراءة جزء من برامج تعليم القراءة أم هو منفصل عنها، فهناك من يرى أن برنامج بناء الاستعداد لتعلم القراءة جزء من برنامج تعليم القراءة، ومهما يكن الاختلاف على هذه القضية الشكلية لا بد من الاعتراف أن الاستعداد وبناء الاستعداد مهم للشروع في تعلم القراءة، وقبل زمن طويل كان يظن أن الاستعداد هو قضية وقت وما علينا إلا أن ننتظر حتى سن السادسة كي نقول إن الطفل مستعد لتعلم القراءة وهذاليس صحيحاً ذلك أن الاستعداد نفسه يبنى ويصمم له برنامج للدخول إلى التعلم الجديد فقضية العمر العقلي وارتباطه بالعمر الزمني بمعدل، هذه ايضاً بعض المسلمات التي أصبح يدور حولها شيء من الشك فقد كان يظن سابقاً أنه يكتفى أن يكون الطفل ذكياً ليتعلم القراءة لكن هذا طبعاً غير صحيح، فلقد اكتشف إن الذكاء وهو عامل مهم من عوامل الاستعداد لتعلم القراءة هو أقل عوامل الاستعداد أهمية، بل إن العمر العقلي العالي لايؤدي إلى نجاح أكيد في بداية تعلم القراءة إذا لم تنل العوامل الأخرى قبل الإدراك البصري والمعرفة إذا لم تنل العناية اللازمة أي أن الذكاء وخده لايفيد، وأنا شخصياً أرى أن هذه حكمة من حكم الله سبحانه وتعالى ونعمة منه، فلم يشأ الله تعالى أن يقتصر تعلم القراءة على الأذكياء فقط ذلك أن من هم دون الوسط في الذكاء قادرون على تعلم القراءة. أو لم يقل الله سبحانه وتعالى «اقرأ بسم ربك الذي خلق» وهي التي نزلت أول آية في القرآن وكأن الله تعالى كفل للجميع

تعلم القرآن وطبعاً هناك استثناءات لحكم تعرفونها، ولكن من أراد تعلم القراءة فبإمكانه ذلك، هذه أيضاً يمكننا أن نراها من المنظور الاسلامي، فإذا فشل طالب ما سوي في تعلم القراءة فهذا يعني فشل معلمه وليس فشل الطفل بل فشل الظروف التي وضع فيها.

الوقت يتداركنا وقد كنت أريد أعرض عليكم تعريفاً للقراءة وللاستعداد لكن أنتقل إلى الاستعدادات اللازمة لتعلم القراءة والتي تشكل الاستعداد، طبعاً بالاضافة إلى مايذكر عادة وبشكل تقليدي حول الابتعاد عن المألوف وهو الاستعداد الجسمي والبشري والعقلي والانفعالي والاجتماعي وغيره من المواضيع، لابد من وجود قدر كاف من المفردات التي تنفع المتعلم والتي سترد في محتوى برامج القراءة فيما بعد، والقدرة على الانتباه والتركيز وذلك يحتاج إلى تدريب، والقدرة على ادراك العلاقات والأجزاء المكونة للكل لأنه سيتعرض إلى كليات في داخل القراءة أوالجملة ككل والكلمة ككل كلها تتكون من أجزاء، وتعود لغة الكتب، ومن هنا جاء الطلب دائماً بأن نقص القصص للأطفال من الكتب بلغة بسيطة حتى تألف أذنهم هذه اللغة في الكتب وتتعود عليها، ومعرفة أن اللغة المنطوقة تمثلها لغة مكتوبة فالسلم هنا متدرج وهي قضية بمنتهى البساطة فحيناً ما نحدثه عن شيء، و بعد أن نفرغ نقول له هذا اسم ودون أن نلح عليه بقراءته أو أن نعلمه إياه حتى يدرك فيما بعد أن كل ما ينطق له ما يمثله كتابة.

و هنا يأتي القدر الكافي من التدريب السمعي وهذه قضية في غاية الأهمية ويدخل فيها مايسمى بالتجزيء الصوتي عن طريق الأناشيد وعن طريق الغناء والألحان وعن كل الطرق الممكنة بحيث نصل بالطفل في

نهاية هذا التدريب إن يكون قادراً على تحليل الأصوات داخل الكلمات لأن هذا مدخله فيما بعد لكي يحلل الكلمات تحليلاً صوتياً ويتعرف عليها من خلال معرفة حروفها وهذا مايسمى أحياناً في أدبيات تعليم اللغة وتعليم القراءة والكتابة في هذه السن بالمعارف الصوتية وهذا يختلف تماماًعما نسميه بالطريقة الصوتية في تعليم القراءة، فالمعارف الصوتية ضرورية جداً، وتحتاج أيضاً إلى قدر كاف من الادراك البصري ويدخل فيه ما يسمى أيضاً بالتجزيء الخطي وأن يكون قادراً على تحليل المدركات البصرية التي يراها إلى أجزاء حتى يستطيع مستقبلاً تحليل الكلمات إلى أجزائها التي هي الحروف، ومعرفة أن مكونات الكلمة وحروفها تتتابع مكانياً أو خطياً أو بنفس الطريقة التي تتتابع فيها أصوات الكلمة المنطوقة زمانياً . ويجب أن يطور الطفل نفسه هذا المفهوم وأن الأصوات في داخله تتكون من حروف تمثلها فالصوت الأول مقابله الحرف الأول والصوت الثاني مقابله الحرف الثاني وقد يستهجن بعض الذين يستمعون إلى هذه الفكرة من المرة الأول ولكن الأطفال الذين ينجحون بالقراءة غالباً مايكونون لأنفسهم هذه المهارة أو هذا الاتجاه دون وعي ودون أن يعرفوا ذلك

ولعل تعليم الكبار فيما بعد يكون أسهل لأن الكبار الذين أصبحوا على درجة عالية من الخبرة والكفاية في اللغة المسموعة يطورون لأنفسهم هذه المهارة بسرعة أكبرمن الصغار، ومعرفة أن اللغة المكتوبة تتجه من اليمين إلى اليسار وهذا بالنسبة لنا أمر بسيط لكن بالنسبة للأطفال أحياناً يبدأ الطفل بقراءة الكلمة من منتصفها لأن لا أحد دربه بأن يبدأ من هنا وإن عادته الاتجاه من اليمين إلى اليسار وأن يحرك يده واصبعه من اليمين إلى اليسار ثم بعد ذلك تأتي عملية المطابقة بين الأصوات وبين التتابع،

هذه كلمة بعد تدريب كبير جداً على الأصوات وتحليل الصوت الأول ماذا في وسطها وماذا في آخرها وكم صوتاً فيها وبعد أن تصبح لديه القدرة الكبيرة على التجزيء الصوتي وبعد ذلك القدرة الكافية على التجزيء الخطي نقول له أن هذه أصوات وهذه ممثلات وسر معها .

أذكر أنني قابلت طفلاً في السنة الأولى في بداية المدرسة وسألته هل تعرف اللغة الانجليزية فقال لا فشرحت له كلمة sam من ثلاث حروف وسألته أين حرفM فيها فأشار إليه مباشرة وسألته أين حرفS فيها فأشار إليه أي إذا تعلم الطفل هذا المبدأ في المطابقة الزمانية المكانية أو ما تسمى بالمطابقة الصوتية الخطية فإنه بعد ذلك يسهل علينا تعليمه القراءة والكتابة، ثم معرفة الحروف الهجائية بأصواتها أو أصواتها وأسمائها، فكثير من الباحثين أو الدارسين أو المشتغلين يقولون لا تبدأ تعليم الطفل بالحروف فالحرف ليس له معنى لكن الدراسات التي عرضت هذه القضية في الغرب في الولايات المتحدة - ولا يضيرنا أن نأخذ ذلك لأنها قضية تعليم لغة ولغتنا صوتية أكثر من لغتهم وما ينطبق عليهم ينطبق عليها أكثر - قالت إن تعلم الحروف بأصواتها أو بأصواتها وأسماعها يرتبط بالنجاح في تعلم القراءة .

القضية الثالثة التي استندت إليها في دعمي لتعليم القراءة والكتابة في وقت مبكر هي نتائج الدراسات والبحوث ولعلي أشرت إلى بعض منها (رئيس الجلسة يقول لي أن الوقت انتهى فسأختصر)، نتائج البحوث والدراسات أشارت إلى أن التعليم الصوتي وتعلم الحروف الهجائية وتدريب الذاكرة البصرية والخبرات اللغوية كل ذلك يؤدي إلى نجاح أكثر في تعلم القراءة والكتابة فيما بعد .

عامل الزمن عنصر رابع من العناصر التي استندت إليها في هذا، فنحن يا إخوة في الأردن تقريباً يقل تدريسنا في المرحلة الأساسية، الحلقة الأولى والثانية مايقارب أربعين يوماً عن تدريس الدول المتقدمة، فالتعليم هناك يفترض أن يكون حوالى٩٠٠ ساعة مشغولة في أغراض التعليم، فنحن أولى أن نستغل من عمر الطفل هاتين السنتين.

أما موضوع تدريس اللغة الأجنبية في رياض الأطفال فللأسف لم تقف لي البحوث على شيء من ذلك، راجعت عدداً كبيراً من البحوث والدراسات الأجنبية فوجدت أنها تشير إلى تعليم اللغة الأجنبية في رياض الأطفال، لقد اعتبرت هذا مؤشراً على أن اللغة الأجنبية لا تدرس، وأنا شخصياً أميل إلى عدم تدريس هذه اللغة في هذه المرحلة لماذا؟

أولاً: إن الطفل في هذه المرحلة لم يستكمل بعد سيطرته على لغته الأم سواء فيما يتصل باكتساب المفردات أو حتى فيها يتصل بمخارج الحروف فكل لغة من اللغات فيها خاصية صوتية تختلف عن اللغات الأخرى والطفل هنا مازالت مخارجه طرية، وما أظن أننا نحسن إليه إذا خلطنا مع لغته لغة أخرى.

ثانياً: هناك قضية أخرى تتصل بالفكر وتتصل بالمشاعر، وأنتم تعلمون أننا نبذر من البدايات الأولى في الطفل حب اللغة والشعور بالفخر بلغته العربية؛ وأخال لغة أجنبية في هذه المرحلة تقلل من هذه المشاعر الطيبة التي نحاول أن نبنيها عند الأطفال من البداية. فنحن نحرص عند ما نعلم القراءة والكتابة للأطفال على قضية الاتجاه من اليمين إلى اليسار وهذه قضية حينما يهملها المعلم تنتج مشكلة كبيرة له، فكيف

نخلط معها في هذه المرحلة لغة تتجه من اليسار إلى اليمين فهذا سيكون تشويشاً أكبر .

ثالثاً: لا يوجد مبرر واحد مقنع بتعليم اللغة الأجنبية في هذا السن فإذا كان كل ماقيل لا يكفي فعلى الأقل لايوجد مبرر لتعليم اللغة الأجنبية ، وفي بعض البلاد الأجنبية كالنمسا وبلغاريا حاولت أن أتحدث مع كثير من الناس باللغة الانجليزية فكانوا يهملونني وأنا أعلم أنهم يتقنونها ، فنحن أكثر حاجة منهم إلى الاعتزاز بلغتنا والفخر بها وهي لغة القرآن الكريم .

رابعاً: إذا أضيف لكل ماتقدم عامل الزمن الذي أشرت إليه أصبح من الضروري عدم ارباك الطفل وإشغاله بأي شيء آخر ، لأن ليس هناك وقت فعندما تطلب من المعلم أن يقوي طالباً ضعيفاً يقول ليس هناك وقت فإن كنا نشكو من الوقت فلماذا نشغل الطفل من البداية بلغة أخرى؟ .

والنقطة الأخيرة التي أود أن أشير إليها هو وضع هذا كله تحت مظلة أو منظور اسلامي وأعتقد أنكم جميعاً أقدر مني على التحدث في هذا الموضوع ولا يوجد وقت .

نشوء الحضارات وازدهارها في المنظور القرآني

أ. د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلاة والسلام على رسول الله، صانع شرف هذه الأمة، ومهندس مكانتها في الأرض وعلى آله وأصحابه.

أيها الأساتذة الكرام، أيها الأخوة الأحبة، أيتها الأخوات الكريمات، السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته، وشكراً جزيلاً للقائمين على جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن، على إتاحته هذه الفرصة للحديث عن جانب من الجوانب التي تفرض ثقلها وحضورها في معتركات الثقافة المعاصرة.

في آخر سورة يوسف نقرأ هذه الآية الكريمة ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى﴾ إلى آخر الآية الكريمة.

ها هنا نجد أنفسنا قبالة الجهد التاريخي بأركانه الأساسية، خطاب عقلي إلى الأفئدة والعقول، يبحث عن المغزى الذي يكمن وراء الوقائع، ومصداقية متحققة في الزمن والمكان، في هذه الآية إذاً، نلتقي بأركان العمل التاريخي الذي يختم به كتاب الله سورة يوسف عليه السلام.

قبل هذه الآية وبعدها نجد أنفسنا قبالة عروض تاريخية تمتد من بدايات القرآن الكريم حتى نهاياته، في ما يزيد على ثلثي القرآن الكريم. ثلثا القرآن الكريم يتحدث عن تاريخ الأمم والجماعات والشعوب وقصص الأنبياء، تاريخ القرى والمدن والجماعات والأمم، المعجزات التي تخرق السنن التاريخية، الوقائع التاريخية التي تتماشى مع السنة والقوانين، ومعطيات عصر الرسالة بتفاصيل كثيفة خصبة بنبوءات تاريخية مستقبلية، حديث عن أشراط الساعة وما يمكن تسميته بالانقلاب الكوني، هذه الأبداء الزمنية المتطاولة في الماضي والحاضر والمتستقبل تجعلنا ننتبه إلى الثقل الكبير الملحوظ في كتاب الله، للمسألة التاريخية، وعندما نقول المسألة التاريخية، نعني بالضرورة البعد الحضاري الذي تنطوي عليه المسألة أو الجهد التاريخي.

أيها الأخوة الأحبة، نجد في سياقات العصرين الحديث والمعاصر -إذا صح التعبير- كيف استُدْعيَ التاريخ: كبار الأيديولوجيين في العالم -الذين هندسوا للنظريات، والنظم الشمولية التي شكلت دولاً وامبراطوريات، وفعلت الأفاعيل في القرنين الأخيرين- استدعوا التاريخ.

وقضية حوار الحضارات أو اصطراعها تقتضي هي الأخرى استدعاءً للشاهد التاريخي، النظام العالمي الجديد يستدعي بالضرورة استدعاء الشاهد التاريخي لتأكيده أو تفنيده، وإيجاد الثغرات في بنيانه الظاهر، نظرية نهاية التاريخ على سبيل المثال التي تفرض نفسها في عقل القرن العشرين أو في أخريات القرن العشرين على لسان رجلٍ أو بقلم رجل يدعى (فرانسيس يوكوهاما) يحاول أن يلغي فيها أو يضع فيها نهاية للخصوصيات التاريخية للأمم والشعوب، ويجعلها تقف متوحدة

متساوية منسلخة عن جلدها وبصماتها قبالة التنمية الاقتصادية التي تقودها القوى الغربية بزعامة أمريكا، تستدعي منا أن نتعامل أيضاً مع التاريخ، لتفحص مصداقية أو كذب هذا الادعاء الذي يطرحه الرجل في نظريته نهاية التاريخ، أيضاً مشروعنا الحضاري البديل الذي نتحدث به صباح مساء، ونحلم باليوم الذي تُنسج فيه خيوطه على مهل وتصبح أمراً واقعاً. كل هذه السياقات تقتضي استدعاءً للتاريخ، يبقى التاريخ على مستوى القرآن، على مستوى الجهد البشري الوضعي على كل المستويات، عنصراً أساسياً شئنا أم أبينا في الصراع الثقافي في النشاط الثقافي.

في أي مشروع يسعى لإقامة منظومة من الأفكار تحاول أن تجد لها مكاناً في خارطة العالم، نحن لا نملك منهجاً لدراسة الحضارات التاريخية -وهذه مسألة تحدثت عنها في لقاء آذار الماضي في هذا المكان فلا داعي للخوض فيها- لكنا نسأل ها هنا هل أن الحضارات تملك شخصانية خاصة؟ هل تملك خصوصيتها التي تميزها عن الحضارات الأخرى، تماماً كما يحدث بالنسبة للجينات الوراثية المحمولة التي تطبع خصائص كل واحد فيكم، وتجعل فكره وعقله وأعصابه وتكوينه النفسي والجسدي يحمل علاقة خاصة تفرقه عن الآخرين؟ أم أن هذا مجرّد ادّعاء يجعلنا نخضع للظاهرة التاريخية لنوع من الهندسة الصارمة التي قد لا تتفق مع واقع الحضارة، من حيث أنها معطى بشري قد يتشابه لدينا كما هو لدى الصينيين واليابانيين.

هذه المسألة أيها الأخوة الأحبة ذهب فيها العقل الغربي -وهي نقطة مهمة جداً- ذات اليمين وذات الشمال في زاوية مقدارها ١٨٠°، ما بين صرامة (ستالين) في ماديته التاريخية، وبين فضفاضية أو رفض (كارل

بوبر) في عقم المذهب التاريخي زاوية منفتحة على ١٨٠° أحدهما تقول بصرامة القانون التاريخي، وبأن الحضارات البشرية تحمل خصائص محددة، وتنطلق من مفاهيم محددة، وتؤول إلى نتائج محددة، والآخر يرفض هذا الإلحاح الذي لا نجده فقط عند (ستالين)، نجده أيضاً عند (شبنجلر) الألماني في نظرياته الحتمية حول دورية الحضارات وملامحها المستقلة، نجدها حتى أيضاً عند (توينبي) الرجل الدي ملك عقلاً أكثر انفتاحاً ومرونة من عقليات السابقين، ولكنه مع هذا أدين من لدى (سوروكن) في أنه يخضع الظاهرة الحضارية لنظم صارمة، ويجعل كل حضارة تختلف كليةً عن الحضارات الأخرى بخصائصها، وفي الدم الذي يجري في خلاياها كي يميز هذه الخلايا بخصوصيات معينة.

(الكسيس كاريل) معظمكم سمع به وبكتابه المعروف «الإنسان ذلك المجهول» يقول: «نحن مغرمون بأن نخضع الظواهر الإنسانية للترتيب، والتنسيق والهندسة، ويحدث هذا في العلوم، في الكيمياء مثلاً اثنان هيدروجين وواحد أكسجين بالضرورة يقود إلى جزيء من الماء، في الرياضيات، في الفيزياء، إلى حد ما -رغم وجود هوامش كبيرة للاحتمالية في الفيزياء- لكن في العلوم الإنسانية، في التاريخ، في علم النفس، في علم الاجتماع، لا يمكن أن نخضع الظواهر إلى قوانين صارمة قد تقودنا إلى الخطأ في التعامل مع الظواهر.

كيف السبيل أيها الأخوة؟ ها هنا نلجأ إلى كتاب الله، لكي نجده يعطينا القول الفصل في الحد الوسط الذي يمكن أن يقودنا للتعامل مع الظاهرة الحضارية، بالقدر الإلهي المعجز المحكم، في المنهج في التعامل ها هنا أيها الأخوة الأحبة، نجد خطوطاً عريضة في كتاب الله نجد شبكة من قوانين الحركة التاريخية أو ما نسميه نحن إسلامياً (بالسنن الإلهية أو

النواميس الإلهية)، ما انتبهنا إليها بما فيه الكفاية، تكاد تعطينا تصوراً شاملاً كاملاً عن ضرورة الحركة التاريخية والحضارية وبالتالي تقفنا أمام المبادئ الأساسية التي لا تصل حد الصرامة القانونية والجبرية المثقلة في العقل الغربي أو في جانب منها، ولا تصل إلى حد الترهل والفضفاضية التي تجعل من الحركة التاريخية والحضارية سائبة فضفاضة تسير على غير هدىً.

هنا الحد الوسط، نجد أنفسنا قبالة حشد كبير لا يتسع الوقت أيها الأخوة حتى لقراءته، كيف بالوقوف عنده وتحليله، مثلاً مجرد آيات ثلاثة أو أربعة قد تعطينا الدليل والإضاءة لما ينطوي عليه كتاب الله المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، على الموقف المحكم من التعامل مع الحركة الحضارية والتاريخ في نهاية الأمر، يقول الله تعالى:

- ﴿أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾: التآكل المحتوم الذي تقوم على أسبابه الدول والإمبراطوريات والتشكيلات السياسية، والحضارات.
- ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء﴾: هنا نجد أنفسنا فيما تحدث عنه (توينبي) الذي أطال الحديث حول قضية الحد الوسط الذي أعطي للإنسان، لكي لا يطغى ويترف ويترهل ويكسل عن الأداء الحضاري، ولكي لا يقف في الحالة الأخرى قبالة شح في العطاء، وسهولة التعامل مع العالم وبالتالي يفقد القدرة على الإنجاز الحضاري، الحد الوسط المطلوب.
- ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ المداولة التي -ما قال بين المؤمنين ولا قال بين المسلمين ولا قال بين أتباع أو أديان، كل الناس، كل أمة

من الأمم، كل شعب، وهذه تحل لنا إشكاليات تعتمل في عقول شبابنا، وأزمات عقلية تثير الكثير من التساؤلات، هنا نجد القرآن الكريم يقول بصراحة: كل الأمم أعطيت حظاً إن أخذت بالأسباب، وقدرت بالإمساك بدرجات السلم الأولى والصعود إلى فوق.

هذه الحركة ذات الديمومة المستمرة التي ترفع أقواماً وتضع آخرين، تضعنا في أسفل الدرجات إن لم نأخذ بالأسباب. القضية قضية نسبية أيها الأخوة، عندما نقول إن غيرنا قد ارتفعوا إلى فوق، يمكن أن يكون بالقوى المادية، بالآلية التكنولوجية، بالتفوق الاستراتيجي، الاقتصادي، العسكري، ربما في فكرهم السياسي، ولكن هنالك يبقى على كم هؤلاء فوقنا يحملون ثغرات في بنيانهم الحضاري، تجعلنا ننتظر اليوم الذي ندخل فيه من هذه الثغرات لكي نعطي العالم الحضارة الأكثر تماسكاً وتوافقاً مع سوية الإنسان في أقصى حالاته الإنسانية -إذا صح التعبير- حضارتنا هي الحضارة الوحيدة التي تضع الوضع البشري في أقصى سويته، المتوافقة مع مطالب الإنسان في هذا العالم.

- ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين﴾

- ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾.

هذا يفسر لنا الكثير من الانتكاسات التي تمنى به الجماعات المؤمنة بالله، والصعود المفاجئ وغير المفاجئ الذي تتحقق به قوى هي عدوة لله ولرسوله وللأنبياء، كلاً نمدُ، بمَ يُمد؟ يمد بالطاقات المذخورة في هذا العالم الذي سخر أساساً للإنسان، والذي يتحضّر فيه من يتحضّر، من

يعرف كيف يمسك بالمفاتيح ويأخذ بالمبادرة ويمضي إلى هدفه ويسارع إليه من أجل التحقق بالنشوء الحضاري واستمراريته الحضارية .

أيها الأخوة الأحبة هذه مجرّد تمهيدات أردت أن أبدأ بها محاضرتي القصيرة المتواضعة هذه . كيف تبدأ الحضارات؟ قال فيها الكثيرون . وكيف تنمو وتواصل صيرورتها ونموها؟

ابن خلدون على سبيل المثال وهو المفكر الإسلامي المعروف الذي أخذ المبادرة على مستوى الفكر التاريخي والتفسير الحضاري ، والتعامل الفلسفي مع التاريخ ، في فترات مبكرة من الزمن . فأخذ في الحقيقة قصب السبق في هذا المجال في مقدمته المعروفة لكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . الخ» يعد بدء الحضارة هو : تحوّل القبائل من حالة التنقل والرعوية إلى الاستقرار في الأمصار بقوة العصبية والدين .

شبنجلر : حتمية الميلاد الصعود والفناء تأخذ بتلابيب الحضارات فترفعها وتضعها .

هيجل : يتعامل مع الفكرة في جدلها المتواصل التي يسقط فيها ما يراه غير صالح للبقاء وتمضي هذه الحركة المتصادمة المتجادلة بين الأفكار للوصول إلى ما يسميه هو حالة «التجلي المتوحد» ؛ أي يوم يصير التاريخ انعكاساً مرآتياً صادقاً على ما يسميه «بالعقل الكلي» الذي يحكم العالم ، يوم يصير التاريخ انعكاساً أميناً لإرادة العقل الكلي ، وهذه النقطة تؤخذ على هيجل ، أنه لم يحدد ماهية هذا العقل الكلي ، حينذاك يكون قد تحقق ما يسميه «بالتجلي المتوحد» وأصبح التاريخ في حالته المثالية القصوى ، هذه نظرية مثالية تسبح في الفضاء ، وأُدينت من قبل (ماركس) و(إنجلز) وآخرين ، وقيل إنها تمشي على رأسها ، ولا تحدد ماهيات الأشياء وطبيعة جدل الفكرة . ولكن تتخذ كما أن ابن خلدون يتخذ من

الدولة والدين آيات للانتقال إلى الحضارة أو نشوء الحضارة، هيجل يتخذ من الدولة والبطل آليات للتحقق بالحركة الحضارية.

ماركس وإنجلز: الصراع بين الطبقات يعني الصراع في عالم المادة، وسائل الإنتاج التي يبتكرها الإنسان تبدي أو تنشئ ظروفها الاقتصادية، شبكة من العلاقات الاقتصادية التي تنبني عليها المعطيات الفوقية، الجمال والدين. هكذا يرى ماركس، وقد سقطت نظريته بالتأكيد لأنها ارتطمت مع حيثيات التاريخ، وحيثيات الفطرة، وغيرهما، وارتطمت مع الإنسان. يقول أن صراع الطبقات هو الذي ينشئ الحضارات ويحرك التاريخ من خلال بحث الإنسان عن أدوات الإنشاء (أدوات الانتاج)، التي يُشبع جوعته بواسطتها، وهذه الأدوات تخلق شبكة من الظروف الانتاجية التي تقود إلى بنيان حضارة تتشكل كل مواصفاتها وكل تفاصيلها من خلال الطبقة التي تسود، طبقة الاقطاعيين حيناً، البرجوازية الكبيرة حيناً آخر، البروليتاريا حيناً ثالثاً، وهكذا تمضي حركة التاريخ بدءاً من نموها الأول، بحثاً عن وسائل الانتاج، وصولاً إلى ما يسمى مرحلة حكم الطبقة العاملة. وهي كلها مجرد تخمينات وظن وكما يقول القرآن الكريم: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ ها هنا في كتاب الله الهدى، في كل صغيرة وكبيرة في كل مسائل الفقه والثقافة والحياة، ولا يقولها المرء في محاولة لجعل القرآن ينطبق على معطيات الثقافة كلها، ولكن هذا هو الواقع أيها الأخوة، ما من جانب من جوانب حياتنا وفكرنا وثقافتنا إلا ولكتاب الله وسنة رسوله قولٌ فصل فيها، فهنا سنجد ما الذي سيقوله القرآن بخصوص نشوء الحضارات، تكونها، ثم اندفاعها إلى الأمام لبناء نفسها وصيرورتها.

توينبي: أيها الأخوة فيما يتعلق بما قاله الوضعيون- يرى أن النمو الحضاري ونشوء الحضارت يعتمد على طبيعة التقابل بين الجماعة البشرية وبين البيئة، سواء كانت هذه البيئة في مجال الجغرافيا البشرية أو في مجال التحديات الجغرافية الطبيعية، حيثما لقيت جماعة ما تحدياً جغرافياً صعباً إلى حد معقول وليس فوق الطاقة، حيثما شدت قدراتها واستجابت للتحدي وصنعت حضارتها. يعني أن الحضارة في منظور توينبي، استجابة متوسطة المدى للتحديات البيئية الجغرافية أو البشرية، ما من حضارة في تاريخ البشرية إلا وهي رد فعل أو استجابة ما للتحديات الجغرافية البيئية أو البشرية.

القرآن الكريم: يأخذ مساقاً آخر، الإنسان الضائع في هذا العالم، الذي لا تستطيع قوة في الأرض أن تهديه إلى الصراط وتبعده عن الطرق المعوجة التي تأخذه بذات اليمين وذات الشمال، والتي تبين أنها في لحظاتنا الراهنة كم هي معوجة فعلاً هذه الطرق التي قادت العقل الغربي -على تفوقه- إلى الأضاليل، وإلى السقوط في نهاية الأمر، وجودية كانت أم ماركسية، أم اشتراكية طوباوية أم عنصرية شوفونية، أم نظرية رجل أبيض، أم حتى نظرية نهاية التاريخ أم أم . . . الخ. كلها تساقطت لأنها لا تنبني على أساس صحيح.

هاهنا نجد الإنسان الضائع في هذا العالم منذ لحظة نزول آدم الأول إلى هذا العالم. يقول القرآن الكريم بأن البداية الصحيحة لما يمكن تسميته بنشوء الحضارة الإيمانية، التي تسير على خط إلى هدفها المستقيم، هي انتظار الوحي القادم من السماء (المنهج الالهي). فما من أمة في هذا العالم، إسلامية أم أمم أخرى، تستطيع أن تضع خطواتها على الطريق الصحيح، ما لم تستهد بهدى الله، ذلك أن قدرات الإنسان مهما مضت وأوغلت في كينونتها وقدرتها على التصرف والفاعلية، لا تستطيع

أن تمنح الإنسان المنهج المتوازن الذي يمكّنه من اجتياز رحلة تاريخه وبناء حضارته بالطريق المرسوم بعناية، كالمنهج القادم من السماء. إذاً في المنظور الإسلامي ودونما غبش أو ضباب ليس ثمة بداية حضارية جادة إلا بالوحي القادم من السماء، يحمل منهجاً إلهياً إلى هذا الإنسان.

على مدى صراعات الأنبياء والرسل الطويلة عبر التاريخ كله، كان الصراع بين محاولات تريد أن تضع الإنسان في حركة حضارية متوازنة مستقيمة تنسجم وسويته الإنسانية وتقوده إلى الله، وبين أمم وقوىً ضالة تريد أن تقف في مواجهة المحاولة وتكفها عن العمل وتسقطها من الحساب، وكان الانتصار في كثير من النبوات التي استطاعت أن تنشئ جماعات قدرت على أن تشكل نواة حضارات، جاءت الحضارة الإسلامية لكي تضع ملامحها الأخيرة وتقود العالم عبر قرون طويلة بحضارتها المعروفة بنموها وتكونها ومضيها إلى الأمام، أن تفعل الأفاعيل وأن تقدم معطيات خصبة ليس هذا أوان الحديث عنها؛ لأن المحاولة ليست دراسة في حضارة الإسلام، وإنما في قوانين الحركة الحضارية من منظور إسلامي، تلك التي تصنع الحضارات، تبدأ بالانطلاقة الأولى ثم تمضي بها إلى الأمام.

هذا لا يعني أن الأمم الأخرى ليست قادرة على إنشاء الحضارات، وإلا فنحن نناقض أنفسنا ونقع في المثالية المرفوضة. نحن واقعيون، والقرآن الكريم يعلمنا أن نكون واقعيين، نكون دائماً في قلب العالم، ومنطقيين مع أنفسنا، ليست قضية مصادرة. كل الأمم والشعوب لها الحرية المطلقة في أن تصنع حضارتها بنفسها وهذا الذي حدث. في الاستقراء التاريخي، هنالك سبعة وعشرون حضارة، قلة من هذه الحضارات كانت حضارات مؤمنة والأكثرية الساحقة التي تتجاوز

العشرين، صحيح أنها قد تبدأ بدايات دينية كما يقول (توينبي) و (شبنجلر) وآخرون، ولكن هذه البدايات الدينية ليست بالضرورة بدايات قادمة من السماء.

يبقى عندنا أن الأمم كلها عندها فرصة: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ كل الأمم والجماعات والشعوب ونحن نرى أن الأجناس البيضاء، والصفراء، والسمراء، والهندية الحمراء، في يوم ما أيام الحضارة (اليوماتيكية، والمكسيكية، وبوليزيا) صنعت حضارات خاصة بها.

نحن نتناقض مع أنفسنا إذا قلنا إن الحضارة الوحيدة في العالم هي حضارة الإسلام، وأن الأمة الوحيدة التي تستطيع أن تصنع حضارة هي الأمة الإسلامية. هذاخطأ، كل الأمم لها حق ولها حرية التصرف بهذا العالم والمتفوق هو الذي يمد يديه أكثر منقباً عن السنن والنواميس مكتشفاً إيّاها محاولاً أن يكون هو الأعلى في هذا العالم وأن يصنع حضارته الخاصة به.

وهذا أيضاً لا يعني أنه لا يوجد بين حضارتنا الإيمانية الإسلامية والحضارات الوضعية ثوابت مشتركة، بل على العكس، ثمة ثوابت كثيرة، قد نلتقي فيها معهم، نحن لا نتحرك في جزيرة منعزلة، الحضارة الإسلامية التي تنبني على الاستهداء بمنهج الله، بوحي الله القادم من السماء، إنما تأخذ وتعطي وتتشابه في بنيتها الأساسية في بعض جوانبها مع الحضارات الأخرى. هذه مسألة معروفة، مسألة يجب أن نطمئن إليها، وإلا وقعنا في نوع من العزلة التي تطرح تساؤلات تصعب الإجابة عنها.

في عشر آيات من القرآن الكريم (٣٠-٣٩) من سورة البقرة آيات محكمات، يعطينا القرآن الكريم الصورة المحكمة المركّزة للبدء الحضاري في المنظور الإسلامي، وهي تنطوي -هذه الآيات العشر- على كل القيم المطلوبة في آليات العمل الحضاري. نتذكر معاً هذه الآيات العشر لكي نرى المفردات الأساسية التي تتضمنها هذه الآيات، وبالتالي نضع أيدينا على منظومة القيم الحضارية التي تترتب على هذه الآيات وتقود إلى إنشاء الحضارات في المنظور الإيماني. ونتنبه جيداً إلى هذه الآيات المحكمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

يقول تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا: اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم. قلنا: اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم منّي هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

ها هنا نجد أنفسنا إزاء منظومة قيمية تقود إلى إنشاء الحضارات الإيمانية وبدايتها الصحيحة التي تنطلق عبر نموّها إلى الإمام وتمزج نفسها وحجيراتها انطلاقاً من هذه البدايات:

١) خلافة الإنسان في الأرض.

٢) منحه القدرة على التعلم والمعرفة (المقدرة المعرفية).

٣) تكريمه بجعل الملائكة يسجدون له.

إذاً خلافة الإنسان في الأرض، منحته القدرة على التعرّف والتعلّم وتكريمه، الحيثية البشرية حيث يلتقي هنا الجانب العقلي والجانب النفسي والوجداني لجعل الإنسان قادراً على الفاعلية.

٤) ولكن هذا وحده لا يكفي، لا بد من ارتطام، من محاولة إيجاد قطب آخر، فهذه سنة الحياة الدنيا، أن تتحاور الأقطاب وأن يصطرع السالب بالموجب وأن لا يتحرك الإنسان في فضاء لا يجد قبالته عقبات ولا عقابيل، لابد من خلق الطرف الآخرً، وهكذا وجد الشيطان يعني كما يقول (توينبي) -مع تجاوز تحليلاته التي قد تصل إلى حد الخطأ- أنه كما نشأ الكون بالانفجار الكوني العظيم وتحرك في اتساعه وتمدده الدائم، فإن الحياة البشرية والتاريخ البشري لا يستطيع أن يتحرك بدون هذا الارتطام بين الإنسان والشيطان، الشيطان هو الطرف الآخر.

لهذا بدأت المجابهة طويلة المدى بين الإنسان والشيطان المنظور الظاهري الصرف، الشيطان يعني كل صيغ الضلالات والفنون والأهواء والعقبات التي تقف في طريق الإنسان، وعوامل الشد وإغراءات العين التي يستطيع الإنسان بحواره معها، بجدله معها، بمجابهتها، بتفوقه

عليها، أن ينشئ حضارته وأن يمضي مقدماً متحرراً إلى فوق بعد أن يكون قد حقق الحد الأدنى من الوضع الذي يمكّنه من الصعود.

بعد المجابهة بإبليس تجيءقضية الهبوط، والقرآن الكريم لا يسمّيها سقوطاً كما يسمّيها الإنجيل، ليست قضية سقوط وإنما هي الهبوط نتصورها قضية مكانية صرفة، الهبوط من أعلى إلى مكان ما، في هذا العالم الذي هيئ أساساً عبر ملايين السنين ربما لكي يستقبل هذا المخلوق الذي أرادت إرادة الله بعلمه أن ينزل إليها لكي يمارس مهمته الاستخلافية، الهبوط إلى الأرض لأداء التجربة، لبدء العمل الحضاري لإنسان قد استخلف في هذا العالم، قد أُعطي القدرات المعرفية، قد كرُم، قد قيل له انتظرفسيأتيك المنهج من السماء لكي تسير على هديه، فالهبوط إلى هذا العالم لا يمكن أن تحقق أهدافه ما لم تستكمل هذه السداسية أطرافها لمجيء المنهج من الله،

وهكذا كانت النبوات في صميم الفعل الحضاري لتاريخنا الحضاري، وكانوا يجيئون لكي يحملوا الهدى إلى الإنسان الذي ينتظر الهدى من السماء لكي يمضي على الطريق المستقيم. نحن الآن قبالة مثلث محكم الأضلاع: الإنسان أو الخليفة أو المستخلف على الأرض، العالم أو الوجود، **والمنهج** القادم من السماء. هذه الأضلاع واضحة ليست لها خلفيات فلسفية تضبب وتدخن وتدخل الإنسان في دوّامات من العماء، كما تفعل الفلسفات الغربية التي تتعلق دائماً في الظاهر باستنتاجات ومعطيات ظنية وأهواء، ها هنا المسألة واضحة جداً، إنسان قد استخلف في هذا العالم، عالم وجود مسخّر للإنسان بحجمه وكيفيته وقوانينه وسننه، ومنهج من الله لا بد منه لتحقيق التواصل المطلوب بين الإنسان والعالم.

لا يستطيع الإنسان المؤمن أن يتعامل مع العالم ما لم يستمد هديه من السماء، ها هنا تلتقي السماء مع الأرض، نتجاوز في حضارتنا في تاريخنا كل الثنائيات التي فرقت بين العناصر الأساسية في هذا العالم ووضعت بينها سداً وجداراً، ها هنا يلتقي الله والإنسان، السماء والأرض، الوحي والوجود، والفرد والجماعة، الحرية والقانونية التاريخية كل الثنائيات التي يمكن أن نحصيها بـ ٣٦ ثنائية كلها تلتقي في الفاعلية الحضارية من خلال هذا المنظور القرآني للمسألة، وهو منظور واضح محكم لا لبس فيه ولا غموض.

ما هي آليات الفعل الحضاري؟ الآن نجد أنفسنا قبالة هذا المثلث الذي هو الحد الإنساني، الحد الوجودي، الحد الالهي أو المنهج الإلهي، لا تكفي هذه، لا بد من تأكيدات قرآنية أو دلالات أو مؤشرات عمل قرآنية ونبوية تقود الإنسان لتحقيق التعامل في وتائره العليا ما بينه وبين العالم والمنهج الذي يجيء من فوق. لا نبالغ إذا قلنا إن القرآن الكريم مشروع حضاري، لإقامة الحضارة وبنائها، والمضيُّ بها قدماً صوب الأعلى والأحسن والأفضل والأكثر اتساعاً، مسألة لا تقتضي إعمالاً كبيراً للعقل في كتاب الله للوصول إليها.

المفكرون الآخرون يضعون الإنسان قبالة حالات محدودة: ابن خلدون قبالة القبيلة، شبنجلر، قبالة دورية الحياة والموت، كارل ماركس ورفيقه إنجلز قبالة الطبقة ووسيلة الانتاج، توينبي وهو أكثرهم فضاءً يضع الإنسان قبالة البيئة، في القرآن الكريم الإنسان قبالة الله والعالم، قبالة الوحي والوجود، فضاء واسع يمكّنه من الأداء الحضاري، في أكثر فضاءاته اتساعاً وامتداداً. لكن نتساءل ما هي الآليات التي يمنحنا القرآن الكريم إياها لكي نمضي قدماً بعد أن أقمنا حضارتنا من أجل صيرورة متواصلة صوب الأحسن والأرقى.

أمامنا هذه المنظومة المحددة من المفردات وهي: العبادة، والمعرفة، والعمل، وتوظيف الزمن، وتوظيف المكان، وتحرير الإرادة، وهنا يجب أن نستعيد في أذهاننا ما أراده كتاب الله لنا، أن نكون قياديين في هذا العالم، المستوى التأسيسي في كتاب الله نجد أنفسنا في القرن العاشر أو القرن العشرين أو القرن الثلاثين قبالة منهج للعمل الحضاري لإنشاء حضارة قديرة على أن تمضي إلى الأمام بهذه الآليات. ما المساحة المعطاة في القرآن الكريم للعبادة كفاعلية حضارية، وما الأفق الواسع للعبادة كفاعلية حضارية. العبادة ليست شعائر في المنظور الإسلامي، على خلاف كثير من الأديان الأخرى، العبادة فاعلية حضارية، نحن عندما نصلي ونصوم ونحج ونزكي ونكتب ونزرع ونعمل ونصنع ونتحاور، كل فعاليات حياتنا إذا ارتبطت بالله سبحانه وتعالى واستهدفت التقرب إلى الله كانت عملاً حضارياً، وليس عملاً حضارياً اعتيادياً وإنما عمل حضاري يبتغي دائماً الأفضل والأحسن، ويمضي بها صوب التقى والاكتمال، نجد أيضاً هذا المدرج المعروف عندنا في فقهنا الإسلامي في عقيدتنا بين (الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان) صعود متواصل صوب الأعلى فالأعلى يريدنارسول الله في أكثر من حديث وتريدنا آيات الله البينات على أن نمضي قدماً بكل ما نستطيع من قوة في تجاوز هذه المحطات وصولاً إلى حالة الإحسان التي هي بمثابة الإبداع الكامل، نجد أنفسنا قبالة الله سبحانه وتعالى حالة حضارية، مبدأ حضاري وتحفيز لا نكاد نجده في أمة من الأمم، الآن في أمريكا وبريطانيا وفرنسا قد تعاني من الثغرات، لأن الحافز مصلحي براجماتي صرف ليس ثمة حافز يتوغل في كينونة الإنسان لكي يدفعه دائماً للإبداع، حيثما وجدت المصلحة وجد الفعل الحضاري، أما نحن فليس ثمة ارتباط

بمصلحة نسبية أو متغير نسبي، نحن مرتبطون بعقيدتنا التي تأمرنا إذا أردنا أن نكون فعلاً أمة متحضرة أن نجعل أيامنا جميعاً وكما يقول الرسول: «من تساوى يوماه فهو مغبون» إضافة كمية ونوعية إلى فاعليّتنا من أجل التحقق الحضاري المنشود، وفي الوقت نفسه يعطينا قدرَة على أن نمضي بحضارتنا إلى الأمام ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ الهدف الأساسي هو العبادة ولكن أية عبادة هذه، هي عبادة تحمل بعداً ينطوي على بعد حضاري تجعل كل مفردات حياتنا تتسم بهدىً من الله من أجل أن تصير لنا حضارة مؤقتة تتلقى منهجها من الله سبحانه وتعالى، هذا عن العبادة.

ما الحال بالنسبة للمعرفة كآلية من آليات الفعل الحضاري. القرآن الكريم كل ندائه وخطابه معرفي. القرآن الكريم من لحظة التنزيل الأولى بكلمة (إقرأ) وحتى آخر حرف فيه هو خطاب معرفي، كم عندنا في كتاب الله دعوة انظروا، تفكروا، تفقهوا، سيروا، اسمعوا، أبصروا، من أجل الالتحام في العالم وليس الانفصال عنه كما تفعل كثير من الأديان، الالتحام بالعالم للكشف عن سننه ونواميسه.

العمل أيها الأخوة لو ترجعون إلى (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) سوف ترون دعوة متواصلة للإصلاح ورفضاً حاسماً جازماً للإفساد، هي مفاهيم حضارية لآليات للعمل المتواصل، من أجل إعمار العالم وإصلاحه وتعديل الوقفات المعوجة والمضي بالحضارة قدماً بأقل قدر من الإفساد وبأكبر قدر ممكن من العطاء الاصلاحي للأمام، والوقت يتسع لاستعراض عشرات الآيات في هذا المجال لكي نعرف كم هي واسعة متشعبة تأكيدات القرآن على الاصلاح ورفض متواصل للافساد.

في يوم من الأيام أحصيت كم مرّة وردت كلمة عمل في القرآن الكريم بتصريفاتها المختلفة، فإذا بها تبلغ ما يقرب من ٣٦٠-٣٦٥ مرة، كأن القرآن الكريم يريد أن يقول لنا أن السنة ٣٦٥ يوماً، إذاً علينا أن نعمل ٣٦٥ يوماً في السنة، كم في تاريخنا في فتراته المتأخرة بصورة خاصة كسالى قاعدون لم يعملوا من ٣٥٠ يوماً قبالة ٣٦٠ يوماً دعوة للعمل سوى يوم واحد في السنة أو عشرة أيام في السنة أو عشرين في السنة، يوم أن نتلقى هذا النداء جيداً ونعرف ما الذي يريده القرآن منا أن نفعل عند ذلك، فعلاً نستطيع أن نضع خطواتنا الأول في بدايات حضارية صحيحة قديرة على أن تجد لها مكاناً في هذا العالم الذي يضيع فيه من لا يعمل، ويمزج ليله بنهاره من أجل أن يواصل الطريق وأن يجعل يوميه ليسا بمتساويين كما يطلب رسول الله منه صلى الله تعالى عليه وسلم.

توظيف المكان:

آيات التسخير كثيرة جداً، وضع الله العالم بين أيدينا، وضع حديده ونحاسه وناره ونفطه ومدخراته بين أيدينا، وقيل لنا تفضلوا اعملوا، هاتوا ما عندكم، احفروا تشبثوا بالوصول إلى هذه الطاقات من أجل أن يكون لكم مكان في هذا العالم. كلكم تعرفون سورة الحديد السورة التي يحمل اسمها دلالتها والتي تنتهي بالآية القرآنية الحازمة الجازمة الواضحة التي تقول: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ القوة والعزة وحماية قيمنا الإيمانية في هذا العالم لا تتحقق بمليون سنة من الدعاء والذكر ما لم يرتبط الدعاء والذكر بفاعلية حضارية تنقب عن الأرض وتستخرج الحديد الذي أعطيناه، وأنزل إلينا في هذا العالم، يوم نستطيع أن نستخرج الحديد ونصنع منه ما صنعه الغربيون نستطيع حينذاك

أن نحمي إيماننا من الاضطهاد والظلم. نحن اليوم نتباكى على حضارتنا الضائعة وعلى ضياعنا في هذا العالم أبداً، ليس ثمة غموض في هذا الموضوع، المعادلة القرآنية واضحة، وتوظيف المكان واضح، مبدأ التسخير الموجود في كتاب الله جعل العالم تحتنا ليس فوقنا. في بعض النظريات الغربية جعل العالم فوق الإنسان نحن عندنا الإنسان تحت كلمة الله فوق العالم، في النظريات الغربية الجبرية، (دوركايم) في العقل الجمعي مثلاً و(فرويد) في نظرياته عن الدافع الجنسي وضغطها على الإنسان كلها تجعل الإنسان، خاضعاً لقوة اقتصادية لقوة جنسية لقوة جمعية في هذا العالم، وتجعله عبداً أسيراً.

لهذا نحن وضعنا القرآن الكريم فوق الكتلة، ولكن ليس في اصطراع. تمعّن في التوازنات القرآنية العجيبة المذهلة، وضعنا فوق الكتلة لا لنضع أقدامنا عليها ونغزوها كما يفعل الغربيون، هم عندما يكتشفون الفضاء يقولون نغزو الفضاء، يوم يصير عندنا حضارة إيمانية سوف نقول سنحاول أن نكتشف الفضاء، العلاقة بيننا نحن فوق العالم، نحن في وفاق مع العالم ليس هو تحت أقدامنا في حالة إذلال وهيمنة، وليس هو فوقنا كما هو الحال بالنسبة للنظريات الجبرية الغربية، هو عالم في حالة وفاق مع الإنسان والوفاق، ليس الصراع علاقة الإنسان بالعالم في المنظور الحضاري الإسلامي.

ثم هناك أيضاً وأخيراً تحرير الإرادة الإيمانية، تحرير إرادة الإنسان المسلم، الإنسان المؤمن في هذا العالم، يعني آيات كثيرة عديدة نذكر منها:

- ﴿وليحل لهم الطيبات﴾ لاحظوا هنا البداية بالحلال وليس بالحرام وهذه تحمل دلالتها الحضارية (تحرير الإرادة) لم يقل: (وليحرم

عليهم الخبائث ويحل لهم الطيبات)، بدأ بالحلال الذي هو القاعدة في الحقيقة والحرام هو الاستثناءات «وليحل لهم الطيبات ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم» فهو كسر للقيد، وهد يعني مفهوماً ثورياً هذا إذا جاز لنا أن نستخدم المصطلحات الحديثة، (نحن الثوريين)، نحن التقدميين، لأننا نقف في قمة حركة القوانين.

لماذا ادّعى الماركسيون أنهم هم التقدميون، اعتقدوا أنهم امتلكوا ناصية قوانين الحركة التاريخية، وثبت أنه لا قوانين حركة تاريخية. إنه خطأ في خطأ واصطراع كما يقول (جويد مستراتيشي) في الصفحة المختنقة. اصطراع مع الإنسان ومع الفطرة ومع الثوابت الحضارية. نحن أصحاب الوفاق والتناغم مع قوانين الحركة التاريخية، التي قرأنا بعضها في آيات الله البينات. نحن الذين نستطيع فعلاً أن نمضي وقد حررنا أنفسنا وكسر عنّا كتاب الله الكريم القيد ورفع عنّا الإصر والأغلال، يمضي في حالة تحرر كامل من كل الضغوط لكي نوظف المكان. نوظف الزمن نعلم. نعرف. نعبد الله أولاً وأخيراً نشكل حضارتنا الإيمانية. سوف أتوقف عن هذا الحد مشيراً في نهاية هذه المحاضرة إلى أن القرآن يريد أن يضعنا في قلب العالم وليس في حالة عزلة عن العالم، وليس في اصطراع مع العالم وهو يربط أشد الفعاليات كثافة وفاعلية بتقوى الله سبحانه وتعالى.

ها هنا نجد أنفسنا قبالة حضارة من بين كل الحضارات الأخرى، يلتقي فيها المادي بالروحي، في وئام عجيب، قد تتساءلون إذاً ما هي الميزة الأساسية للحضارة الإسلامية بعد كل هذه المميزات الفرعية؟ الميزة الأساسية أن الحضارة الإسلامية من بين كل الحضارات الأخرى تمثل لقاءً مرسوماً بين المادي والروحي بين السماء والأرض بين الله والإنسان، بين

كل الثنائيات التي بعثرتها الحضارات الأخرى وجاء الإسلام لكي يضعها في حالة وفاق ويقود إلى الصراط، ويوم نستطيع أن نتلقى هذه النداءات، ونحولها إلى فاعلية فحين ذاك نكون قد وضعنا خطواتنا الأولى، أو بدأت أكفنا وعقولنا بنسيج حيثيات المشروع الحضاري، ومن بين كل الحضارات الأخرى، التي بادت، تبقى الحضارة الإسلامية، هي الوحيدة القادرة على إحياء جديد أو على استيعاب جديد، لأن ثوابتها في كتاب الله وسنة رسوله باقية إلى يوم القيامة، وشكراً جزيلاً لإصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته جميعاً.

تعليقات ومداخلات

الأخ حسن:

أتصور أن مفهوم الحضارة مفهوم إسلامي غير موجود. بالمفهوم الإسلامي لا بمفهوم قرآني ولا بمفهوم تاريخي، ربما هذا مصطلح موجود عند المؤرخين لكن ليس بالمفهوم المكافئ والمرادف للحضارة.

ابن خلدون يجعل الحضارة ،كما نعلم، آخر طور من أطوار علم العمران وليست الحضارة كمكافئ، إنما هناك علم العمران. ثانياً أنه عند الحديث عن الحضارات الأخرى يبقى الحديث دائماً بالذات في صراع الأنا مع الآخر، في تضخيم الأنا مع الآخر أو أحياناً إلغاؤها أو أحياناً نقدها أو أحياناً احتفالها بذاتها نجد أنه دائماً نقول فلسفة، و نذكر أسماء (هيجل) بينما نتناسى مثلاً (هبرماز) أونتناسى (بوريكا)، عندما يجري الحديث عن علم الاجتماع نتكلم عن (دوركايم) دائماً، وننسى (بارسوز) (جورفتش) وغيرهما، عند الحديث عن علم النفس نتكلم عن (فرويد) وننسى (جاك لاكان)، (بلسكتاري)، عندما نتحدث عن الفلسفة نفس الشيء عن (هيجل) ننسى (جلدلوز) مثلاً، عندما نتكلم عن الفلسفات المادية نجد (ماركس) ننسى (جون لوكاش) ننسى (جورج كنجدلن)، حقيقة يبدو هذه الاشكالية عندنا دائماً، نحاسب الغير وفق معطياتنا نحن.

أتصور أن الفاعلية الحضارية التي ذكرتها موجودة عند الغرب لا أعتقد أن ثمة شيء يختلف، أعتقد الحضارة الغربية، منذ القرن السادس عشرعلى يد (كانت) وقبل ذلك مع (ديكارت) لا شك (ماكس ڤيبر) العمل وروح الأخلاق البروتستانية جزء أساسي من تحليل العمل وقيمته بل البنية المركزية للرأسمالية القائمة على أساس العمل.

قضية الطبيعة والصراع لا شك أنه العلاقة بين الطبيعة (ديكارت) تحول كما يقول (نيتشه) من العلم (الاولوني) إلى العلم (الديوسيزي) علاقة الإنسان بالطبيعة موجودة. الإرادة أعتقد أن مسألة الإرادة مسألة حاسمة ربما لدرجة التطرف عند الوجوديين (سارتر) أو غيره.

أخيراً المفهوم التاريخي وقضية المفهوم الحضاري بالذات. إنسان تكلم عن المفهوم الحضاري كما تكلم ابن خلدون، كل الكلام السابق كان في التاريخ التاريخي، سجل الأحداث اليومية، أو التاريخ الحضاري أو الحضارة وفاعليتها. وإن الذي عمد لهذا التحليل ابن خلدون ولم يتابع هذا الجهد بعده على الاطلاق. والآن اهتمام معظم المسلمين نوع من الاحتفال بذكرى ابن خلدون أما قراءة جديدة لابن خلدون في نظريته، في العصبية والدولة والحضارة والانهيار، أعتقد أنه ما من أحد حتى الآن استفاد منها أو أراد الاستفادة وشكراً لكم.

د. محمد زكي:

تفضل د. عماد بالحديث حول ثلاثية الإنسان والكون والوحي. ما المقصود بالوحي؟ هل المقصود هو الرسالة، أم اللفظ القرآني للوحي وهو ﴿وإذ أوحى ربك للنحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ ﴿وأوحينا إلى أم موسى . .﴾ وغير ذلك من الألفاظ التي تعطي الوحي مفهوماً أوسع من الرسالة؟ شكراً.

د. محسن عبد الحميد:

الهبوط في اللغة معناه الانتقال، وهذا الكلام لا بد أن يكون معلوماً؛ لأن القرآن الكريم قال ﴿اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾، وهذا هو المعنى الأرجح من معنى النزول من السماء إلى الأرض.

الرأي الثاني: في قضية وجود آدم على الأرض أو في الجنة، على الرغم من وجود بعض الروايات والآثار، هو المعنى المعقول المنسجم مع طبيعة حركة الإنسان وعملها في هذا الوجود. فإذاً هو انتقال وليس في هذا منقصة، الأمر الثاني: الكون كان يكون ناقصاً لو لم يأت رسول الله، وهذا يشبه شيئاً كنت قد عرضته في ندوات سنة ٩٢ هنا وهي: لماذا تكون حضارة الإسلام هي الحضارة الوحيدة القائمة على التوحيد؟ لماذا كل الحضارات الأخرى وثنية؟ قبل الإسلام لم تأت حضارة مؤمنة أبداً، بمعناها الشامل الذي يمكن أن ينطبق على الحضارة. في الحقيقة هذا كل ما قاله الدكتور عمادالدين خليل جزاه الله خيراً، إنما هو تأييد لهذا المسألة ولا بدلنا أن نبحث عن هذه المسألة أكثر. أنا لا أدري هل أحد آخر قال بهذا الكلام أم لا؟

اليهود غيّروا وبدّلوا وأنشأوا حياةً أخرى غيّروا فيها التوحيد، وهكذا الأمم الأخرى، نحن يجب أن نؤكد على هذه القضية بكل هذه التفسيرات، وفي كل هذه القضايا التي نريد أن نثبت فيها أن حضارتنا هي الحضارة المتوازنة، لماذا تكون حضارة الإسلام هي التي تقوم وحدها على التوحيد؛ ولم تستطع القوى المتأخرة أن تغيّر هذه الحقيقة؟ ولماذ لم تشكّل حضارة أخرى سبقت الإسلام على التوحيد وإنما كلها كانت حضارة وثنية، والحقيقة أنا أقول ذلك بناءً على استقرائي الشخصي الخاص. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. محمود الرشدان

بسم الله الرحمن الرحيم. شكراً للدكتور عماد، سؤالي: أظن أنك قلت بالاستقراء التاريخي لقيام (٢٧) حضارة بالتاريخ البشري، هل هذه الحضارات مكررة أم أن فيها حضارات متمايزة؟ هل في التاريخ

حضارة قامت ثم سقطت ثم قامت مرة أخرى؟ وإذا كنّا نحن ندّعي أن المسلمين أقاموا حضارة، ونحن الآن لسنا في القيادة الحضارية، هل هناك سنن للقيام والسقوط، ولكن دون استئناف بعد السقوط؟ وهل إذا قامت حضارة أخرى تحمل اسم الإسلام تكون هي إعادة للحضارة الإسلامية السابقة؟ أم حضارة إسلامية (موديل جديد)؟ وشكراً لكم.

أ. أمين نايف ذياب

بسم الله الرحمن الرحيم. دكتور عماد: أكثر من مرة رأيناك وسمعناك وربما هنا اتفاق واختلاف حول عموميات المقولات حول الإسلام في القرآن، ودور الإسلام والقرآن في إنتاج الحضارة الإسلامية، سواء من حيث إسلامية النص، أو عالمية الهدف، أو إنسانية المحتوى.

لكن المشكلة التي هي مشكلة التأسيس والتراتيب، أنت أعطيتني القرآن لكن ما أعطيتني ما هو الترتيب وما هو التأثير وكيف أفهم القرآن، لأن القرآن نص لا ينطق وإنما نص يُفهم، هناك اختلاف على كيفية تأسيسنا في القرآن، فمثلاً نعرف أن القرآن لا يملك معرفة صحته ولا حتى دلالته بفصله تماماً عن مقدمتين عقليتين هما التوحيد والعدل، يعني (أشهد أن لا إله إلا الله) سابقةٌ تماماً على القرآن وعلى الرسالة، وهذه الشهادة ما دامت هي السابقة تماماً عن القرآن وعن الشهادة لمحمد، لأن محمد شهدنا له أنه رسول الله فمن أين استمد يقين هذه الشهادة؟ أو معرفة هذه الشهادة؟ هذه قضية لا بد من إدراكها من أين أتى بيقين. هذه الشهادة؟ (أشهد أن لا إله إلا الله) أليست من الكون المنظور، والقرآن لفت النظر فقط للقول المنظور فإن استعملنا وقرأنا الكون المنظور وصلنا للشهادة.

القضية الثانية أن الشهادة الثانية: بأن القرآن رسالة السماء، صراحة هذا ينبني على إدراك المعجزة، ومعنى المعجزة وغايتها، وإدراك أن القرآن معجزة، أي إدراك حقيقي لمعجزة القرآن، وهذا أيضاً إدراك عقلي واضح جملة وتفصيلاً، بدون هذه الأسئلة صراحة كيف يمكن أن ننتج حضارة من خلال تقديمنا (دوجما) إسلامية شبيهة بالدوجما النصرانية، ما عندنا هو الصحيح، وما عندنا هو الصواب، وما عندنا هو الحق، وما عندنا هو المنتج والمنجز. بقي قضية قلتها أنت: استدعاء التاريخ، القرآن الكريم استدعى التاريخ حوادث ما قبل الرسالة الإسلامية ولكن نحن نحتاج للتاريخ من ١٠ للهجرة إلى ١٥١٦ للهجرة، أي ضمن ١٤١٦ للهجرة أي ضمن ١٤٠٦ للهجرة نحتاجها احتياجاً واضحاً جلياً لإعادة إنتاج حضارتنا في هذه ١٤٠٦ سنين، من الذي كتب التاريخ؟ لم يكونوا لا ملهمين ولا مقدسين. إذاً كيف نستطيع تمحيص حقائق التاريخ الموجودة بيننا ونقعد على حقائق التاريخ المؤثرة بين المحادثين؟ وشكراً.

د. زيد أبوالحاج:

بسم الله الرحمن الرحيم. أشكر الأخ الدكتور عماد على ما قدم. ولديّ سؤالان بسيطان، الأول: الفعل الحضاري ليس حكراً على المسلم تاريخياً وواقعياً. في الواقع الراهن حبّذا لو نسمع إلماماً حول الموقف من الحضارات الأخرى ومدى الاستفادة منها وضوابط ذلك. حول واقع الحضارة الإسلامية في العصر الراهن هل يمكن أن نتكلم عن بيات حضاري للحضارة الإسلامية، لا سيما أنه ليس هناك إطار سياسي واضح، أو ليست مشخصة الحضارة الإسلامية كما كانت في عصور سابقة. هذا الوضع هل يمكن أن نتكلم عن بيان أو ما هي الصورة التي يراها د. عماد؟ وشكراً.

أ. عبدالسلام القدّومي:

بسم الله الرحمن الرحيم. شكراً للمحاضر. الحضارة لم تعرّف في المحاضرة، ويمكن تعريف الحضارة بأنها: « مجموعة المفاهيم عن الحياة من وجهة نظر خاصة» وبما أن وجهات النظر متنوعة ومختلفة في الحياة، بما أن هناك حضارات متنوعة ومختلفة وإن كانت الحضارة الإسلامية تأتي على قمتها. أثناء المحاضرة ذكر موضوع الشيطان بشكل جانبي إلا أنه عندما عرف المحاضر الشيطان لا حظنا أنه يريد أن يحرف الموضوع أنه الصراع أو كذا، الشيطان نحن نعرف أنه إمآ من شياطين الإنس أو شياطين الجن، والدابة الجموح يقولون عنها أنها شيطان. الحضارة الإسلامية تقوم في فلسفتها عن مزج المادة بالروح، وهذا ما ذكره المحاضر. الإحسان هو النزوع بالمسلم نحو الكمال الإنساني. الآن السؤال، لم أعرف ما يقصد المحاضر بالجبرية الغربية. والسؤال الثاني كيف نستطيع بناء الحضارات الإسلامية على ما نحن عليه في هذا الزمن، وعلى أساس المنهج الالهي؟ نريد أن نخطو الخطوة الجريئة الصحيحة، كيف على أساس الكتاب والسنة والمنهج الرباني، نستطيع أن نبني حضارتنا مرة أخرى؟ وشكراً لكم.

الأخ مروان:

بسم الله الرحمن الرحيم. جزى الله خيراً د. عماد على هذه المحاضرة القيمة وسؤالي حول معنى الهبوط حيث ذكر أحد الأخوة أن الهبوط معناه الخروج وأجدني في سورة البقرة عندما تلا المحاضر «قلنا اهبطوا منها» وأنه قال في آيات أخر، عن إبليس ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾ هنا الهبوط هل يقصد به كما ذكر كثير من المفسرين هبوطاً معنوياً أم هبوطاً مادياً؟ وهل معناه الخروج؟ حيث أن الله عزوجل عندما ذكر بداية في سورة البقرة

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ بما أن أساس خلق آدم عليه السلام كان للأرض، بالتالي كثير من الناس من يعتقد حماقة أنه لولا ذنب أو معصية آدم لله لبقينا في الجنة وهذا أمر خاطئ إنما خلق آدم عليه السلام كان للأرض أصلاً لكن هنا الهبوط، أريد أن أتساءل، وإن كان هبوطاً مادياً فكيف نوفق بينه وبين بداية عرض الآيات من الآية ٣٠. وجزاكم الله خيراً.

أ. إبراهيم العوضي:

لدي سؤالان: الأول حول النظرة التوافقية بين الإنسان والكون وجعلت هناك مثلثاً للإنسان والوجود والوحي. فما المقصود بالوجودي؟ الإنسان والوجود والوحي، وما رأيك بما طرحه الأستاذ مالك بن نبي حول هذا المثلث في الحضارة، وقال إن الزمن والتراب ثم الله في هذه المنظومة الثلاثية؟ بعد ذلك أحب أن أعقب عن موقع الإنسان من النظريات المحدثة وقلت أنه مثلاً (انجلز وماركس) جعلا الإنسان قبالة الطبقة ووسيلة الانتاج، و تويبني جعلها قبالة البيئة. أما ابن خلدون فجعلها قبالة القبيلة، في الحقيقة ابن خلدون فيما يتعلق بهذه القضية كان أكثر علماء المسلمين الذين طرحوا قضية الحضارة، لكنها كانت قراءة إشكالية من قبل مؤرخينا كثيراً، قلت أنه جعلها قبالة القبيلة، الحقيقة أقول إن ابن خلدون جعل اتكاءه أصلاً على المعطيات الإسلامية، والحضارة الإسلامية. ثم في كتابك أو بحثك القيم حول إسلامية ابن خلدون. ذكرت غير ما قلت: أن الإسلام طرح القضية الكبرى هو أن الإنسان مقابل الله سبحانه وتعالى وكان اتكاء ابن خلدون أيضاً على هذا المعطى. أرجو التوضيح. وشكراً.

إجابة د. عماد الدين خليل:

بسم الله الرحمن الرحيم. نحن في الحقيقة بحاجة إلى منهجية، إلى تقاليد منهجية في محاضراتنا، في مناقشاتنا من أجل الوصول إلى نتائج أكثر إحكاماً، في التقاليد المنهجية، إن محاضرة خصص لها ٤٠ دقيقة يجب أن تذهب قدر الإمكان إلى الموضوع الذي أعطى لها، وأن لا تذهب إلى سياقات أخرى تذهب بمحاذاة أو بموازة الموضوع وإلا احتاجت إلى ٢٥٠ دقيقة، أعني أنا لست بصدد الحديث عن المصطلح الحضاري هذا يحتاج إلى محاضرة كاملة.

نتفق نحن كلقاء بين محاضر وجمهور مثقف على أن مفاهيم كالحضارة والمدنية والثقافة واضحة في أذهاننا. المدنية هي الجانب المادي، والثقافة هي الجانب الفقهي والذوقي والتصوري. كذلك في سياق ما ذكره الأخ حسن من استعراض لأسماء عديدة في كل سياق من سياقات المعرفة البشرية يقتضي وقتاً، نكتفي بالاشارة إلى (ماركس وانجلز) اقتصاداً في الوقت وإلا كما قلنا لن نستطيع أن نمضي خطوات لاشباع الموضوع الذي بين أيدينا.

كذلك بعض الأخوة الأعزاء أشكرهم على هذه الملاحظات القيمة التي ستفيدني كثيراً إن شاء الله. الذين أشاروا ما الذي علينا أن نفعله في القرن العشرين لاستعادة حضارتنا الإسلامية، وما موضوع المشروع الحضاري البديل، والذي يحتاج إلى محاضرة أو أكثر من محاضرة مستقلة.

ليس هذا هو موضوع محاضرتي أيها الأخوة. موضوع محاضرتي: (هو دراسة مقارنة نشوء الحضارات تاريخياً بيننا وبين الحضارات الأخرى) هذه القضية فيها غبش وفيها مداخلات عديدة، ونحن بأمسّ الحاجة لمعرفة هل عندنا وجهة نظر مستمدة من كتاب الله

وسنة رسوله. أنا وأخ معي نشتغل بتكليف من المعهد العالمي بمحاولة جمع كل المعطيات النبوية بخصوص التاريخ والحضارة فيما يسمى دليل التاريخ والحضارة، هي فهرسة وجمع معطيات الرسول في أحاديثه الصحيحة عن كل ما يتعلق بالتاريخ والحضارة وهي منظومة كبيرة ثمينة خصبة في هذا المجال، الوقت لا يتسع للحديث عن الكثير من الأمور. الأخوة الذين طلبوا ما الذي علينا أن نفعله في اللحظات الراهنة لاستعادة حضارتنا، ليس هذا هو مهمة هذه المحاضرة.

الأخ حسن يقول إن المفردات الموجودة في الحضارة الإسلامية موجود في الحضارات الأخرى، وأنا طرحت في البداية، سنكون مخطئين منهجياً إن قلنا إن الحضارة الإسلامية تنعزل أو تتميز عن الحضارات الأخرى بما يجعلها في حالة اختلاف كلي، ذكرت أن الكثير من ثوابت، ومن مفردات الحضارات الأخرى، يمكن أن تلتقي مع حضارتنا، هناك ثوابت مشتركة وأنا أكدت هذا خشية أن ينصرف الذهن إلى غير ذلك.

ابن خلدون عليه مكتبة كاملةكتبها عرب ومسلمون وغربيون، يمكن أن الرجل الثاني في التاريخ البشري بعد شكسبير الذي قدمت عنه مؤلفات هو ابن خلدون، مكتبة بكاملها عن ابن خلدون من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، ومن أعماق الفكر الاستشراقي، مكتبات كثيرة وبقدر ما يتعلق فينا نحن في الدائرة الإسلامية، قدمت جهداً متواضعاً لا أدري مدى مقاربته للحقيقة في كتاب بعنوان «ابن خلدون إسلامياً».

أ. د. محمد زكي محمد، يسأل عن المقصود عن الوحي وهو سؤال في محله لأن المقصود هنا هو: الكتب السماوية، المنهج القادم

بواسطة وحي إلى هذا النبي وذاك، وبصورة خاصة الوحي المنزل على رسول الله ، والذي نزلت بواسطته آيات القرآن الكريم، على مكث على رسول الله، وليس الوحي بمفهومه اللغوي والذي يمضي إلى قضية الإيحاء بسياقاته المختلفة التي تحدث عنها القرآن أيضاً. إنما هنا، المقصود به الوحي الذي ينقل كتب السماء أو هداية السماء أو منهج الله إلى الناس.

أ. د. محسن عبد الحميد، يشير إشارة قيّمة إلى قضية الهبوط وأنها لا تتضمن سقوطاً معنوياً وإنما هو دخول أو خروج، يبدو أنه حركة في المكان، هذه المسألة أيضاً أشار إليها الأخ مروان يمكن تنقلنا إلى بعض المعطيات الغيبية في كتاب الله لا نستطيع أن ندلي فيها برأي، كيف أخرج آدم من الجنة؟ كيف انتقل من هناك إلى هنا؟ هل هي حركة أفقية؟ هل هي حركة من فوق إلى تحت؟ هل هي حركة في الجغرافيا؟ حركة في (الهيوليا) الغامضة التي لا ندري كنهها؟ نحن في أمس الحاجة إلى أن نتريث قليلاً قبل أن نصدر حكمنا على هذا. إنما كما قال الأخ د. محسن عبدالحميد: الهبوط ليس انكساراً نفسياً ولا سقوطاً وإنما هو تحول، دخول أو خروج، أيضاً هنا، (إشارة للأخ مروان): الهبوط بالنسبة لآدم لا ينطوي على معنى السقوط لكن بالنسبة لابليس ينطوي على السقوط وهي كلمة تنحت نفسها من مصدر ثلاثي واحد وهو (هبط)، يقول الله تعالى بالنسبة لإبليس: ﴿فاهبط منها لا يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج منها إنك من الصاغرين﴾. هبوط إبليس هنا هو هبوط انكسار وإذلال ولكن بالنسبة لآدم فعل (هبط) الثلاثي نفسه لا ينطوي على أي قدر من الاذلال أو من الانكسار أو محاولة السقوط أو معنى السقوط.

د. محسن، أشار إلى نقطة مهمة: أن الحضارة الإسلامية تمثل كمال المحاولات النبوية جميعاً في تقديم حضارة ذات بعد توحيدي.

وهي مسألة وقف عندها د. فاروقي -رحمه الله- وقفة متأنية، وقدم انعكاسات مفهوم التوحيد على نسيج الحضارة الإسلامية.

أيها الأخوة نحن في حضارتنا نكاد نكون كل حجيرة من حجيراتها، في سلوكنا اليومي، في عاداتنا، في طبائعنا وأذواقنا وصولاً إلى تصوراتنا الكبرى التي تنبض بالتوحيد، مسألة في أمس الحاجة أن نعتز بها وأن ندرسها أكثر وأكثر، وكما يقول (جارودي) أن هذه الكلمة هي التي صنعت حضارة الإسلام، وكما يقول أحد المستشرقين (رملاندو): أن الإسلام دخل برؤيته التوحيدية إلى الحياة الإسلامية فأعاد تشكيل الطباع والتقوى والبيوت أيضاً. ما من حضارة تنطوي على هذا الانعكاس المذهل لمفهوم التوحيد كحضارتنا الإسلامية.

أ. د. محمود الرشدان، يسأل عن ٢٧ حضارة، أنا قلت أنه ليس عندنا منهج في الدراسة الحضارية، نحن عالة -بصراحة- على محاولة (توينبي) الذي قضى أربعين سنة في استقراء الحضارات البشرية، حتى وصل إلى هذه النتيجة: أن التاريخ البشري شهد حتى اللحظات الراهنة ٢٧ حضارة، راح منها ٢١ بادت و اندثرت، ولا يمكن أن تستعاد لأنها لا ترتكز على ثوابت قديرة على الديمومة في الزمن والمكان، كالثوابت الإسلامية، حتى الديانات النصرانية التي تحمل انجيلاً واليهودية التي تحمل توراة وزبوراً، والهندية وغيرها. انحرفت ثوابتها، لم يعد الانجيل قادراً على خلق حضارة جديدة، لكن القرآن الكريم وسنة رسول الله يحملان مصداقيتها الكاملة، وقدرتهما على الديمومة بسبب حماية نفسهما من التآكل والفناء، وبالتالي يمكن أن يقول الإنسان بثقة: إن المسلمين الأمة الوحيدة القديرة على الاستعادة والاحياء من أية أمة أخرى لأنهم سينطلقون من الثوابت التي قدرت على أن تحمي نفسها من عاديات

لأنهم سينطلقون من الثوابت التي قدرت على أن تحمي نفسها من عاديات التآكل والفناء.

إمكانية الاستعادة للحضارات الأخرى، وهل الحضارة الإسلامية القادمة والتعبير اللطيف للأخ د. الرشدان ستكون (موديل جديد). أكيد التاريخ لا يعيد نفسه، كما يقول (كروتشا): التاريخ كله تاريخ معاصر، لكن الثوابت تبقى هي الثوابت، السنن هي السنن، الإنسان هو الإنسان، الميول، الأشواق، العادات، التقاليد، كثير من الثوابت هي نفسها، لكن يبقى هناك هاجس كبير للمتغيرات. بالتالي فإن أية استعادة لحضارتنا الإسلامية في القرن العشرين أو القرن الثلاثين، ستكون منطوية في الوقت نفسه على ما هو ثابت وما هو متحول أو متغير؛ لتحقيق الوفاق بين الحضارة التي تطمح لأن تجد لها مكاناً في العالم، وبين نبض العالم في اليوم الذي ستتشكل فيه. سنتحرّك في القرن الأول الهجري بالتأكيد وفق متغيرات جديدة، وفق منظومة من العلاقات، شبكة من المعطيات، العالم متغير بمعنى الكلمة، ينزل الإسلام بحضارته لكي يتعامل مع العالم بمتغيرات ولكن بثوابت بالوقت نفسه.

الأخ أمين نايف ذياب يتحدث عن التأسيس القرآني. كيف عبر عن إنشاء الحضارة، ويتحدث عن القرآن كمعجزة. أقف عند الملاحظة الأخيرة من التعليق القيم، حول أن التاريخ الإسلامي الذي عمره ١٤١٧ سنة في حاجة إلي تمحيص، أيضاً هذه ليست مهمة هذه المحاضرة، محاولة تمحيص تاريخنا، والوصل إلى حقائقه الأساسية، وتقديم مغزاه ومعناه للناس، ليس من مهمة هذه المحاضرة، التي انعزلت كلية عن التعامل مع التاريخ الإسلامي المتحقق في الزمان والمكان، إلى التأسيسات القرآنية لكيفية نشوء الحضارات ونموها مقارنة بالحضارات الأخرى.

الأستاذ زيد أبو الحاج يتكلم عن الفعل الحضاري وأنه ليس حكراً على المسلم. ونحن متفقون معه جميعاً على هذا ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ بدليل أن ٢٧ حضارة واحدة منها إسلامية، وأن اثنتين أو ثلاثة دينية مستمدة من السماء وثلاثة وعشرون حضارة موضوعية مستمدة من قوانين الأرض وقدرات العقل البشري على الفعل والاكتشاف. يتكلم أيضاً عن الموقف من الحضارات الأخرى، وإمكانية الحوار، نحن دائماً نستخدم عبارة الصراع الحضاري، الحوار الحضاري، وما شئنا من المصطلحات تقودنا إلى أننا نعيش في عالم أصبح يشبه قرية صغيرة. في بداياتنا الأولى يوم كان العالم متباطئاً متباعد المسافات، قدر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن يوظف بعض المعطيات الحضارية لتسيير آلية الدولة الإسلامية، كالدواوين التي أخذها عن الفرس، ونظام بعض التنظيمات التكتيكية العسكرية التي أخذها عن الروم، وظفها. فالحوار قائم في القرن العشرين وهو أشد الزاماً في القرن العشرين، شرط أن تمتلك ونحن نتعامل مع معطيات الآخر رؤيتنا الإسلامية ذات المعايير الصارمة المستمدة من كتاب الله وسنة الرسول، وإلا وقعنا في ما وقع فيه بعض آبائنا وأجدادنا عندما تلقوا سيّال الفكر الفلسفي اليوناني، وانحرف بهم ذات اليمين وذات الشمال، الصحيح أن نيتهم كانت خالصة لوجه الله لأن يوظّفوا هذه الآلية لتعزيز الإيمان، لكنهم وقعوا في الخطأ بمزيد من التقبل لهذه الأجسام التي تنأى في بعض حيثياتها عن المنظور التوحيدي الخالص للإسلام.

الأخ الأستاذ عبد السلام القدومي المصطلح الحضاري أيضاً ليس من مهمة هذه المحاضرة، أن نقول ما معنى العمران؟ ما معنى المدنية؟ ما

معنى الثقافة؟ ما معنى الفكر؟ ما معنى المعرفة؟ ما معنى العلم؟ نحن متفقون أن الحديث عن كيف تنشأ الحضارات لمفهومه الشّامل الذي ينطوي على هذه المفردات جميعاً، ويسأل عن الشيطان والصراع وأن الشيطان أُقحم. لا، الشيطان جملة وتفصيلاً عنصر من عناصر استثارة الشد والمقاومة والمجابهة ﴿لا يفتننكم الشيطان﴾ هذا النداء القرآني.

دعوة انسلاخ عن شد الأرض والتحرر والصعود إلى الفوق، هذه التي تولد الفعل وتولد القدرة على المقاومة، وإلا لو نحن نشأنا في بيئة لا شيطان فيها ولا شر ولا ضلال، نسير ونحن أسلمنا أنفسنا للكسل، وتخلفنا عن مواقفنا القيادية، فكيف يجد المؤمنون أنفسهم في عالم لا شرّ فيه ولا ضلال ولا شيطان ولا صراع، فيسلمون أنفسهم لنوم عميق لا يستيقظون فيه إلا على النفخ في صور يوم الحساب، حكمة الله شاءت أن تضعنا في قلب المعمعة، في قلب الصراع، في قلب المجابهة والتحدي، من أجل أن نستجيش طاقتنا، وأن نكون، والإنسان لا يكون إلا بالمجابهة، وهذا الجهاد الأكبر، تصوروا أنه سمّي بالجهاد الأكبر وقد أعطي مساحة أكبر من الجهاد الأساسي على مستوى العالم وجغرافية العالم، ذاك سمي الجهاد الأصغر، وهذا الجهد الأكبر على النفس، على الوسوسة الشيطانية، على كل عوامل الشد، وهو صراع نعانيه دقيقة بدقيقة ولحظة بلحظة، والرجل الرجل هو الذي يستطيع أن يتجاوز شد هذا الصراع صوب الأعلى فالأعلى في هذا السلم الذي تحدثت عنه، - والمعروف لدى الجميع- ما بين الإسلام والإيمان والتقوى والإحسان.

الأستاذ إبراهيم العوضي: المقصود بالوجود الوجود يعني العالم أو الطبيعة (الإنسان، المنهج، الوحي). الوحي هو المنهج القادم من عند الله، متمثلاً في أقصى حالات اكتماله بكتاب الله الذي جاء مصدقاً لما

بين يديه من الكتب. القرآن الكريم والسنة النبوية، هذا هو المنهج، والإنسان هو الإنسان المسلم القدير على التعاون مع المنهج لإعادة صياغة الوجود أو العالم أو الطبيعة أو الكتلة الكونية أو ما شئنا من تسميات ليس بالمفهوم الوجودي الاصطلاحي، المستمد من الفكر السارتري. لا، الوجود يعني الوجود المادي المنظور الذي يقف قبالة الوحي أو الغيب، أتصوّر أنني أجبت على معظم المفردات. وشكراً جزيلاً لكم.

الاستشراق

جذوره التاريخية، وصلته بالسياسة

د. إسماعيل أحمد عمايرة

قسم اللغة العربية/ الجامعة الأردنية

الجذور التاريخ للظاهرة الاستشراقية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبعد، فقد سبق أن تحدثت في دراستين سابقتين[1] عن المستشرقين واللغة العربية وقد رأيت في هذه الدراسة أن ألقي الضّوء على صفحة أخرى من هذا الموضوع المتشعب الغائص في أعماق التاريخ الحضاري للشرق والغرب على حد سواء.

وتتمثل هذه الصفحة في الجانب التاريخي لأسباب سوء التفاهم الذي حصل عبر التقاء الحضارتين: الإسلامية والغربية، وأثرذلك على علاقة المستشرقين باللغة العربية تاريخياً.

كما ترمي هذه الدراسة إلى الإشارة إلى الجذور التاريخية للاتجاهات الاستعمارية والنصرانية والعلمانية من خلال علاقتها بالشرق الإسلامي.

---

(١) نشرت هاتان الدراستان ضمن سلسلة «دراسات لغوية» التي يصدرها المؤلف منها بعنوان: «المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية وهي تحمل الرقم (٢) من السلسلة، بعنوان: «المستشرقون ومناهجهم اللغوية - المنهج المقارن، والمنهج الوصفي، رقم (٤)، دار الحنين للنشر، عمان، الأردن، ط٢.

ومن أظهر الأهداف التي تسعى إليها أن تعطي فكرة كافية عن تاريخ الصلة بين المستشرقين والعربية منذ أقدم العصور، وأن توضح الجذور التاريخية والثقافية لهذه الظاهرة حتى يتسنى لنا أن نفهم واقعها ومستقبلها.

ومن مرامي هذه الدراسة أيضاً أن تبين كيف أن بحث هذه الظاهره ينبغي أن يتم في سياق الإطار التاريخي لعلاقة الإسلام بأوروبا منذ كان هذا الاتصال إلى يومنا هذا. كل ذلك في سياق التوصل إلى أسباب سوء التفاهم، سعياً وراء صيغة أفضل للكشف عن الحقيقة التي تمثل الهدف المنشود الذي تسعى إليه البشرية شرقاً وغرباً وفي كل اتجاه.

لا شك أن سوء التفاهم وتعميق هوة الخلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية نتج عن أسباب يحمل تبعتها الجانبان: الجانب الإسلامي والجانب الغربي، وهي أسباب عديدة تشابكت حتى غدت فيها (الأعراض) الطارئة على الزمن أمراضاً مستعصية نتج عنها أعراض من نوع جديد. وهكذا تصبح النتيجة – مرة ثانية – سبباً تتوالد عنه نتائج أخرى. ولا أحسب – حتى الآن – أن الفرصة قد أعطيت بالقدر الكافي لأن يعرف الطرفان: المسلمون والأوروبيون، أحدهما الآخر في معزل عن أسباب سوء التفاهم. وسأضرب فيما يأتي مثلين يوضحان مسؤولية الجانبين في تحمل أسباب سوء التفاهم:

أولاً: مسؤولية الجانب الإسلامي في تعميق أسباب الخلاف.

أ– التوسع في الفتوح وقلة التأثير الإعلامي الإسلامي:

فمن الجانب الإسلامي ترتب على الانتشار السريع للفتوحات الإسلامية في أوروبا بعض النتائج التي تختلف عن النتائج التي حققها المسلمون في المجتمعات النصرانية المجاورة لبلاد العرب، ففي تلك

المناطق القريبة كان الجمهور النصراني يرى بأم عينيه عدالة الإسلام من خلال الممارسة العملية التي يعيشونها، ثم إن معرفة الطرفين: المسلمين والنصارى المجاورين، أحدهما للغة الآخر كانت على نطاق ضيق في البداية، ولكنه نافع إلى حد ما في أن تعرف هذه المجتمعات أشياء كثيرة عن الإسلام، وبخاصة أن هذه المعرفة قد زادت يوماً بعد يوم إلى أن أصبح أبناء الشعوب المفتوحة - بعامة - من أشد الناس تمسكاً بالإسلام - بل لقد شاركوا في فتح المناطق الأخرى، وإن كان لمشاركة كثير منهم محاذير يضيق المقام عن ذكرها. وعلى العموم، فقد ظلت البلاد المفتوحة على الإسلام منذ أن عرفت حقيقته وآمنت به، ولكنه لم يدم طويلاً في معظم أقطار أوروبا التي دخلها كجنوب فرنسا وإيطاليا وسويسرا.

لقد ترتب على سرعة الفتوحات الإسلامية في أوروبا دون نشاط ثقافي كاف أن شعر هؤلاء بالضيق، وفي هذا المعنى يقول (رينو): (إن الشيء الذيٌ كان يضايق المسيحيين هو أن عدوهم قد استقر في كل مكان وفي وقت واحد)[1].

وقد ترتب على الفتوحات السريعة قلة التأثير الإعلامي الإسلامي تقريباً على تلك الأقطار المفتوحة، في الوقت الذي كان فيه الفارون من النصارى والمتمردون في بلاد الشام ومصر، يقومون بإعلام مضاد للمسلمين، فيقدمون الإسلام والمسلمين للشعوب الأوروبية في صورة مشوهة منفرة، فيصورونه على أنه نوع من الوثنية، أو نوع من أنواع الانحراف عن النصرانية، أو ضرب من ضروب الغضب الرباني الذي سلطه الله عليهم لانحرافهم عن دينهم. ولهذا (فإن المسيحيين كانوا عندما يسمعون صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة يتعوذون ويرسمون إشارة

---

(١) «رينو» ص ٤٢.

الصليب على صدورهم ويقولون إنه صوت الدجال)[1] أي علامة اقتراب الساعة.

ب- الخلط بين دوافع الفتح الإسلامي ودوافع غير المسلمين:

وقد ترتب على هذا مزيد من العنف والقتال في تلك البلاد، ثم حدث أن تشابكت الفتوحات الإسلامية في أوروبا مع ذكرى غزوات وحشية كانت تشنها القبائل الوندالية الوثنية، وهي قبائل لايزال اسمها يثير الفزع ويذكّر بأقصى أنواع الشراسة والوحشية التي عرفتها أوروبا... وما يزال يحلو للمؤرخين الأوروبيين أن يقارنوا بين المسلمين والوندال الوثنيين بزعم أن العرب والوندال قبائل آسيوية.

وممن يعودون بالقبائل الوندالية إلى أصول آسيوية طورانية ومنغولية، ويقارنون بينهم وبين القبائل العربية، وبالتالي بينهم وبين المسلمين في فتوحاتهم لأوروبا، المؤرخ الألماني: فرويند[2].

وأما المستشرق الفرنسي (رينو) فيشير إلى رأي بعض المؤرخين الذين يربطون بين الونداليين والشعوب المُجَريّة. وعلى أية حال فإن كلمة (وندال) تعني تلك الشعوب البدائية الوثنَية التي كانت تجتاح أوروبا بحثاً عن الغنائم والمراعي. كما أن المعنى الحرفي لكلمة (vandres) تعني «المتشرد» وهي في الألمانية (wandalen).

وقد ترتب على هذا الخلط بين المسلمين والوثنيين أن شبّه الكُتّاب الأوروبيون المسلمين بالأعاصير الهوجاء الصحراوية المدمرة التي هبت من الجزيرة العربية، على حد تعبير «فرويند»[3] أما رينو[4] فيصرح بأن

---

(١) «رينو» ص ٢٤٤.

(٢) انظر «فرويند» ص٧.

(٣) انظر «رينو» ص٢٨.

(٤) انظر، «فرويند» ص ٧.

معاصري الفتوحات الإسلامية من الأوروبيين كانوا يسمون المسلمين وندالاً ويُسمّونهم وثنيين.

وجاءت كلمة مسلم، مرادفة في تاريخ أوروبا لكلمات كثيرة يدلُ معظمها على الأخطاء التاريخية التي رافقت سوء الفهم الأوروبي للحضارة الإسلامية، وقد أُطلق على المسلمين اسم: عرب، وإسماعيليين، نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكما عرفوا بالسرازانيين، ويقال أن أصل هذه التسمية مُشتق من اسم (سارة) مع أن سارة لم تكن أم اسماعيل عليه السلام، وأطلق عليهم اسم البدو والترك، والبربر، والأفارقة، والوثنيين... وفي مراحل سابقة دُعوا بالرومان والإغريق ثم بالهراقطة، ومن هذه التسميات الوندال، والمجر. هذا غير الصفات البذيئة كأبناء الشيطان، والحيوانات، ونسل إبليس.

ولا شك في ارتباط بعض هذه التسميات بنظرة التوراة التي بين أيديهم للشعوب، وارتباط بعضها الآخر بعدم الوعي التاريخي قد أحدث خطءً، وقد أخذ «رينو» يسوق القصص على نتائج هذا الخلط الذي ترتب عليه مزيد من الإمعان في تشويه صورة الإسلام والمسلمين منذ تلك الأزمان إلى يومنا هذا. قال المستشرق الفرنسي «رينو» بهذا الصدد:

«وقد زعم كاتب التاريخ المنسوب إلى رئيس أساقفة «نورين» أنّه يُوجد في الأندلس على شاطئ البحر فوق عمود شديد الارتفاع صنم من البرونز صنعه محمد بنفسه ويعبده المسلمون، وكذلك ادعى «فيلومين» في تاريخه القصصي حول غزو (شارلمان) لمقاطعة (لانجدوك) أنه كان يوجد تمثال لمحمد مصنوع من فضة مذهّبة في مدينة «أربونة» وُضع في معبد أثناء احتلال المسلمين لهذه المدينة. ومن جهة أخرى جاء في مسرحية بعنوان «ألعاب سانيكولا» التي كانت تلقى كثيراً من النجاح في العصور الوسطى، أنّ أميراً مسلماً في إفريقيا كان يعبد صنماً اسمه تيرفاجانت (Tervagant). وأنه كان يُغطِّي خديه بأوراق من الذهب

حينما يحصل على حاجته . . . وأخيراً فقد جاء في القصيدة الفرنسية التي تروي أعمال البطولة التي قام بها «رولان» أنّ سكان «سرقسطة» المسلمين وقع اختيارهم على مغارة لتكون معبد آلهتهم، وأنهم نصَبوا في هذه المغارة تمثالاً من الذهب في يده صَوْلجان وعلى رأسه اسم (تيرفاجنت) الذي يحرف «تيرماجنت» يتردد كثيراً مع اسم «أبو لين» في الروايات الخيالية الفرنسية القديمة وفي غيرها من كتب الأدب. وهذه الأسماء يُدَّعى أنها آلهة إسلامية[1]. انتهى كلام «رينو».

فانظر مدى الجهل الذي شكل عناصر الخلفية التاريخية الأوروبية عن الإسلام في يوم من الأيام وما تزال آثاره على نحو أو آخر .

ومما ترتب على غياب الصوت الدّعويّ الإعلامي من جانب المسلمين في أوروبا، وعلى المعارك الدامية التي سالت جراحها المثخنة على صفحات التاريخ الإسلامي الأوروبي أنْ خلا الجو لبعض القساوسة ورجال الدين النصراني لتشويه صورة الإسلام في أذهان الأوروبيين. ومما زاد الطين بلّة أن جنّد هؤلاء إلى صفهم خيال الشعراء ومؤلفي القصص الشعبية ليقوموا بدور «التعبئة الشعبية» في حرب المسلمين، حتى لقد أصبح الشعر والقصص الخيالي مرجعاً يُعاد إليه في فهم الإسلام، وفي هذا يقول «جوزيف رينو»: «نحن ندرك إلى أي مدى استطاع مؤلفو قصص الفروسية التأثير على نفوس الناس وتضليل العقول بحيث أصبحت رواياتهم مصدراً للخلط والاضراب»[2]

(١) انظر، «رينو» ص٢٨ .

(٢) «رينو» ص ٢٢١ .

حسبي بهذا مثالاً كافياً على بيان ما ترتّب على التوسُّع الإسلامي في الفتوحات دون أن يَصْحب ذلك جهد دعوي إعلامي إسلامي يُراعي الطبيعة الخاصة بكل منطقة يتجه إليها جيش الفتح مما أتاح الفرصة في سد الفراغ الناجم عن ذلك إلى كل ما حيك عن الإسلام والمسلمين من وهم وخطأ.

ثانياً: مسؤولية الجانب الاوروبي في تعميق أسباب الخلاف: الأوروبية

أ- النرجسية الأوروبية ودورها في تعميق الخلاف:

أما من الجانب الأوروبي فحسبي أن أذكر مثلاً واحداً لذلك أيضاً، فقد دأبت الشعوب الأوروبية على تنمية إحساسها المفرط بتعاليها و «نرجسيتها» وما ترتب على ذلك من جهل بأم الأرض، حتى لقد ظلوا إلى عصور متأخرة، بل ربما إلى يومنا هذا، يحسبون أن الأرض مخلوقة لهم، وأنّ من أطرافها البعيدة أو ربما من خارجها تنبري لهم بين الحين والآخر أمم عارضة غامضة أطلقوا عليها اسم الوثنيين تارة، وأتباع المسيح الدجال تارة أخرى، وكلما اشتد اليأس بالشعوب الأوروبية عادت ثانية إلى تفسير ذلك بأنه آية من آيات اقتراب الساعة وأنّ عدوهم المسيح الدجال قد ظهر، وأن ما يحل بهم من ضيق هو من فعل جُنده.

وقد كانوا حيال عدوهم بين اثنين: داع إلى القتال، وداع إلى الاستسلام، وعلى الحالين فلا وقت لفهم عقيدة هذا العدو، ولا إلى ما بين عدو وعدو من فروق، وعلى هذا فقد كانوا في كثير من الأحيان لا يفرقون بين المسلمين والإغريق، ولا بين المسلمين والرومان.

يقول «رينو»: «وما دام وصْف «الوثنيين» يشمل المسلمين والرومان معاً فلا عجب أن يعزو أكثر من كاتب واحد من كتاب العصور الوسطى الآثار الرومانية الموجودة في «دوفيني»، و«ليون»، و«فيان»، و«أورانج»

إلى المسلمين وأكثر من ذلك : «فلا غرابة في أن تختفي أسماء الغزاة الآخرين وتتستر كلها وراء اسم المسلمين»[١]

ولعل من المضحك المبكي أن الشعب الفرنسي متى غضب على اليهود بسبب الممارسات الربوية، شمل غضبه المسلمين أيضاً[٢]. وما تزال العقلية الأوربية تربط بين عدائها للإسلام وعدائها «للساميّة» باعتبارهم الإسلام نتاج الغقلية الساميّة !

ب- استمرار أسباب سوء التفاهم من جانب الأوربيين :

وقد ترتب على هذا أن أُلصق بالإسلام في نظر الأوروبي كل صفات تلك الشعوب الوثنيّة، وعُزِيَ إلَيهم سلوكُها ووحشيتها، وما تزال أوروبا لم تتخلص نفسياً من آثار تلك الحقَب التاريخية المتراكمة التي تربَّت فيها النفسية الأوروبية. . وفي هذا يقَول «دانييل» : «إنّ مسائل الخلاف بين الإسلام والمسيحية لم تتغير، والمسيحيون يميلون دائماً إلى إثارة الانتقادات نفسها، وعلى الرغم من أنّ بعض الكُتّاب في العصر الحديث يحاولون نسبياً أن يتحرروا من الاتجاهات المسيحية، فإنهم على العموم لم يستطيعوا تحقيق ذلك القدر الذي توهموه»[٣]

ولا يتسع المقام لأمثلة كثيرة تؤكد ماقاله «دانييل» : وسأكتفي بضرب مثل واحد يتناول مستشرقاً أثنى عليه بعض النقاد العرب، فوصف بالتوازن والدقة والرجوع إلى الأصول والموازنة بين الروايات المتعارضة .

وأما هذا المستشرق فهو «جوزيف رينو» الذي مر بنا كيف انتقد سلفه من الكتاب الأوروبيين الذين خلطوا الحقائق بخيال الشعراء والقُصَّاص،

---

(١) «رينو» ص ٢٨ .

(٢) «رينو» ص ٢٦ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٣٦ .

فلم يتمالك نفسه إزاء ذلك الخلط الفاحش الذي أظهروا فيه الإسلام ديناً وثنياً يقدس الأصنام، فقال«رينو» صارخاً: «فيا لسخرية القدر والجهل الأعمى بالإسلام» ثم قال: «ما السبب الذي دفع بآبائنا إلى هذا الوهم والخطأ يا ترى ؟ ذهب بعض العلماء إلى أن النورمانديين وغيرهم من الشعوب الوثنية كانوا ضمن الشعوب التي كان يشملها اسم «سارازين» (يعني مسلمين) وبالتالي فإن موطن أسماء مثل «تيرفاجنت» و«أبو لين» وغيرهما، هي البلاد الشمالية حيث كانوا يعبدون الأوثان، وهكذا خلط العامة بين المسلمين وهذه الشعوب بصورة مُخجلة»(١) انتهى كلام «رينو». وهو حديث صريح في نقد الفكر الأوروبي في العصور الوسطى لكاتب أوروبي في العصر الحديث.

ولكننا نجد الكاتب نفسه يعب من هذه الروايات بإسراف في كثير من المواطن في كتابه، فمن ذلك قول «رينو» الذي يستدل به على أنّ المسلمين كانت تتملكهم روح الدمار والخراب والقتل، قال: «ونحن نملك في هذا الموضوع شهادة شاعر كان يكتب في أوائل القرن التاسع، وهي شهادة نرى من الضرورة إيرادها برُمتها لأهميتها..»(٢) وقد روى خبر الشاعر الخيالي هذا ثمَّ أردفه للتو بقصة أخرى يزعم فيها وحشية الفتوحات الإسلامية في نظره. وقد انطوت القصة على أخبار يظهر المسلمون فيها عبدة أوثان، حيث تقول القصة:

«كان البرابرة (يعني المسلمين) منهمكين في طقوسهم الدينية حينما تقدم إليهم رئيس الدير وعرض عليهم ترك الوثنية وعبادة الأصنام والتحول لعبادة خالق الكون، ولكن هذه الدعوة زادت من غضبهم إلى

(١) «دانيل»، ص ١.

(٢) «رينو» ص ٢٢٣.

حد أن قام الشخص الذي يتولّى القرابين وأخذ حجراً كبيراً ورمى به على رأسه ووقع القسيس على الأرض فاقد الوعي . »[1]

فكيف يقبل «رينو» هذا النوع من الروايات الملفقة ليستشهد بها ؟

قدَّم «رينو» لاستشهاده بهذه القصة بقوله : «وإزاء عَدَم وجود شهادات كثيرة يمكننا أنْ نستدل أيضاً بحادثة أخرى على طابع الشدَّة والقسوة الذي رافق الغزو العربي الذي تعرض له جزء كبير من فرنسا» .

وعلى أية حال : فأسباب العلاقات التاريخية المُعَقَّدة موضوع شائك . . . مشتت الجوانب والأطراف . . غائر كالصدع في عُمر العلاقات الطويلة بين الحضارتين : الإسلامية والأوربية ، وهو يستحق دراسات طويلة تأخذ بعين الاعتبار مصادر الطرفين التاريخية والفكرية .

ج - الجهل باللغة وأثره في تعميق سوء التفاهم بين الحضارتين :

وسوف أحاول الكشف فيما تبقى من صفحات هذا البحث عن صلة الغرب باللغة بوصفها من أشد العوامل التي يمكن أن تقرب أو تباعد بين الحضارات ، وقد ترتب على جهل المسلمين والأوروبيين كلٌّ منهما بلغات الطرف الآخر نتائجُ خطيرة على تاريخ العلاقة بين الطرفين ، وسأركز الحديث على الجانب الاستشراقي محاولاً في ذلك أن أبين فداحة الخلل الذي ترتب على قلّة تمكُّن أولئك النفر المثقف ، الذين كانوا يمثلون الغرب في تعامله مع المسلمين ، من اللغة العربية بوصفها أهمَّ لغة لفهم الإسلام والمسلمين .

ولا يعني هذا تبرئة الجانب الإسلامي من مسؤوليته عن التقصير في تعلّم لغات القوم ، فقد ترتب على هذا التقصير شيء كثير من أسباب سوء الفهم .

---

(١) المرجع السابق ص٥٧ .

د – مصادر الفهم الأوروبي لثقافة الفاتحين المسلمين في العصور الوسطى:

لم يلتفت الأوروبيون في العصور الوسطى إلى أهمية اللغة العربية، ويؤكد «رينو» هذا المفهوم بقوله: «والمسيحيون من جهتهم لم يكونوا ليفكّروا في تلك العصور التي ساد فيها الجهل والبربرية في بلدهم في تعلم اللغة العربية، والتاريخ لا يحدثنا في هذا السياق إلاّ عن كاهن واحد وهو رئيس «سانت جال» واسمه هارتموت (Hartmote) الذي كان درس في حوالى سنة ٨٨٠ م اللغة العربية إلى جانب العبرية واليونانية»[١]. وأغرب من هذا أن اللاهوتيين البيزنطيين كانوا أقرب إلى المسلمين موقعاً، والحربُ سجال بينهم وبين المسلمين، وحاجتهم إلى العربية أشدّ من حاجة الأوروبيين، غير أن «جهلهم بالعربية قد منع عنهم كل اتصال مباشر بالرسالة القرآنية» على حد قول (بلاشير)[٢]. ولم يتجاوز اهتمام النصارى في العصور الوسطى الاهتمام بمتطلبات الجدل الذي استهدف الدفاع عن «أقانيم المسيح» وتلفيق التهم المزعومة ضدّ الإسلام.

ولم تكن عامة الناس في أوروبا تفهم الذي يجري في بلادهم، بل صَعُب عليهم أن يفهموا موقف الفاتحين: «فمتى استسلم بلد من تلقاء نفسه كان المنتصرون يحترمون ممتلكات المنشآت المدنية... وأما البلدان التي لا تستسلم إلا بالقوة فهي تتعرض لعنف الاحتلال»[٣]، هذا هو الوقع، ولكن الإنسان الأوروبي لم يكن قادراً على تفسيره في ضوء معرفة حقيقية لأفكار الفاتحين.

---

(١) «رينو» ص ٢٤٦.

(٢) «رينو» ص ٢٤٦.

(٣) «بلاشير» ص ١٣.

ومن المعلوم أن تعاليم الإسلام تقتضي أن يُعرض الإسلام على أهل البلدان المفتوحة، فإن قبلوا غدوا جزءاً من المجتمع الإسلامي، وإلا عُرضت عليهم الجزية يدفعونها، وإلا فليس سوى الحرب. فإن دفعوا الجزيّة حفظوا أموالهم وممتلكاتهم.

لا شك في أن هذه المعلومات كانت خافية في كثير من الأحيان على أبناء الشعوب الأوروبية المفتوحة، وقد كانت عقبة اللغة من الأسباب الكامنة وراء سوء الفهم.

وكان بعض القساوسة يقومون بمهمة المترجم الذي ينقل آراء الفاتحين وذلك بحكم تصدّر القساوسة ورجال الدين النصراني لزعامة شعوبهم سياسياً وثقافياً، وقد جمع هؤلاء -إلى جهلهم باللغة- حَنَقَهم على الإسلام والمسلمين فكان من الطبيعي أن ينقلوا إلى أقوامهم آراء المسلمين بتحريف شديد، وكيف لا وهم لا يفهمون كلمة الإسلام إلا على أنها مرادفة للإلحاد، ولا يفهمون كلمة مسلمين إلا على أنها مرادفة للقتلة. وقد ظل هذا الموقف مرافقاً لعلاقاتهم بالمسلمين. ويعطي «سوذرن» مثالاً على ذلك الراهب الفرانسيسكاني «سيمون سيميونس (Simon Semeoins)» الذي زار فلسطين سنة ١٣٢٣م، فإن هذا الراهب الإيرلندي قلَّ أن يذكر المسلمين دون أن ينعتهم بنحو «خنازير» و«حيوانات» وأبناء بعْل وعُبّاده وأبناء سدوم.(١)

ولا شك أن الروح العرقيّة القائمة على اللون في نظرة كثير من الغربيين اليوم، تُعد استمراراً للروح نفسها التي يألفها المرء في مواقف الأوروبيين القدامى لأبناء الشعوب الأخرى خارج أوروبا لتجعل المرء قادراً على تفسير الخلفية التاريخية لمفهوم التمييز العُنصري التي يتعامل بها «الرجل الأبيض» مع غيره.

---

(١) «رينو» ص٤٢.

أوروبا وحل «المشكلة الإسلامية» بالقوة، الاتجاه العسكري في أوروبا: لا وقت لتعلم اللغة العربية:

ويبدو أنّ الأوربيين، وعلى مدى أزمنة طويلة، رأوا أنّ الحل الأمثل للتعامل مع المسلمين هو القضاء عليهم عسكرياً، فإذا كان هذا هو الحل فلا داعي، إذن، لإضاعة الوقت في تَعَلُّم لغة القوم وأفكارهم، ففي هذا مضْيَعة للوقت، وقد أعرب عن هذا الهدف «رامون لول» (Ramon Lull) بعد سقوط عكّا في أيدي المسلمين عام ١٢٩١م بعد أن تنامى إلى الأوروبيين نبأ الانتصار الإسلامي. قال «لول» فيما أورده عنه «سوذرن»: «إذا عاد المُبتدعون (النساطرة) عن بدعتهم، واعتنق التتار المسيحية فيمكن القضاء بسهولة على السرازانيين»[1] يعني المسلمين. وقد علق «سوذرن» بعد أن أورد هذا النص بقوله: «وعلى هذين الأمرين كانت أوروبا قد عقدت الآمال، بيدَ أننا نلاحظ أنّ متشدِّد «ميورقة» (رامون لول) يتحدث عن «القضاء» على المسلمين، لا عن هدايتهم».

ولاشك في أن هذا الاتجاه العسكري يمثل خطوة متقدمة في ظهور الحركة الاستعمارية الأوربية، التي تحولت فيما بعد إلى توجه هجومي، وقد كانت في العصور الوسطى ذات أهداف دفاعيّة.

ويُعَدّ هذا الاتجاه استمراراً لروح الحروب الصليبية التي لم يرافقها من جانب الأوروبيين أي رغبة جادة في سبيل التعرف على ثقافة الطّرف الآخر. ولعلّ منطلقهم في ذلك عدم اعترافهم بأن غيرهم يمكن أن تكون له قيم ثقافية تستحق أن يُتعرف عليها، ولو بقصد مقاومتها.

وسنرى فيما يأتي كيف واصل هذا الاتجاه طريقه حين تجسّد في صورته الاستعمارية والتقى مع الاتجاهات الأخرى في نظراتها إلى حل

---

(١) «سوذرن» ص ١١٧.

«المشكلة الإسلامية» في نظر الغرب، وقد أصبح كلّ اتجاه من هذه الاتجاهات يعرف دوره وموقعه المنسق من الاتجاهات الأخرى، إذ كلها تسعى نحو أهداف مشتركة.

أوروبا وحل «المشكلة الإسلامية» سلمياً، الاتجاه الفكري في أوروبا والدعوة إلى مواجهة المسلمين ثقافياً:

إنّ الرأي الذي ذهب إليه «لول» لم يكن ليُمثل الرأي الأوروبي في عمومه، فقد ظهرت قبل ذلك وبعده آراء تحثُ على ضرورة التعرف عن كثب على أفكار المسلمين ولغاتهم، وقد كثر أصحاب هذا الرأي في أوروبا وبخاصة إثر الحروب الصليبية.

وأساس الفلسفة التي يقوم عليها هذا الرأي أن تُبرز أوروبا سلاحها الثقافي في وجه الشعوب الاسلامية التي لا تعدو فيَ نظرهم أن تكون شعوباً بدائية تبحث عن الغنائم والأسلاب، وعلى هذا فقد استخف أصحاب هذا الرأي بالأسلوب العسكري، ونشطوا في الدعوة إلى تنصير المسلمين.

الجذور التاريخية للاتجاه التنصيري:

وقد دعا إلى هذا الاتجاه وفي فترة مبكرة رئيس دير كلوني (Cluny) المعروف باسم «بطرس المبجل» (Potrus Venerabilis) الذي تبنى فكرة ترجمة القرآن للمرة الأولى فترجمة الانجليزي روبرت كتون (Robert Ketton) إلى اللاتينية سنة ١١٤٣م. وكانت هذه الخطوة أول استثمار للغة العربية. وقد كان ذلك جزءاً من مخطط عام يدعو إلى تنصير المسلمين من خلال تشكيكهم في معتقداتهم -أي بالوسائل الثقافيةبدلاً من قوة السلاح.

وقد كشف الراهب بطرس عن المخطط التنصيري حيث وجه خطاباً للمسلمين قال فيه: إنني لا أهاجمكم كما يفعل كثيرون بيننا بالسلاح،

إنني أُوجه إليكم كلمات فقط، بغير عنف، وبتعقُّل وهدوء من غير كراهية وبحب كبير. . » وقال في تسويغ إقدامه على ترجمة القرآن الكريم: وهذا هو الشأن في العمل الذي أقوم به هنا، فإذا لم يكن بهذا الطريق إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقل من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين السُّذج الذين يمكن أن تضير هذه الصغائر عقيدتهم»[1]

وقد مر بنا أنّ «رامون لول» كان يُمثِّل اتجاهاً داعياً إلى التخلص من المسلمين بالقضاء عليهم، وأما «بطرس المبجل» فيمثل الرأي الداعي إلى القضاء على خطر المسلمين بتنصيرهم.

وقد أشار «بلاشير»[2] إلى جوهر الروح العدائية بين «لول» و«بطرس» حيث أشار إلى أن مبادرة بطرس إلى الترجمة، انتقلت عن ذهنية الحروب الصليبية. . والدليل على ذلك في الحماسة التبشيرية عند «رامون لول».

فهل يعني ذلك أن عقبات اللغة بدأت تزول؟ يُعقب «سوذرن» بعد أن أورد الخطاب السابق لبطرس قائلاً: «أمّا آمال بطرس المبجّل في «هداية» المسلمين إلى محاسن المسيحية الكاثوليكية فقد خابت أيضاً، إذ بقيت نداءاته إلى المسلمين حبيسة كلمات اللغة اللاتينية»[3].

فاللغة إذن: كات جدارا سميكاً يحول دون أن يسمع أي من الطرفين صوت الآخر، وقد ساد بين المستشرقين إحساس مفاده أنّ العرب لا

---

(١) «سوذرن»، ص١١٦ وانظر حول «رامون لول» ما كتبه، «فوك» في الدراسات العربية، ص١٠٠ - ١٠٦.

(٢) انظر «بلاشير» ص ١٥.

(٣) «سوذرن»، ص ٨٠.

يهتمون باللغات الأجنبية، وقد عبر عن هذا «جوزيف رينو» بقوله: «من المعروف أن العرب عموماً لا يهتمون باللغات الأجنبية في القديم»(١)

وأود أن ألفت الانتباه إلى أن هذا ليس سياسة إسلامية. فمن المعلوم أن الرسول أقرَّ زيداً على تعلمه اللغة العبرية ولم يُنكر الإسلام عموماً على أحد تعَلُّم لغة أجنبية. فالأمر متروك في تعلم هذه اللغات إلى ما تقتضيه مصلحة الأمة. وقد يكون تعلّم لغة أجنبية واجباً أو فرضَ كفاية لا يسقط على الأمة، إلاّ أن تقوم فئة منها بمستلزمات هذا الفرض. وهناك أمر آخر ينبغي أن يشار، وهو أنّ ثَمة فرقاً بين أن يكون هذا هو موقف الاسلام، والممارسات التاريخية التي قد يعتريها النقص والقصور.

لقد شعر المبعوث البابوي (Wlhelm Postel) بحرج شديد حين أتيحت له الفرصة ليناظر المسلمين والبوذيين سنة ١٢٤٥ م في منغوليا في حضرة الخان المغولي الأكبر. فقد أحس «فلهلم» بحسرة شديدة لأنه سيناظر المسلمين والبوذيين وهو لا يحسن أيَّ لغة شرقية. وقد كان الموقف خطيراً فريداً فلعلها المناظرة الأولى من نوعها بين أصحاب هذه المفاهيم، وسيترتب عليها في نظر «فلهلم» دُخول المغول في النصرانية، وهو حلم الأوروبيين الأكبر الذي إذا تحقق أصبح المغول - وهم أصحاب الكفة الراجحة على المسلمين عسكرياً - قوة نصرانية جديدة تضاف إلى قوة أوروبا النصرانية في حرب المسلمين وإبادتهم(٢). ولكن الجهل باللغة ظلَّ عقبة كؤوداً في وجه «فلهلم» وغيره.

---

(١) «رينو» ص ٢٤٦.

(٢) انظر «فوك» (الدراسات العربية) ص ١٢٠-١٢٨، و«سوذرن» ص ٩٠ - ٩٤.

النوايا التنصيرية وجهل أوروبا بالإسلام:

إن محاولة الاتجاه الداعي إلى عُقم المحاولة العسكرية في مواجهة المسلمين، والاستعاضة عن ذلك بفهمهم ثقافياً لم يكن بطبيعة الحال سوى اتجاه ضارب في أعماق الخلفيات التاريخية(١) لأساليب التنصير التي نراها اليوم، وهذا يعني أن هذه المحاولات تستحكم خَلف مواقف مقررة ثابتة مفادها أنّ المسلمين وباء وشرٌ ينبغي أن يقاوم(٢). وكان موقف المسلمين يتسم بالتسامح النسبي(٣)، وفي هذا المقام يقارن «لويس» بين الموقف الاسلامي والموقف الأوروبي. قال: «وفي نظرة المسلمين هذه إلى الحضارة المسيحية، والمسيحية نفسها تسامح وتساهل أكثر بكثير مما في نظرة أوروبا المسيحية المعاصرة التي تنظر للإسلام عى أنه كلّه باطلٌ وشرٌ»(٤).

بيد أن أوروبا لم تعرف شيئاً كثيراً عن حقيقة الإسلام فكانت في هذا ضحية رجال الدين من جهة، والشعراء والمؤرخين من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة تقصير المسلمين في الجانب الدعوي الذي يتطلب أول ما يتطلب معرفةً بلغات القوم ودراسة علمية للأساليب المناسبة في التعامل معهم.

وهكذا بدا المسلمون في نظر أوروبا قوماً من الأعداء، أبرز مافيهم جانب السلاح والقوة الغشوم التي تتهدد حدودهم الشرقية. وقد بات لزاماً أن يستعينوا على تشذيبه بمحاولة تنصيره.

---

(١) انظر «باريت» ص ٩، و«فوك» (الدراسات العربية) ٨٧ - ٩٣.

(٢) انظر «دانيل» ص٦٨.

(٣) «لويس» (الغرب والشرق الأوسط) ص ٣٨.

(٤) انظر «فوك» (الدراسات العربية) ص ١٢٠ - ١٢٨

الاتجاه العسكري والاتجاه الثقافي التنصيري اتجاهان متعارضان في أوروبا:

ظل موقف أوروبا يتذبذب بين الدعوة إلى القضاء عسكرياً على المسلمين وعدم إضاعة الوقت في أي أمر يمكن أن يعرقل هذا الهدف، والدعوة إلى حربهم حرباً ثقافية. وقد امتد هذا الأمر من بعد الحروب الصليبية إلى بداية ما اصطلح عليه بعصر النهضة الأوروبية، ويرى «سوذرن» أن النصف الثاني للقرن الثاني عشر كان بداية لمرحلة التعقل، ومن الداعين لهذا الاتجاه «أوتوفون فرايزنغ» (Otto Von Freising) الذي صحح بعض المعلومات الخاطئة في أذهان الأوروبيين عن الإسلام، فأنكر خطأ المزاعم اللاهوتية التي تدعي أن رئيس أساقفة «سالزبورغ» قتله المسلمون في القاهرة عام ١٠٠١ م لأنه أقدم على تدمير الأصنام التي يعبدها المسلمون في زعمهم فقال: «إن المسلمين يعبدون إلهاً واحداً ولايذمون المسيح.. وأما عيبهم (في نظره) فهو أنهم ينكرون ألوهية المسيح ويؤمنون بأن محمداً رسول من الله».

وقد أشرنا من قبل إلى أن «فلهلم» من اتصاله بالمسلمين ومناظرتهم في عام ١٢٥٤ م أن المسلمين لايعبدون محمداً بل يعبدون إلهاً واحداً، وأن وجه الشبه بينهم وبين النصارى قائم من وجوه كثيرة[١].

الجذور التاريخية للاتجاه العلماني:

إن ما عده بعض المستشرقين «مرحلة تعقل» لا يعدو أن يكون البداية التي تمخضت عن نشوء الاتجاه العلماني الأوروبي في موقفه من الإسلام. وهو اتجاه جمع إلى النقمة على الإسلام نقمته على الكنيسة، لأنها في نظرهم تمارس دور أوروبا من الإسلام. فالإسلام عندهم

---

(١) «سوذرن» ص ١٢٥.

يساوي الكنيسة، لأنها في نظرهم تمارس دور المنقذ من الإسلام. فالإسلام عندهم يساوي الكنيسة من حيث «الكبرياء والشراهة وحب السلطان..»

وفي هذا ما يفسر مقولة «جون ويكليف» (Wycliff) (القرن الرابع عشر الميلادي) في نقد الذات الأوروبية «إننا محمديون غربيون»[1]. وأحسب أن هذا الاتجاه العلماني ظل ينمو ويزدهر ولكنه لم يستطع أن يكون الصورة الصحيحة عن الإسلام، بل لعله زاد في تشويهها في كثير من الأحيان.

وأحسب أن الاتجاه العلماني كان أشد ضلالاً من الاتجاهات الأخرى في فهمه للحضارة الإسلامية، والبعد عن التحيز فوثق الناس بأحكامه، مع أنها تنطلق أصلاً من روح الدعوة إلى تحييد الدين.

إنّ تجربة «العلمانيين المرة مع الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، جعلتهم يحملون الدين، أياً كان هذا الدين مسؤولية الممارسات الفاسدة، والفقر، والمجاعات، والحروب الأهلية والضعف أمام الأعداء في الخارج. ولذا كان تعاملهم مع الإسلام من هذا المنطلق وعلى هذا فهم يدرسون الإسلام من خلال خلفيتهم الثقافية عن تاريخ الكنيسة، ويرون في الإسلام صورة المقلد الذي يسير في أثر الكنيسة. وقد حال هذا المفهوم السابق عن الإسلام دون أن يتعمقوا في فهمه بموضوعية وحياد، وأخطر من ذلك أنهم قدّموا تصورهم للناس على أنه التصوّر الذي يمثل «الموضوعية».

---

(١) «سوذرن»، ص ١٣٤، وانظر «دانيل» ص ٢٧٨.

الاهتمام الأوروبي بالعربية بعد مؤتمر «فينا» ١٣١٢م -الإرهاصات المبكرة لظهور الاستشراق رسمياً:

ولما جاءالقرن الثالث عشر أدرك «روجر باكون» (Roger Bacon) ضرورة الاتصال ثقافياً بالحضارة الإسلامية وضرورة تعلم اللغة العربية بل التسلح بأفكار المسلمين وطرائقهم في المحاججة للرد عليهم، وقد ظل هذا الاتجاه يتنامى إلى أن عقد مجمع «فينا» عام ١٣١٢ م الذي أوصى أن تدرس العربية في كبرى المراكز العلمية الأوروبية: باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينون وسلامنكا. وتعد هذه الخطوة بداية المحاولات الأوروبية رسمياً للاهتمام بالعربية. وفضلاً عن ذلك يمكن أن يعد هذا المجمع نقطة تحول أو انتصاراً للاتجاه الأوروبي الداعي إلي مقاومة المسلمين ثقافياً، وذلك عن طرق دعوة الناس إلى النصرانية بالعربية مباشرة، ويقوم بذلك خريجو المدارس المذكورة.

ولكن هذه المحاولات بدت متعثرة، إذ بين الحين والاخر كان بعضهم يقرع طبول الحرب والدعوة إلى إبادة المسلمين، ومن هؤلاء لول (Lull) ويعقوب الفيروني (Jakop Von Verona) والفلورنس ريكولدودا مونتي كروتشي (Recoldo de montecroce)، وفي أواخر القرن الخامس عشر زاد الجهل بالمسلمين وبلغتهم وفكرهم حتى أن (يوحنا السيغويا) (Johannes Von Segoia) بحث هو بنفسه في أوروبا طولاً وعرضاً لكنه لم يعثر على أحد يعرف لغة القرآن ليراجع ترجمته له، وهكذا بقيت دون مراجعة أخيرة»[1].

وعلى أي حال فإن تفكير (السيغويا) في ترجمة القرآن كان جزءاً من مخطط يراد من خلاله أن تتجاوز المواجهة الثقافية ضد المسلمين صورتها

(١) «آربري» ص ١٢.

التقليدية القائمة على الانفعال الخيالي، والاستعاضة عن ذلك بالاتصال بالأصول الإسلامية. لاشك في أن أكبر مسألة كانت تقلق الأوروبيين في العصور الوسطى هي مسألة إيجاد حل لـ «المشكلة الإسلامية» التي تقبع على الحدود الشرقية لبلادهم وقد عجلت هذه «المشكلة» في إذكاء التسارع الانفعالى لاتجاهات عديدة كالاتجاه العسكري برؤيته القديمة القائمة على تصور أن الحل يمكن في الانقضاض على «الأعداء» في عقر دارهم والتخلص منهم بقوة السلاح. والاتجاه الداعي إلى نشر الكنيسة الفكر النصراني بين المسلمين مع تشكيك هؤلاء في دينهم، وقد أزدهرت دعوة هؤلاء على يد الإصلاحيين الذين عدوا أن فساد الكاثوليكية أمر ينبغي أن يلفت الانتباه إليه أولاً. والاتجاه العلماني الذي يرى أن حل «المشكلة االإسلامية» ليس أولى من حل مشكلة فساد الكنيسة الكاثوليكية التي جعلت هؤلاء يتطرفون غالباً في نظرتهم المادية للدين. وقد ظلت هذه الاتجاهات تتسارع في نموها حتى العصر الحديث.

وقد كان من ثمار الاتجاه العلماني المتطرفة أن نشأ الاتجاه الإلحادي الذي أعلن تمرده على الدين، ومحاربته، ومحاولة إيجاد التفسيرات الكونية والاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تحل محل التصورات القائمة على الدين. وقد كان هذا الاتجاه بداية لظهور الفلسفات الاشتراكية، وما أسفرت عنه من بداية ظهور الاستشراق الاشتراكي الذي أخذ يدرس الإسلام والتاريخ الإسلامي في ضوء عقائده الاقتصادية والاجتماعية.

دواعي الأهتمام بالعربية في عصر النهضة الأوربية:

ولكن حاجة الأوروبيين إلى الخروج من دائرة وسائلهم الثقافية التي لم تخرج بهم كثيراً من قبل عن اللغة اللاتينية وبعض لهجاتها قد

ازدادت، بل أملتها عليهم ثقافتهم النصرانية ذاتها، فقد تصدعت الوحدة الأوروبية التي كانت الكنيسة الكاثوليكية رمزاً لها. . . وكان من أسباب تصدعها في القرن السادس عشر اختلافهم في صحة النصوص التي تتشبث بها الكنيسة الكاثوليكية. . . وكان البروتستانت بزعامة (مارتن لوثر) الألماني، في منتصف القرن السادس عشر، من أهم الثائرين على الكنيسة، وقد رأى هؤلاء أنه لابد لهم من العناية بما عرف فيما بعد باللغات السامية التي وردت فيها النصوص النصرانية المقدسة كالعبرية والسريانية والحبشية. . ولما كانت هذه اللغات مندثرة غامضة في كثير من مفرداتها وتراكيبها فقد بات لزاماً عليهم أن يستعينوا على معرفة ألغازها وغوامضها بالاستئناس بالعربية، وهكذا أصبحت العربية - لغة عدوهم الإسلامي - معيناً لهم في معرفة نصوص كتبهم المقدسة، وقد كانت إلى ذلك الوقت لغة مهمة علمياً - فقد كانت وعاءً لعلوم مختلفة كالطب والكيمياء. . وأهم من ذلك بالنسبة للأوروبيين أنها حفظت لهم الفلسفة اليونانية التي ترجمت إلى العربية، وفي هذا يقول (آربري) : (كان من فخارها (أي: العربية) أنها صارت الوساطة التي نقل بها أرسطو وجالينوس اللذان كانا آلا إلى النسيان)[1].

وقد خبا الصوت العسكري الداعي إلى إبادة المسلمين بالقوة في عنفوان قوة المسلمين إبان الحكم العثماني، فأقصى ما يمكن أن يطمح فيه بلد أوروبي كالنمسا أن تفكر في الدفاع عن عاصمتها (فينا) التي حاصرها الجيش العثماني مرتين سنة ١٥٢٩ م وسنة ١٦٨٣ م. وقد كان سبيل النمساويين في تعاملهم مع الأتراك أن يلتمسوا سبل المواجهة الثقافية، وفي هذا المعنى تقول المستشرقة الألمانية (أني ماري شمل) (Anne Marie Schimmel)، ولذا وجب على النمساويين الاهتمام بعادات جيرانهم

(١) «شمل» ص٢٧ .

الأقوياء (تعني الأتراك) وبطرق حياتهم وكذلك بلغتهم، فحفرت حروف عربية في خشب لأجل الطبع -لأول مرة- في سنة ١٥٥٤م في فينا)[١]. وقد أكد (ألبرت ديتريش) الظروف التي أملت على الأوروبيين ضرورة المواجهة الثقافية التي استلزمت معرفة اللغة بوصفها سلاحاً مهماً في هذا المجال، حيث قال: (وعندما توغل الأتراك حاملو لواء الإسلام وقتذاك، في قلب أوروبا، شعرت أوروبا بضرورة دراسة لغات العالم الرسلامي، لتلك الأسباب السياسية)[٢]، كيف لا وقد أحكم المسلمون قبضتهم على البلقان وبلاد الصرب، وقد وصلوا في ١٤٦٠م إلى تخوم أوروبا الغربية.

وقد كانت النمسا بحكم موقعها المتقدم تجاه الشرق من أقدم الدول عناية بتطوير منشآتها العلمية المتخصصة في دراسة الشرق، فقد أسست مدرسة لتخريج القناصل والسياسيين الذين يعرفون اللغات الشرقية، وكان ذلك في سنة ١٧٥٣ م، وتلتها فرنسا بإنشاء مدرسة مشابهة سنة ١٧٩٥ م.

وهكذا أخذت أوروبا تتهيأ من خلال المؤسسات الرسمية التي تدرس فيها جميع سبل (المواجهة) التي تحل بها (المشكلة الإسلامية).

اختلال المعادلة بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية لصالح أوروبا، انحسار العربية وازدهار اللغات الأوروبية:

وفي الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يستعدون استعداداً متنامياً للمواجهة الثقافية مع المسلمين، ظل المسلمون يمعنون في الاعتزاز بقوتهم العسكرية دون أن يستعدوا الاستعداد الكافي من الناحية الثقافية، لا لنشر

(١) «ديتريش» ص ٨.

(٢) «آربري»، ص ١٠.

دعـوتهـم، ولا لتـوقي الخطر الذي يحـيق بهم. وقـد حـقـقت اللغـات الأوروبيـة في العـصـر الحـديث مكاسب كـبـيرة، إذ أخـذت تسـتـوعب الحـضـارة العلمـيـة المادية المتـفـجـرة في أوروبا وتنتـشـر حـيث امـتـدت الكشوفات الجغرافية[1]، والشركات الاستعمارية في أمريكا وأفريقيا وآسيـا واسـتـراليـا، وأخـذت الأسـبـاب المختلفـة تتسـابق في خدمـة هذه اللغات حتى خرجت عن أطرها المحلية لتصبح حية عالمياً.

ومما ترتب على هذا أن بدأ يتقلص نفوذاللغة العربية، بعد أن كـانت كما قال عنها المستشرق الانجليزي (وليام بدويل W. Bedwill) (١٥٦١ - ١٦٣٢م) (إنهـا لغـة الدين الـوحـيـدة، وأهم لغـة لـلسـيـاسـة والعـلـم من الجزائر السعيدة إلى بلاد الصين)[2]. وهكذا تكون الأسباب قد توفرت لاختلال موازين الصراع لجانب أوروبا. فالشرق الإسلامي يتقلص في قوته العسكرية وتأثيره الثقافي، بل تتسارع لديه دواعي التقلص في حركة (مجنونة) تدفعه إلى الوراء، في وقت كانت تتسارع فيه الأسباب المهيئة لأوروبا في اتجاهاتهـا العسكرية والتنصيرية والعلمانية والإلحادية لتمكنها من (المواجهة) (المجنونة) لا من (التعقل والتفهم)

اتجاهان متوازيان متعاونان في أوروبا الاتجاه العسكري والاتجاه الثقافي التنصيري:

ازدادت حـاجـة أوروبا في القرن السـابع عشـر إلى أن تعـرف العـربيـة معـرفـة أوثق، تتناسب ومـصـالحـهـا في الشـرق، فقـد آن الأوان للاتجـاهين السـابقين أن يمـارسـا نشـاطهـمـا بطلاقـة: الاتجـاه الذي كـان يدعـو إلى اسـتـخـدام القـوة العـسكرية في التـعـامل مع الشـرق، وقـد تمثل هذا في

(١) «لويس» تاريخ اهتمام الإنجليز) ص ٩.

(٢) «بلاشير» ص ١٧.

الاستعمار. والاتجاه الذي يدعو إلى المقاومة الثقافية ويتمثل هذا في التنصير، وقد واكب الاتجاهين رغبات في تحقيق المكاسب التجارية التي تصارع عليها في هذا القرن كل من البرتغال والروس ثم الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من الدول الأوروبية وقد أصبح الاستشراق في هذا القرن مدعوماً بالمصالح السياسية الاستعمارية، بل إن (بعض رواده كانوا من الدبلوماسيين الذين استفادوا من إقامتهم في الشرق الأدنى، ليعمقوا معرفتهم بالعربية والتركية) وأضف إلى ذلك المنصرين ورجال الاقتصاد. يقول (آبري): (فبينما التاجر يسعى في تحصيل النفع المادي من علاقاته بالشعوب الشرقية إذبالمبشر الإنجيلي يسبقه تارة أو يتبعة حثيثاً تارة أخرى، وقد امتلأ حماسة شريفة لأن يحقق أمر معلمه المسيح.. وقد وجد أن مما يساعده على تحقيق ما يرمي إليه الخلاص الروحي أن يتعلم ما للجماعة التي سيلقاها من لغة وطرق تفكير)[1]. وقد عبر المستشرق الهولندي هادريان رلاند (١٦٧٦ - ١٧١٨) عن توازي هذين الخطين: العسكري والتنصيري، في السير نحو هدف واحد، فقد كان متعقلاً حين دعا إلى أن تترك الفرصة لأن يسمع الصوت الإسلامي من المسلمين أنفسهم (دعوا المسلمين يصفون لنا دينهم) كما دعا إلى بطلان الفكرة القائلة بتناقض الاسلام (هل من الممكن أن تجد ديانة متناقضة - كما يصفها المؤلفون المسيحيون - ملايين الأتباع؟). ولكنه مع تعقله إلا أنه كان يؤمن بأنه (يتحتم على المرء أن يعرف الإسلام جيداً لكي يستطيع أن يحاربه بطريقة فعالة)[2].

وهكذا يكون الاتجاه الثقافي قد سار في هدف مواز للاتجاه العسكري، وكلا الخطين المتوازيين يسيران نحو هدف واحد، هو (المواجهة)، وليس التفهم والتعقل الحقيقي.

(١) «آربري»، ص١٤.

(٢) «بفانمللر» ص١٣.

حاجة أوروبا للعربية في العصر الحديث لاقتحام الشرق عسكرياً وثقافياً:

وهذا يعني أن تصالحت وجهات النظر الغربية - رغم ما بينها من خلاف - على اقتحام الشرق عسكرياً وثقافياً - بل أصبح من كانوا يختصمون عبر القرون الطوال الخوالي على أسلوب التعامل مع المسلمين، يعضد بعضهم بعضاً. وأما الخلاف فيهم فلا يتجاوز أن يكون خلافاً للمصالح الذاتية لكل قطر أوروبي وبخاصة بعد أن تقطعت عرى الوحدة الأوروبية القائمةعلى الدين، وحلت محلها الوحدة القائمة على أساس قومي، سياسي، ديني، عقيدةً. وهذا يعني أن التنافس بين دولة أوروبية وأخرى يمكن أن يفسر سياسياً، ولكن من وراء هذا التنافس تعاوناً في مجال آخر، وهو الشعور الديني والحضاري الذي يفسر لنا مثلاً كيف انتشى رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٧٩٩م طرباً لانتصار ألد خصومه نابليون بونابرت، الذي استطاع أن يغزو مصر وبلاد الشام، تلك المعاقل الإسلامية التي استعصت على أوروبا قروناً طويلة.

وقد ربط المؤرخ الإنجليزي (هربرت فيشو) إعجاب بريطانيا بما حققه نابليون في الشرق بأهداف الحروب الصليبية. قال (فيشر) بعد أن وصف العداء المستحكم بين فرنسا وبريطانيا بسبب انتصارات فرنسا في أوروبا: (ولقد أتاحت له (لنابليون) الحرب التركية فرصة نادرة غير مرتقبة كانت أثرت في مجرى حياته، ذلك لأنه إذا عد غزو مصر عملاً فروسياً أخاذاً فإن السحر الذي صحب الحملة السورية كان أعظم وقعاً وأكثر خيالاً وروعة، فإن الفرنسيين في أرض الوطن - مهما كان مبلغ سخريتهم بالبابا واستهزائهم بالقساوسة -كانوا يطالعون في نشوة وفخار بلاغات القائد الفرنسي الشاب الذي استولى على فلسطين واتخذ مركزاً له دير الناصرة وقرأ على ضباطه التوراة تحت سماء سوريا، في تلك المواطن التي قدسها المسيح وحواريوه.. ومجدتها في عيون الفرنسيين

فعال الحروب الصليبية الأولى ومغامراته، فإن استرجاع فلسطين من الأتراك - هذا الحادث الذي طرب له حتى رئيس وزراء بريطانيا قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى استقبل استقبالاً حافلاً من مواطني القديس لويس الخاضعين لنير حكومة الإدارة الصارم الخسيس)[1].

ولعل من أبرز ما يظهره هذا النص تلك الروح الواحدة التي تخفق في شقي الموقف الأوربي في صورته العسكرية وصورته التنصيرية. وقد تلا ذلك وسبقه ظواهر تؤكد تحالف الخطين وسيرهما في اتجاه واحد، ومن ذلك أن نجد كثيراً من المستشرقين الذين جمعوا بين الشخصية السياسية العسكرية والثقافية في آن واحد، ومن هؤلاء (كلوب باشا) في الأردن، (ولورنس) في الجزيرة، (وما سينسون)في سوريا.

توحد الاتجاهين التنصيري والعلماني على هدف واحد، إن في النص السابق معاني كثيرة، منها: الإشارة إلى الخلاف الحاد بين السلطة الحاكمة في فرنسا (حكومة الإدارة) في باريس - ورجال الدين في فرنسا وروما، ولكن هذا الصراع يذوب أمام نشوة الانتصار على المسلمين، ومنها الإشارة إلى الروح النصرانية التي تقبع أحياناً في صدور أصحاب الاتجاه العلماني القومي رغم ما يبدو عليهم أحياناً من رغبة في تحييد الدين أو معاداته، وهذا يتمثل في سلوك نابليون الذي قرأ التوراة تعبيراً عن بهجته لأنه (استرد) فلسطين، ومن المعلوم أن نابليون هذا هو الذي كان يصطحب معه فريقاً ضخماً من المستشرقين الذين كان لهم الأثر الأكبر في إنجاح مقاصد الحملة[2]. وحتى أولئك الذين تمردوا على الدين في أوروبا، ودعوا إلى الإلحاد، عقيدة، فأنهم في فترات استشعار

---

(١) «هربرت فيشر»، ص٥٥.

(٢) انظر في هذا كتبه «رئيف خوري» في كتابه «الفكر العربي الحديث» حول الحملة الفرنسية وما أعدلها ودورها الخطير في الشرق.

الضعف أمام جبلة التدين في الإنسان، يختارون العودة إلى الدين بمفهومه الكنسي، ويبقى عداؤهم للإسلام ماثلاً أمامهم. وعلى هذا فإن المستشرقين العلمانيين والمنصرين تتداخل أهدافهم، وتلتقي خطوطهم حين يتوجهون نحو التعامل مع الحضارة الإسلامية، ولا يكادون يفترقون في المنهاج والأساليب وهم يدرسون هذه الحضارة.

مدارس الاستشراق المعاصرة استمرار للاتجاهات الأوروبية في العصور الوسطى:

إن في وسع المرء أن يفسر كثيراً من خصائص المدارس في العصر الحديث في ضوء وقوفه على مسيرة الخطين العريضين اللذين واكبا مسيرة الظاهرة الاستشراقية عبر تاريخها الطويل: الخط الذي يدعو إلى الحرب العسكرية، والخط الذي يدعو إلى المقاومة الثقافية، ونقاط الافتراق والالتقاء بينهما، فالجامع بين جوهري الخطين أنهما يتجهان نحو (المواجهة) والانتصار للروح النصرانية، ويتمثل هذا أكثر ما يتمثل في الاستشراق الألماني الذي سعى منذ عصور سحيقة إلى التركيز على الجوانب العقدية والأصول النصية، دراسة ونقداً، أكثر من سواها.

وأما الخط الأول فيمثله الإستشراق الإسباني والاستشراق الإيطالي أكثر من سواهما، وإن كان المرء لا يعدم وجود شواهد لكل نوع من أنواع الاستشراق مبثوثة فيما اختص به النوع الآخر. فليست الخطوط هنا خطوطاً هندسية بل هي خطوط تمثل مسيرة تصرفات بشرية، والاتجاهات البشرية يصعب أن تجد حدوداً لا تترك مجالاً للتداخل.

وقد عبر الاتجاه العسكري عن روحه العنيفة في إسبانيا في القرن السادس عشر حيث أقدم هؤلاء على قتل المسلمين، وإحراق آلاف الكتب العربية.

ولعل ممارسات المدارس الاستشراقية السابقة وعلى سبيل المثال: الألمانية، والأسبانية، والإيطالية، تعكس لنا بوضوح ما بينها من فوارق تبدو آثارها في نوع اهتماماتها، وفي طبيعة ممارساتها في البلاد الإسلامية.

وأما الاستشراق البريطاني، والفرنسي فقد تمثل فيها أكثر من غيرهما خصائص الخطين العريضين، ولذا فإنك ترى أن الاستعمار البريطاني يعمل، وهو في هذا أكثر من الفرنسي وضوحاً، سيفي المواجهة الثقافية والعسكرية معاً، وقد كانت الظاهرة الاستشراقية على أي حال تمثل الجذور الأيديولوجية للاستعمار الحديث بكل دوافعه النفسية كالسيطرة الاستعلائية، والرغبة التنصيرية، والمصالح الاقتصادية.. وغيرها.

فالمدارس الاستشراقية قد تفترق افتراقاً توضح حدوده المصالح السياسية لكل بلد أوروبي، ولكن هذه الحدود تكاد تلغى حين نجد أن الروح النصرانية تجمع القدر الأكبر من المستشرقين الغربيين، وقد فسر لنا هذا من قبل كيف ابتهج البريطانيون بانتصارات خصمهم نابليون، وهو يفسر أيضاً هذا التكامل بين المدارس الاستشراقية رغم ما بينها من اختلافات سياسية أو قومية أو سوى ذلك. وقد أشار إلى هذا المفهوم المستشرق الأمريكي (بيتر غران) حيث أكد أن وراء التنسيق القطري أو الوطني الذي ينظم أعمال المستشرقين أهدافاً تجعل الاستشراق عالمياً، بل تجعل المستشرقين جبهة واحدة متلاحمة تلاحماً يفوق تواشج من انصبت جهودهم في البلد الواحد على دراسة تاريخ ذلك البلد، قال: (بيتر غران): (ويظهر لأول وهلة أن مدارس البحث الاستشراقي تنتظم وفقاً للقطر أو المنطقة التي يقع فيها القطر وأنه تربط هذه المدارس - علي نحو

سائب - العديد من المجالات المغمورة والمؤتمرات السنوية. وترينا نظرة أدق، علي كل حال، أنه ليس ما يوحد أو يفرق الأفراد أو المجموعات الصغيرة هو الخطوط الوطنية على وجه التخصيص. وبالمقارنة بباحثي العديد من فروع التاريخ الأخرى فإن المستشرقين أكثر عالمية منهم. وفضلاً عن ذلك.. يعرف الكثير من الباحثين (يعني المستشرقين) بعضهم البعض عن طريق التدريب اللغوي أو عن طريق المدرسين والطلبة المشتركين - وتستمر هذه العلاقات مدى العمر وهي أكثر أهمية من الروابط المشابهة التي تنشأ بين الأساتذة والطلبة الذين يتخصصون في تاريخ الولايات المتحدة وأوروبا)[1].

وقد لاتكون الروح النصرانية وراء كل هذا التنسيق الذي يجمع المستشرقين، فقد تعددت مدارسهم الفكرية وأوطانهم ومناهجهم وأساليبهم، بيد أنهم في حاجة - مهما بلغ هذا التعدد والتسابق - إلى التنسيق الذي يرمي إلى إرغام الشرق الإسلامي على التغير فكرياً، والتبعية الاقتصادية التي تخدم الغرب بالدرجة الأولى.

ولايتنافى هذا التحليل في عمومه مع وجود حالات فردية تبدو غير واعية على هذه الأهداف والمرامي، أو قد تبدو - ولو أمام نفسها على الأقل - محايدة متجردة ولكنها قد لا تسلم - ولو في بعض مصادرها - من تأثير التيار الاستشراقي العام الذي يحاول هو بدوره أن يفيد حتى من هذه الفئة بطرقه الخاصة، فيحيلها في نهاية المطاف إلى وسائل مجدية في تحقيق غاياته.

---

(١) «بيتر غران» ص ٦٤.

اللغة العربية وسيلة مهمة لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها جميع الاتجاهات الاستشراقية:

وعلى العموم بات الاستشراق بجميع تياراته واتجاهاته الفكرية النفعية والحيادية في حاجة ماسة إلى تعلم اللغة، فالذي اتصل منهم بالدوائر الاستعمارية بشكل مباشر أو غير مباشر.. احتاج إلى العربية ليتمكن بها من التفاهم مع أهل المنطقة ولقراءة عاداتها وتقاليدها، ورسم خططها، وإعادة صياغتها في ضوء المصالح الاستعمارية، وكذلك من كانت لهم أغراض ثقافية دون أن تكون لدولهم طموحات عسكرية بارزة بروز الأهداف التنصيرية، فقد احتاجوا إلى معرفة العربية للوقوف على معاني القران، والحديث النبوي، والسيرة، والتاريخ الإسلامي، ثم لمعرفة واقع المجتمع الإسلامي نفسياً واجتماعياً، وأفضل السبل لإدخال الثقافة البديلة إليه.

ولذا فقد بات لزاماً أن تنفق الأموال الحكومية والكنسية في سبيل إجراء الدراسات العربية الصارمة الجادة في جميع المجالات، وقد غدت العربية سلاحاً أساسياً لجيل المتخصصين في الدراسات الإسلامية. هذه هي السمات العامة للأستشراق التقليدي الجاد. وقد عرفت بعض الدول التي لا تعد عريقة في مجال الاستشراق - كأمريكا - نوعاً من المراكز التي تهتم بتجميع المعلومات وبخاصة ما يتعلق منها بتزويد وزارة الخارجية بتقارير عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والحركات الفكرية في البلدان الإسلامية. ولذا كان المجال مفتوحاًأمام جيش من الموظفين الذين يستعان بهم في سبيل توفير هذه المعلومات دون أن يكونوا على معرفة بالعربية أو بغيرها من اللغات الشرقية[1]، وقد انتشرت هذه الظاهرة في روسيا وكثير

(١) انظر «بيتر غران»، ص ٦٣ - ٧٠.

من الدول الغربية، وهي شكل من مستلزمات التطور الذي أسفر عنه تاريخ الظاهرة الاستشراقية وإن كان كثير من المستشرقين ينكرون أن يكون هذا التطور وليد الحركة الاستشراقية.

لقد أملى هذا التطور تضخم الظاهرة الاستشراقية وليس انحلالها، فكان من مظاهر هذا التضخم أن دخل في مستلزمات مؤسساته الخبراء ورجال الصحافة والمراسلون الإذاعيون وغيرهم.

الواقع الجديد لاستشراق:

يحسب بعض الباحثين أن الاستشراق قد تلاشى أو كاد. وهم يبنون أحكامهم على المفارقة بين صورته القديمة والحديثة. وهم بهذا لا يجدون في واقعه المعاصر تلك الملامح القديمة التي ألفوها. إن الاستشراق حركة تاريخ تتغير أساليبه ومناهجه ووسائله، ولكنه يظل في نهاية المطاف محاولات أوروبا في التفاعل مع الحضارة الإسلامية، تلك المحاولات التي تتأثر بميزان القوة والضعف على صعيد الحضارتين، كما تتأثر بالمصالح المتفاوتة بين كل طرف من أطراف الصراع الأوروبي مع الحضارة الإسلامية. ولعل مما ساعد على إيجاد شكل من المفارقة الواضحة بين ماضي الاستشراق وحاضره أن الاستشراق أصبح يمتد الآن إلى آفاق أرحب مما كان عليه، وبشكل خاص بعد أن ضعف موقف الحضارة الإسلامية في مجال القوة، في الوقت الذي شملت فيه هذه الرحابة من جانب آخر اتساعاً في دائرة الاستشراق المكانية وبخاصة شموله الاستشراق الأمريكي الذي مثل طليعة الاستشراق في شكله الجديد. فهذا الاستشرق يتفق في جوهره مع الاستشراق الأوروبي ولكنه يختلف عنه في بعض الأمور، منها أن الاستشراق الأمريكي أبعد مكاناً من الاستشراق الأوروبي، ولذا فإن الأمريكي ينظر إلى هذه البلاد نظرة

قائمة على قائمة تقدير النفع، أما الأوروبي فينظر إليها نظرة قائمة على النفع ودرء الضرر بحكم التجاور المكاني بين الحضارتين.

ثم إن أوروبا لها ماض قديم في الصراع مع الشرق يجعل من خبرتها أعمق من الخبرة الأمريكية في هذا الشأن.

وأحسب أن المستشرقين سيظلون في حاجة إلى العربية ما دامت لهم أهداف ومصالح من أي نوع: تنصيرياً كان أو اقتصادياً.. أو سوى ذلك، وإنك لتلتمس مظاهر هذه الحاجة في المشاريع اللغوية (كتأليف المعاجم العربية الأوروبية وبخاصة ما خدم مجال الإعلان والتجارة) التي تدعمها الشركات الأوروبية وتقوم بها المعاهد اللغوية التي تمولها الحكومات.. وفي الكتب والنشرات والمجلات التنصيرية التي تغذيها الكنائس الأوروبية.

لقد تقلب الاستشراق مع تقلبات النظرة الأوروبية إلى الحضارة الإسلامية، فقد كان استشراقاً دفاعياً ثم أصبح استشراقاً هجومياً. وكان استشراقاً عسكرياً استعمارياً يسعى إلى تحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية، وكان كذلك تنصيرياً يسعى إلى (حماية) المجتمعات الأوروبية من أي تأثير إسلامي، ثم أصبح يسعى إلى توصيل ما لديه من ثقافة إلى سواه. وفي المرحلة التي كانت فيها أوروبا دينية الطابع سعى الاستشراق إلى نشر الفكر الكنسي ولما سادت أوروبا الأفكار المتعددة واكب الاستشراق ذلك، وحاول أن ينهض برسالته في صياغة هذه الشعوب على نمطه مستعيناً على ذلك بمحاولة فهمها، والتوسل لذلك بمعرفة لغاتها وعاداتها وأنماط سلوكها.

فالاستشراق إذاً، لم يتوقف بل مايزال يتابع مسيرته، وإن تغيرت الوسائل، وتباينت الأشكال. بل إن في وسع المرء أن يقول: إن

الاستشراق قد اتسع فخرج عن إطار الجهد الفردي أو حتى عن إطار الجهد المؤسسي المحدود إلى إطار المشروع الواسع الشامل الذي يستهدف إعادة تشكيل الشرق الإسلامي ليصبح (شرقاً غربياً) .

السمات المشتركة للاستشراق :

الاستشراق حركة شاملة في أوروبا لا تنحصر في قطر دون آخر ، وعلى اختلاف أهداف الأوروبين فإنهم - كما مر - يتكاملون بل يشكلون مدرسة واحدة ، وإن تعددت الاتجاهات والأهداف أحياناً . ولعل من أبرز السمات التي توضح الصورة العامة لهذه الظاهرة أموراً نذكر منها :

١ - وحدة الأهداف :

فالكل يرمي إلى (مواجهة) الشرق ، والتعرف على السبل المناسبة لذلك وإعادة صياغته على النمط الأوروبي . وفضلاً على ذلك كله تحقيق المكاسب الاقتصادية منه ، والمواقع العسكرية فيه ، ولذا فإن مساعيهم إلى الوقوف على تاريخه وواقعه إنما هو بغرض فهمه من جهة ، وبغرض التعرف علي نواحي الضعف والقوة فيه .

ولذا لم يكن غريباً أن يهتم المستشرقون بالتركيز علي دراسة الفئات المتطرفة في تاريخ الحضارة الإسلامية كالشعوبيين ، وبعض الحركات المذهبية ، والأقليات العرقية ، وأبراز الشخصيات التي تميزت بالتطرف في الحكم أوالتفكير ، وإبراز أنماط معينة من النصوص الأدبية والفكرية ، والعناية بها دراسة وتحقيقاً ونشراً . كما هي الحال في موقفهم من ألف ليلة وليلة ونصوص المتصوفة المتطرفين ، وإخوان الصفا وغيرها .

وقد تكون دراستهم لغرض علمي كالإفادة من الجوانب المشرقة في تاريخ الشرق ، كالوقوف على تاريخ العلوم التي ازدهرت في رحاب الحضارة الإسلامية . ومن أقدم المدارس التي عرفت بذلك في أوربا

مدرسة (مونبليه) التي أسست سنة ١٢٢٠ وعلمت العربية بوصفها لغة مهمة في مجال الطب، والوقوف على حلقات غامضة من تاريخ الحضارة الأوروبية ولكنها تتضح من خلال معرفتهم بتاريخ الحضارة الإسلامية، ومن ذلك محاولتهم الوقوف علي تاريخ اليونان والرومان بالتعرف عليها من خلال المصادر الإسلامية، المكتوبة أو الماثلة في صورة آثار قديمة. ويحقق لهم معرفتهم باللغة العربية القادرة على حل من المشكلات التي تواجههم في دراساتهم اللاهوتية التي كتبت نصوصها القديمة بلغات سامية منسية، ولذا كان تعلمهم للعربية، بوصفها لغة سامية حية، مفيداً في حل المشكلات التي تواجههم.

٢ - وحدة المناهج:

كثيراً ماتجد المستشرقين يعتمدون مناهج معينة في تحليل الحضارة الإسلامية. ومن هذه المناهج أن ينظر إلى الإسلام على أنه تطوير لعبادة وثنية كما فعل (بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية)(١)، وقد ينظر إلى الإسلام على أنه ظاهرة تفسر في ضوء المتغيرات الاقتصادية كما فعل مونتغمري واط في كتابه (محمد في مكة)، و(محمد في المدينة) وهما مذهبان معروفان في الدراسات الاستشراقية، يقوم الأول على المنهج التاريخي الذي ينظر إلى الظاهرة بمحاولة التتبع التاريخي لنشأتها وتطورها عبر مراحل التاريخ، ويقوم المنهج الآخر على النظرة الجدلية التاريخية التي تركز في تحليل أحداث التاريخ على العوامل الاقتصادية.

وثمة منهج آخر يقوم على أساس النظرة الاجتماعية، التي تنظر إلى الحضارة الإسلامية على أنها كما يقول (سودرن) وليد فئات بشرية مدينية متحررة مضلة على العمل والحياة. ومستندة إلى سواسية حديثة اجتماعياً

---

(١) انظر «بروكلمان» ص٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٤ وغيرها.

تستمع بانتعاش والجدل في المسائل دونما كهان أو أديرة في أبنية أساسية للاجتماع، وطبيعي ما دام هذا الاختلاف في البنية الاجتماعية واضحاً أن يختلف التطور الاجتماعي في المنطوقين (يعني الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية) فقد سكنت أوروبا لحقب طويلة لتنهض في نهاية العصور الوسطى من غفوتها وتنمو في الصعود البطيء دونما توقف بينما نهض الإسلام ظهوراً اجتماعياً ليبلغ الذروة في حقبة قصيرة ثم ليبدأ بالهبوط البطيء دونما بلوغ لذروته الذهبية المبكّرة مرة أخرى. وقد يعدّون الإسلام ظاهرة نفسية عبّرت عن عظمة طموح فردي على ما يبدو ذلك واضحاً من تصوير (فوليثر) للرسول ومن قبل، فوقف (دانتي) في كتابه الكوميديا الإلهية. وقد يقدم المستشرق الواحد في تفسير الحضارة الإسلامية على مناهج متعددة ولكنهم يلتقون في الغالب الأعم على هدف واحد. وهو الوصول ما يؤيد اعتقادهم بأن الإسلام دين بشري من صنع عبقرية فردية أو طرف اجتماعي واقتصادي.

٣- وحدة المسائل:

ولعل من أبرز مظاهر هذه الوحدة الدوريات المشتركة والمشاريع المشتركة كدائرة المعارف الإسلامية التي اشترك في مادتها عدد كبير من المستشرقين وكفهرسة الحديث النبوي وبعض المعاجم اللغوية. و من هذه الوسائل أيضاً المؤتمرات الدورية التي تستقطب المستشرقين من كل مكان ويضعون فيها خطط العمل المشتركة على فترات زمنية محدودة وهي مؤتمرات متنقلة تعقد هنا وهناك في أوروبا وغيرها.

وتعد المكتبات الأوروبية التي تحتفي بجميع الوثائق والمخطوطات والمطبوعات المنتجة بالشرق من أبرز مظاهر التعاون في تحقيق الوسائل المشتركة بينهم ولعل من أهم مراكز العناية بالكتب الإسلامية تجميعاً

وفهرسة مكتبة الكونجرس الأمريكي وو باريس والاسكربال وبرلين وغيرها.

ومما تتميز به أعمال المستشرقين ووسائلهم أنها كثيراً ما تكون متكاملة، يعرف فيها أحدهم، في الغالب، ما عمله من قبله فيأتي دوره هو ليضيف شيئاً ما سبق إنجازه، ولاشك في التنسيق فيما بينهم يساعدهم على سرعة الإنجاز، رغم ما بينهم من حدود ومسافات.

موقفنا من الظاهرة الاستشراقية:

الاستشراق ظاهرة منظمة تمثل جهداً دؤوباً من الغرب في محاولته فهم الحضارة الإسلامية في الشرق، وقد رأينا أن هذه المحاولة أخذت أبعاداً يمكن تلخيصها بالبعد العسكري، وأما البعد الثقافي فيتمثل في الاتجاه التنصيري، والاتجاه العلماني الذي أخذ بدوره بعدين: البعد العلماني الذي عبر عن نفسه بمحاولة تحييد الدين عن الحياة في النمط الأوروبي وحاول من جانب الشرق أن يعيد تشكيل حياة الشرقيين على النمط الأوروبي، والبعد الإلحادي الذي تجاوز في مطلبه تحييد الدين إلى حربه ومعاداته، وقد حاول أن يعيد تشكيل الشرق تشكيلاً لا أثر للدين فيه. وقد كان لكل اتجاه من هذه الاتجاهات منهاجه، وبرنامجه، وخططه ومؤسساته، ومصادر تمويله، وقد عبر المستشرق الألماني (رودي باريت) عن هذا المعنى حيث قال: (ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه علي تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن)[1] وقال (باريت) في موضع اخر (ونحن (يعني المستشرقين) جميعاً المتمتعين بهذه

---

(1) «سوذرن» ص ٤٢ - ٤٣.

النظم نعترف بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية، و تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق)[1].

وقد استطاع الاستشراق أن ينجز على مدى قرون طويلة مشاريع كبيرة، من الدراسات والبحوث التي تحاول أن تدرس الشرق الإسلامي في جوانبه المتعددة فكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وغير ذلك.

ولاشك أن دراساته اختلفت نتائجها باختلاف الاتجاهات، وتلونت بتلون الأهواء، والانطباعات السابقة لكل مستشرق.

ولكنها مع ذلك لا تخلو من كثير من الدراسات الجادة والحقائق الجزئية أو الكلية الصحيحة. وقد تعمقت بعض هذه الدراسات في المجتمع الإسلامي تعمقاً يلفت النظر، واستحضرت لذلك البيانات الهائلة والمعلومات المهمة الكثيرة، وناقشتها مناقشة لا تخلو من فائدة جمّة وكان من ثمار ذلك الفهارس، وتحقيق النصوص، والعناية بها، ومناقشتها، والدراسات الإحصائية والاجتماعية الميدانية، والمقارنات البيانية، فضلاً عن الدراسات اللغوية التي كثيراً ما وصلت بالبحث العلمي إلى نتائج لم يتوصل إليها أبناء هذه اللغات.

فالدراسات الاستشراقية مكتبة ثرية عريقة في مجال البحث العلمي، لا يحسن بنا أن نتجاهلها. وقد أعطت هذه المدرسة أصحابها الفرصة لدراسة الشرق بغرض تحجيمه، ثم بغرض إعادة تشكيله وإعادة تفصيله على النحو الذي يحقق ما يريدون.

ومع ذلك كله فإن هذه المدرسة التي كثرت مؤسساتها في الغرب وأوشكت «أن تكون ممثلة في كل جامعة من الجامعات بكرسي يشغله أستاذ. .»[2] لم تحظ من جانبنا بعد بدراسات جادة.

---

(١) «باريت) ص١٠.

(٢) «باريت» ص ١٢.

ورغم أن الاستشراق ظاهرة متحركة متطورة، وحركة منظمة أصبح يتخرج في مؤسساتها الباحثون من الشرق نفسه بما يزيد بكثير عن عدد الدارسين الغربيين أنفسهم للشرق، إلا أننا لم نلتفت إلى هذه الظاهرة بدراسات منظمة، وكثيراً ما كانت الجهود المبذولة في هذا الجانب لا تتجاوز النشاط الفردي الذي قد يتناول الظاهرة بروح الرافض المتحمس لكل ما يمت إلى الاستشراق بصلة، أو المتبني المتحمس الذي يرى في فلسفة الاستشراق عقيدة يدين بها، ومنهجاً لا يحيد عنه، وهؤلاء هم الذين عبر عنهم «برنارد لويس» باسم «حواريين من الشرق الأوسط للعلماء الأوروبيين»[1].

فرغم أن الاستشراق له جامعاته التي تدرس الشرق الإسلامي، إلا أن الشرق الإسلامي ليس له جامعاته التي تدرس الغرب بفلسفة موازية للفلسفة الاستشراقية ولا بفلسفة إيجابية ترمي إلى مخاطبة الغرب بخطاب يتناسب مع وجاهة الرسالة الإسلامية، بل إن الشرق يكاد يكون معطلاً عن دراسة «الكم» الذي خلفته الظاهرة الاستشراقية على صعيد ما كتب أو ما نفذ على الشرق عملياً وانعكس على حياته الثقافية وبرامجه التعليمة وأنماط حياته بعامة.

إن الشرق يعيش من هذا الجانب - كما يعيش سائر جوانب حياته الأخرى - معطلاً، وكأنما أريد له ذلك، فلو قامت معاهد ومؤسسات لدراسة الاستشراق والغرب بعامة لكان ذلك ما قد يسفر عن نوع من التمرد على واقع ما ترمي إليه سياسة الاتجاهات الغربية الاستشراقية من أهداف تسعى إلى تحقيقها في الشرق، وترويض الشرق عليها. وإلا فكيف نفسر هذا الصمت العجيب إزاء ظاهرة مهمة، فلم تتح بعد

---

(١) «باريت»، ص١٢.

لمؤسساتنا الفرصة التي تمكن من دراستها دراسة شمولية، موضوعية من خلال حوار هادئ بناء لسلبياتها وإيجابياتها. لاشك في أن تقوم الظاهرة الاستشراقية تقويماً منصفاً دقيقاً يعد خطوة في سبيل تحقيق أواصر التفاهم الذي ما يزال يفتقد الأجواء المناسبة لتحقيقة.

دعوة هامة إلى الجامعات والمؤسسات العلمية

أحسب أن هذه فرصة مهمة ينبغي تستثمر وأن يرفع الصوت فيها، داعين إلى تأسيس أقسام عملية في جامعاتنا[1]، ومراكز بحث متفرغة عندنا لدراسة الظاهرة الاستشراقية في شتى مؤسساتها ومراكزها وألوان نشاطها، ولغاتها، ودورياتها، ومؤتمراتها الدورية، ومناهجها، فتدرس هذه الظاهرة في تاريخها: نشأة وماضياً وحاضراً، دراسة منهجية قائمة على التمحيص والتوثيق، بعيدة عن التعصب والهوى، مستمدة روح منهجها من قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله) ومن قوله تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى).

---

(١) «لويس» في كتابه «الغرب والشرق الأوسط» ص ١٤.

الآيــة فــي القــرآن الكــريم
دراسة علمية تحليلية

المهندس حاتم البشتاوي

١ . تعريف الآية القرآنية :

الآية لغة العلامة والإمارة والعبرة، وقد وردت الآية في القرآن الكريم بمعاني مختلفة منها السنة الكونية .

قال تعالى : ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ (أي العبرة) .

وقال تعالى : ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ أي الإمارة .

وقال تعالى : ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي السنة الكونية .

أمّا المعنى للآية في القرآن الكريم فهي جملة أو جمل إثر الوقف في نهايتها . وقد بلغ عدد آيات القرآن الكريم ٦٢٢٣ آية .

٢ . القرآن في القرآن :

لقد تكرر ذكر أسماء القرآن وصفاته (٣١٣) مرة في كتاب الله موزعة كما يلي :

الكتاب (٧٤) مرة	القرآن (٦٨) مرة
الذكر (٢٦) مرة	الهدى (٢٤) مرة
تنزيلا (١٢) مرة	آيات بينات (١٠) مرات

مبين (٩) مرات — عربيا (٨) مرات
رحمة (٨) مرات — هاديا (٥)
علم (٥) مرات

كما وردت الصفات الآتية (٤) مرات : موعظة ، نور، مبارك، بشرى، الحكيم، بصائر.

والصفات الآتية (٣) مرات : الفرقان ، كلام الله.

ووردت الصفات الآتية مرتين : بشير، نذير، مجيد، شفاء، كلمات الله، مثاني، العروة الوثقى، البلاغ.

كما وردت الصفات الآتية مرة واحدة : عزيز، كريم، العجب، حبل، وحياً، بياناً، قيماً، العدل، الصدق، الزبور، متشابه، أحسن الحديث، أحسن القصص، صراطاً مستقيماً، القصص الحق، القول الفصل، النبأ العظيم، أمر الله، مناديا للإيمان، روحا من أمرنا، حكمة بالغة، مهيمنا علية.

كما ذكر الله في أربع صفات معا في الآيتين الآتيتين : ﴿في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة﴾، ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ (الزمر : ٢٣)

وهذا الحشد الهائل من الصفات المباركة التي اطلقها الله عز وجل على كتابه الخالد التي بلغت في جمالها وكمالها حدا لا يستطيع القلب أن يستوعبها، ولا القلم أن يعبر عنها فان مجموع صفات كلام الله عز وجل تزيد على نصف عدد أسماء الله الحسنى وصفاته العظمى.

٣. الكتاب في القرآن الكريم :

لم يكن للعرب في جاهليتهم كتاب في العقيدة أو العبادة أو العلوم أو المعارف، فقد درج العرب الاميون في كلامهم على الجمل والتفصيل.

فكان القرآن الكريم اول كتاب، وأخلد كتاب، وابلغ كتاب في تاريخ العربية جمعاء حيث أشار القرآن إلى ذلك في (٧٤) موضعا تمثل حوالى ربع الإشارات المتعلقة بهذا القرآن.

ويقول د. محمد عبدالله دراز في كتاب (النبأ العظيم) (ص١٢-١٣) حول ذلك ما يلي: «روعي في تسميته قرآنا كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه».

وفي هذه التسمية اشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد أي حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الاصحاب المنقول الينا جيلا بعد جيل على الهيئة التي وضع فيها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالاسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها محمد ﷺ بقي القرآن الكريم محفوظا في حرز حريز إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث قال: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ولم يصبه ما اصاب الكتب الماضية من التحريف او التبديل وانقطاع السند».

٤ . آي القرآن في القرآن :

اشتمل القرآن الكريم على عشرات الآيات الكريمة في بيان عظمة هذا القرآن وأنه كتاب حكيم ، وكتاب مجيد ، وكتاب مبين ، وكتاب عزيز ، وإنه لقرآن كريم ، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم ، وأنه هدى للمتقين ، وبشرى للمسلمين ، وإنه حكمة بالغة ، وإنه يخرج الناس من الظلمات الى النور ، وإنه يهدي إلى الرشد ، وإنه أنزل بالحق ، وأن الباطل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ، وإنه تنزيل رب العالمين ، وإنه تنزيل العزيز الحكيم ، وإنه لتنزيل العزيز العليم ، وإنه تنزيل الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، وإن اهل الارض جميعا ، لا يمكن أن يأتوا بحديث مثله ولا بعشر سور مثله ، او بسورة من مثله ، وإنه شفاء ورحمة للمؤمنين ، الى غير ذلك من المعاني الكريمة الفاضلة .

ويمكن تبويب هذه الآيات في (١٠) مواضيع رئيسة تتناول صفات القرآن الكريم ومصدر تنزيله الإلهي وإعجازه وعظمته ونزوله بالحق ، واشتماله على الهدى ، والحكمة والنور والرشد والصراط المستقيم ، وفضل تلاوته وتدبره وزيادة الإيمان به .

٤ - أ : أولاً : صفات القرآن

١ . ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ (ص : ١)

٢ . ﴿آلر تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ (يونس : ١)

٣ . ﴿ق والقرآن المجيد﴾ (ق : ١)

٤ . ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ (يس : ١)

٥ . ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم﴾ (الواقعة : ٧٨٧٦)

٦. ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ (النمل : ١)

٧. ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ (الحجر : ١)

٨. ﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين﴾ (القصص : ١/ ٢)

٩. ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ (فصلت : ٤١)

١٠. ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ (فصلت : ٢)

١١. ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ (فصلت : ٤٢)

١٢. ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ (غافر : ٢)

١٣. ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ (الزمر : ١ ، الجاثية : ٢ الاحقاف : ٢)

١٤. ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنا منذرين﴾ (الدخان : ٢)

١٥. ﴿وما نتنزّل إلا بأمر ربك﴾ (مريم : ٦٤)

١٦. ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها﴾ (الزمر : ٢٣)

١٧. ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض﴾ (الفرقان : ٥)

١٨. ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ (الفرقان : ١)

١٩. ﴿الرحمن علّم القرآن﴾ (الرحمن : ١)

٢٠. ﴿وإنك لتلقّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ (النمل : ٦)

٢١. ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ (يونس : ٣٧)

٢٢. ﴿وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا﴾ (الشورى : ٥٢)

٢٣. ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ (الشورى : ١٧)

٤ – ب : عظمة القرآن

١. ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ (الحجر : ٨٧)

٢. ﴿عمّ يتسائلون عن النبأ العظيم﴾ (النبأ : ١)

٣. ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجبا﴾ (الجن : ١)

٤ . ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (البروج : ٢٠)

٥ . ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم (الواقعة : ٧٦/ ٨٠)
إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسّه الا المطّهرون﴾

٦ . ﴿إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش (التكوير :١٩/ ٢٠)
مكين﴾

٧ . ﴿إنه لقول فصلٌ وما هو بالهزل﴾ (الطارق : ١٤/ ١٥)

٨ . ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من (فصلت : ٤١/ ٤٢)
حكيم حميد﴾

٥ . عظمة منزل القرآن الكريم :

الله عز وجل بأسمائه الحسنى وقدرته وعلمه وفضله ورحمته وكرمه نزّل هذا الكتاب المبين . وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تبرز ألوهيته وعظمته وبالتالي نستنسم من خلالها عظمة المعاني والآيات التي يحتويها هذا الكتاب المنزل .

١ . ﴿ولله الاسماء الحسنى﴾ (الاعراف : ١٨٠)

٢ . ﴿ولله خزائن السماوات والارض﴾ (المنافقون : النحل : ١٦)

٣ . ﴿ولله جنود السماوات والارض﴾ (الفتح : ٧)

٤ . ﴿ولله غيب السماوات والارض﴾ (هود : ١٢٣)

٥ . ﴿ولله ميراث السماوات والارض﴾ (الحديد : ١٠ ، آل عمران : ١٨٠)

٦ . ﴿ولله ملك السماوات والارض﴾ (المائدة : ١٧/ ١٨ ،
آل عمران : ١٨٩)

٧ . ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون : ٨)

٨ . ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ (البقرة : ١١٥)

٩ . ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج : ٤١)

١٠. ﴿ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم﴾ (النحل: ٦٠)
١١. ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ (الروم: ٤)
١٢. ﴿لله الأمر جميعا﴾ (الرعد: ٣١)
١٣. ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ (الزمر: ٤٤)
١٤. ﴿فلله المكر جميعا﴾ (الرعد: ٤٢)
١٥. ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ (البقرة: ٢٨٣)
١٦. ﴿له ملك السماوات والارض﴾ (الزمر٤٤:، البروج: ٩، الحديد: ٢/ ٥)
١٧. ﴿له مقاليد السماوات والارض﴾ (الشورى: ١٢، الزمر: ٦٣)
١٨. ﴿له غيب السماوات والارض﴾ (الكهف: ٢٦)
١٩. ﴿له الكبرياء في السماوات والارض﴾ (الجاثية: ٣٧)
٢٠. ﴿له المثل الاعلى في السماوات والارض﴾ (الروم: ٢٧)
٢١. ﴿له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ (الأنعام: ٦٢)
٢٢. ﴿له الخلق والامر﴾ (الاعراف: ٥٤)
٢٣. ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ (القصص: ٧٠)
٢٤. ﴿له الدين واصبا﴾ (النحل: ٥٢)
٢٥. ﴿وله المنشآت المنشآت في البحر كالأعلام﴾(الرحمن: ٢٤)
٢٦. ﴿له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (القصص ٧٠)
٢٧. ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ (الأنعام: ١٣)
٢٨. ﴿وله كل شيء﴾ (الرعد: ٢٩)
٢٩. ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ (الأنعام: ٥٩)
٣٠. ﴿وعنده الكتاب﴾ (الرعد: ٢٩)
٣١. ﴿وعنده علم الكتاب﴾ (الرعد: ٤٣)
٣٢. ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ (لقمان: ٣٤)

٣٣ . ﴿والله عنده أجر عظيم﴾	(التغابن : ١٥)
٣٤ . ﴿والله عنده حسن المآب﴾	(آل عمران : ١٤)
٣٥ . ﴿والله عنده حسن الثواب﴾	(آل عمران : ١٩٥)
٣٦ . ﴿فقل إن العزة لله جميعا﴾	(يونس : ٦٥)
٣٧ . ﴿فقل إن الارض لله﴾	(الاعراف : ١٢٨)
٣٨ . ﴿فعلموا أن الحق لله﴾	(القصص : ٧٥)
٣٩ . ﴿فقل إنما الغيب لله﴾	(يونس : ٢٠)
٤٠ . ﴿وأن المساجد لله﴾	(الجن : ١٨)
٤١ . ﴿والأمر يومئذ لله﴾	(الانفطار : ١٩)
٤٢ . ﴿الملك يومئذ لله﴾	(الحج : ٥٦)
٤٣ . ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾	(الكهف : ٤٤)

والله كذلك :

١ . ﴿وهو خير الحاكمين﴾	(يوسف : ٨٠، يونس : ١٠٩)
٢ . ﴿وهو خير الناصرين﴾	(آل عمران : ١٥٠)
٣ . ﴿وهو خير الفاصلين﴾	(الأنعام : ٥٧)
٤ . ﴿وأنت خير الغافرين﴾	(الاعراف : ١٥٥)
٥ . ﴿وأنت خير المنزلين﴾	(المؤمنون : ٢٩)
٦ . ﴿وأنت خير الفاتحين﴾	(الاعراف : ٨٩)
٧ . ﴿وأنت خير الوارثين﴾	(الأنبياء : ٨٩)
٨ . ﴿وأنت خير الراحمين﴾	(المؤمنون : ١١٨)
٩ . ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾	(الأعراف : ١٥١)
١٠ . ﴿وأنت خير الرازقين﴾	(المائدة : ١١٤)
١١ . ﴿رب المشرق والمغرب﴾	(المزمل : ٩)
١٢ . ﴿رب المشارق والمغارب﴾	(المعارج : ٤٠)

١٣ . ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ (الرحمن : ١٧)

١٤ . ﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الارض رب العالمين﴾ (الجاثية : ٣٦)

١٥ . ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ (المؤمنون : ١١٦)

١٦ . ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ (النمل : ٢٦)

١٧ . ﴿وهو رب كل شيء﴾ (الأنعام : ١٦٤)

٦ . ترابط الآيات القرآنية :

ترتبط الآيات القرآنية بعضها ببعض ارتباطا عجيبا متداخلا حتى تكون كالكلمة الواحدة والصورة الرائعة البيان التي لا تدري أين سر جمالها أو أين سر الابداع فيها فكيف اذا كانت هذه كلها بجزئياتها وكلياتها وحروفها وكلماتها وآياتها وسورها، فواصلها ومواطن سكونها كلها من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً﴾ ، ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ . وقد قالت الجن إذ سمعته : ﴿إنّا سمعنا قرآنا عجيبا﴾ .

ولكل مفردة قرآنية مهما صغرت نورها الخاص بها، وكذلك الجملة القرآنية سواء كانت آية أو أكثر تحتوي على الخصائص القرآنية جميعها من حيث قيام كل حرف بعمل حاسم يفصل بين الحق والباطل . فالآية القرآنية أو الجملة أو الكلمة أو الحرف في الموضع الواحد أو المواضع المتعددة لها خصوصياتها وبصماتها وأنوارها، فالإعجاز قائم في كلام الله وفي خلق الله : ﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان﴾ .

قال تعالى: ﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون﴾ (فصلت ١-٢)، وتشير الآيات الكريمة إلى أن هذا الكتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية كلها، وقد بينت معانيه ووضحت أحكامه في غاية البيان والكمال حال كونه قرآنا عربيا نزل بلغة العرب لقوم يفهمون تفاصيل آياته ودلائل اعجازه فهو في أعلى طبقات البلاغة ولا يتذوق اسراره إلا من كان عالما بلغة العرب.

وقال تعالى: ﴿ كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾، كما قال تعالى: ﴿حم والكتاب المبين * إنّا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾. (الزخرف: ١-٣). ويشير الحق جل وعلا الى التناسب بين المقسم والمقسَم عليه حيث أقسم الله تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآنا عربيا وهذا القسم تنبيه على أنه لا شيء أعلى من القرآن، فيقسم به، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على شرف القرآن وعزته وإنه في اللوح المحفوظ رفيع الشأن عظيم القدر ذو حكمة بالغة فإذا كان هذا شرفه في الملأ الاعلى فذلك حتى يشرفه اهل الارض فهو عند الله في مكانة عظيمة رفيعة.

ولما لهذا القرآن من سحر في النفوس ولا سيما من تذوق العربية منهم ولو كان مشركاً فقد طلب الخالق الكريم من رسوله عليه السلام أنه إذا استجاره مشرك فليجره حتى يسمع كلام الله، ثم يبلغه مأمنه ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (التوبة: ٦).

٧. الآية والآيات في القرآن الكريم :

وردت ألفاظ الآية والآيات وما اشتق منها في ٢١٣ موضعاً من القرآن الكريم كما يأتي : آية (٤٨)، آيات (٥٢)، آياته (٣١)، آياتنا (٣٤)، الآيات (٣١)، آياتي (١٠)، آيتك (١)، آيتين (١)، آياتك (٣).

ومن الآيات التي وردت فيها الألفاظ أعلاه نذكر ما يأتي :

* ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾
* ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين﴾ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾
* ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾
* ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾
* ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾
* ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾
* ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾
* ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾

٨. الحكمة الإلهية من نزول الآيات :

إن الحكمة من إنزال الآيات الكريمة هي لتوجيه القلوب والأفئدة إلى نعم الله وواسع فضله وعطائه، وللقيام بواجب شكره وعبوديته، وقد

شملت عشرة مفاتيح رئيسة هي: التقوى، الفقه، الرجوع إلى الله وتذكره، والتفكر في خلقه وآلائه، والهداية، والشكر، واليقين، والذكر، والعقل.

قال تعالى:

* ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾	البقرة: ١٨٧
* ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾	البقرة: ٢٢١
* ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾	الأنعام: ٦٥
* ﴿وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾	الأحقاف: ٢٧
* ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾	البقرة: ٧٣
* ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾	البقرة: ٢١٩، ٢٦٦
* ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾	النور: ٦١
* ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾	البقرة: ٢٤٢
* ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾	آل عمران: ١٠٣
* ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾	المائدة: ٨٩
* ﴿قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾	الحديد: ١٧
* ﴿يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾	الرعد: ٢
* ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكرون﴾	النور: ١

٩ . الآيات القرآنية حسب الموضوع :

يمكن تقسيم الآيات القرآنية إلى موضوعين رئيسين :

أولاً : الآيات الشرعية والعقيدية :

ويشتمل هذا النوع من الآيات على الآيات المتعلقة بالتوحيد والعقيدة والصيام والصلاة والحج والجهاد والمواريث والقتال والدين والربا والرضاعة والطلاق والهدية والزواج والمهور والرجم وحدود السرقة والزنا والحرابة . والآيات في هذا الباب تشمل حيزاً كبيراً من كتاب الله تعالى .

ثانياً : الآيات الكونية :

وهي ما أشار إليها الله عز وجل بآيات الأنفس والآفاق ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ، وتشمل هذه الآيات المواضيع الرئيسية الآتية :

١ . خلق الإنسان وتكوينه
٢ . السماوات
٣ . الأرض
٤ . الشمس والقمر
٥ . النجم والنجوم
٦ . الجبال
٧ . الليل والنهار
٨ . البر والبحر
٩ . الماء
١٠ . الريح والسحاب والظل
١١ . الفلق والصبح والضحى
١٢ . الأنهار
١٣ . الدواب والأنعام
١٤ . النمل والنحل والعنكبوت

وفيما يلي طائفة من هذه الآيات :

* ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ الروم : ٢٠
* ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون﴾ الروم : ٢١
* ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ الروم : ٢٢
* ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ الروم : ٢٣
* ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ الروم : ٢٤
* ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ الروم : ٢٥
* ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ فصلت : ٣٩
* ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ الروم : ٤٦
* ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الشورى : ٣٢
* ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ فصلت : ٣٧

آيات وكلمات القرآن الكريم بالأرقام:

لكل حرف أو كلمة في اللغة العربية معنى خاص لا يشاركها فيه آخر مما يؤثر تأثيراً كبيراً على المعنى المقصود والجملة المفيدة.

* ﴿فاعلموا أن الله بريء من المشركين ورسولهُ﴾
* ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء﴾
* ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة..﴾

(منْ، مَنْ)، (بَر، بُر، بر)، (يهدي، يهّدي)، (كَرِها، كُرْها)، (تُصعدون وتَصعدون).

وفقد اهتم السلف الصالح بتعداد آيات وكلمات ونقطات وشكلات القرآن وقسّموا القرآن أجزاءً وأرباعاً، ونبرز فيما يلي أهم هذه الإحصائيات التي اشتمل عليها القرآن الكريم:

* أعداد الآيات: ٦٢٢٣ آية.
* أعداد الأحرف: ٣٢٣٦١٧ أو ٣٣٠٧٣٣ حرفاً.
* أعداد النقاط: ١٥٠٦٨١ نقطة.
* أعداد السجدات: ١٦ سجدة.
* أعداد السور: ١١٤ سورة.
* أعداد الشكلات: ٣٤١٣٨ شكلة.
* متوسط الكلمات في الآية ١٢,٥ كلمة.
* متوسط الكلمة: ٤,٢٥ حرفاً.
* متوسط الآية: ٥٣ حرفاً
* متوسط الآيات في السور ٥٥ آية

* وتشتمل سورة الطلاق المكونة من (١٠) آيات وتحوى ٢٨٧ كلمة بمعدل ٢٩ كلمة للآية الواحدة، وهو أعلى معدل لكثافة الكلمات في السورة الواحدة.
* كما تشتمل سورة عبس المكونة من ١٢٥ كلمة و٤٢ آية، وبمعدل ٣ كلمات للآية الواحدة، وتعد أصغر سورة بالنسبة لحجم الآيات.
* كما وتعد سورة (يس) هي السورة الأمثل لمتوسط عدد الأحرف بالنسبة لمجموع سور القرآن الكريم فقد اشتملت على (٧٣٣ كلمة) و (٣٠٦٨) حرفاً ويليها سورة فاطر المكونة من ٧٨٠ كلمة و ٣٢٣٧ حرفاً.
* كما تعد سورة الكوثر المكونة من (١٠) كلمات أصغر سورة بالنسبة لعدد الكلمات، وتليها سورة العصر ١٤ كلمة، الإخلاص ١٥ كلمة، قريش ١٧ كلمة، النصر ١٩ كلمة، الناس ٢٠ كلمة، الفلق ٢٣ كلمة، الفيل ٢٣ كلمة، المسد ٢٣ كلمة، الماعون ٢٥ كلمة، الكافرون ٢٧ كلمة، التكاثر ٢٨ كلمة.
* كما تعد سورة البقرة أطول السور القرآنية، إذ تشتمل على ٢٨٦ آية ٦١٤٤ كلمة ٢٦٢٥١ حرفاً.
* وتليها سورة النساء (٣٧٦٢) كلمة، (١٦٣٣٨) حرفاً، (١٧٦) آية. وسورة آل عمران (٢٠٠ ٣٥٠٣) كلمة، و (١٦٣٣٨) حرفاً.

١١ . الآيات المتشابهة وتكرارها:

لقد مدح الله كتابه بأنه متشابه، تتشابه فيه الكلمات والآيات وهذا التشابه هو من خصوصيات هذا الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.

وقال أبو حيان بأن الابتداء باسم الله وإسناد نزل يضمره فيه تفخيم للمنزل ورفع من قدره. والكتاب المتشابه هو الكتاب الذي يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والبلاغة والتناسب بلا تعارض ولا تناقض وهو مثاني تتكرر فيه المواعظ والأحكام وتتردد فيه القصص والأخبار بلا سأم أو ملل.

وكما تلونا الآيات بان لنا هذا التشابه أكثر. ومن العجيب أننا نكتشف كلما تلونا القرآن مزيداً من هذا التشابه.

* وهناك (٧٩) آية متشابهة تماماً في القرآن الكريم، كل منها مرة واحدة.
* وهناك (٤) آيات مكررة ٣ مرات
* وهناك (٣) آيات مكررة ٤ مرات
* وهناك آية واحدة مكررة ٥ مرات
* وهناك آيتان مكررتان ٦ مرات
* وهناك آية واحدة مكررة ٧ مرات
* وهناك آيتان مكررتان ٨ مرات
* وهناك آية واحدة مكررة ١١ مرة
* وهناك آية واحدة مكررة ٣٢ مرة

ومن أمثلة الآيات المتشابهة:

* ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ (المؤمنون: ٥-٨)، (المعارج: ٢٩-٣٢)
* ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ (آل عمران: ٨٨)، (البقرة: ١٦٢)

* ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب﴾ (فصلت: ٤٥)، (هود: ١١٠)
* ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (التحريم: ٩)، (التوبة: ٧٣)

آيات مكررة ٣ مرات:

* ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾ (الواقعة: ٦٤، ٩٦)، (الحاقة: ٥٢)

آيات مكررة ٤ مرات:

* ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ (الصافات: ٨٠, ١٢١, ١٣١)، (المرسلات: ٤٤)

آيات مكررة ٥ مرات:

* ﴿إني لكم رسول أمين﴾ (الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨)
* ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ (الشعراء: ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤)

آيات مكررة ١١ مرة:

* ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ (المطففين: ١٠)، (المرسلات: ١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩)

آيات مكررة ٣٢ مرة:

* ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ (الرحمن.

١٢. الآيات المتشابهة باستثناء كلمة:

وهناك (١٦٧) آية في القرآن متشابهة ألفاظها باستثناء كلمة واحدة:

* ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ القمر: ٥٤
* ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ الذاريات: ١٥
* ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ الحجر: ٤٥

* ﴿وإذا البحار سجرت﴾ التكوير : ٦
* ﴿وإذا البحار فجرت﴾ الانفطار : ٣
* ﴿قالوا يا ويلنا إنّا كنا طاغين﴾ القلم : ٣١
* ﴿قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظالمين﴾ الانبياء : ١٤
* ﴿والسماء ذات البروج ﴾ البروج : ١
* ﴿والسماء ذات الحبك﴾ الذاريات : ٧
* ﴿والسماء ذات الرجع﴾ الطارق : ١١

١٣ . الآيات المتشابهة باستثناء حرف :

كما أن هناك (٥) مجموعات من الآيات المتشابهة في القرآن باستثناءحرف واحد :

* ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ التين : ٦
* ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ الانشقاق :٢٥
* ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ القلم : ٧
* ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ الأنعام : ١١٧
* ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ المؤمنون : ٣١
* ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ المؤمنون : ٤٢
* ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ هود : ٦٧
* ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ هود : ٩٤

١٤ . مفردات تكوين الآية القرآنية :

قـد تتكون الآية الكريمة من كلمـة واحـدة مـثل (ق) ومن حـرفين مثل : ﴿يس﴾ ، أو من ثلاثة أحرف : ﴿الم﴾ ﴿طسم﴾ ﴿الر﴾ ، أو أربعة أحرف : ﴿المص﴾ ، أو خمسة أحرف : ﴿كهيعص﴾ ، أو تتكون الآية من كلمة واحدة فقط : ﴿الرحمن﴾ ﴿مدهامتان﴾ ، أو كلمتين : ﴿والشمس وضـحـاها﴾ ﴿وكـتـاب مـسطور﴾ ﴿والبـيت المعـمـور﴾﴿والسـقف المرفوع﴾﴿والبحر المسجور﴾ أو تتكون من ثلاث كلمات فأكثر .

و قد تصل الآية في مجموعها إلى ١٢٠ كلمة كما في آية الدّين (البقرة : ٢٨٢) بينما يبلغ متوسط الآية الواحدة الإجمالي ١٢,٥ كلمة ٥٣ حرفاً في جميع آيات القرآن الكريم .

كما تشمل بعض الآيات القرآنية جميع أحرف اللغة العربية بلا استثناء : الآية ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم . . . ﴾ (آل عمران : ١٥٤)، والآية ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . . ﴾(الفتح : ٢٩) .

١٥ . طبقات فهرسة السور القرآنية حسب عدد الآيات :

يمكن إعادة ترتيب السور القرآنية حسب عدد الآيات وإعادة توزيعها على ٧٧ طبقة مختلفة فأعلاها سورة البقرة ٢٨٦ آية ثم الشعراء ٢٢٧ آية ، الأعراف ٢٠٦ آية ، آل عمران ٢٠٠ آية ، الصافات ١٨٢ آية ، النساء ١٧٦ آية ، الأنعام ١٦٥ آية ، طه ١٣٥ آية . . .

- وهناك أيضاً الإسراء ويوسف كل منهما ١١١ آية ، الحجر ٩٩ آية ، مريم ٩٨ آية .

- وهناك مجموعات ثلاثية الآيات: النصر، العصر، الكوثر (٣آيات)
- وهناك مجموعات السور الرباعية الآيات: قريش، الإخلاص (٤آيات)
- وهناك مجموعات السور الخماسية الآيات: الفيل، المسد، الفلق(٥آيات)
- وهناك مجموعات السور السداسية الآيات: الكافرون، الناس(٦آيات)

١٦ . الخلاصة :

مما ذكر سابقاً في هذه العجالة من المحاضرة ندرك الأبعاد المختلفة التي تنطوي عليها دراسة ظاهرة الآية في القرآن الكريم وأن لها مجالاً واسعاً لمزيد من القراءة والبحث والتنقيب ولا سيما بعد وضع برامج الحاسوب المختلفة التي تم إدخالها لمعالجة مفردات القرآن الكريم وآياته وأحرفه .

وفي الختام أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور فتحي ملكاوي المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمان ، والأخوة العاملين معه والحضور الكريم وكل الذين شرّفوني بالاستماع ومناقشة ما احتوته هذه الورقة المتواضعة .

داعياً الله عز وجل للأخوة جميعاً ولسائر المسلمين أن يبصرهم بأمور دينهم ويعينهم على فهم كتابه ، وتدبر معانيه والعمل بأحكامه ، وأن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب .

الكتاب والقرآن
دراسة دلالية في السياق القرآني

الدكتور عودة أبو عودة

الحمد لله الذي لا يجوز الحمد إلا له جل شأنه، ولا يكون التوفيق إلا منه سبحانه، ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون وإن اجتهد المجتهدون، وتمنى الحالمون. سبحانه وتعالى هو الملك، يحكم ولا مُعَقِّبَ لحكمه، ويقضي ولا رادّ لقضائه، ألا له الخلق والأمر، فمن بقي له شيء -بعد- فليطلبه، سبحانه، جل شأنه يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون.

أما بعد أيها الأخوة الكرام والأخوات الكريمات فقد كان من تدبير الله عز وجل وتوفيقه أن تكون هذه المحاضرة عن (الكتاب والقرآن: دراسة دلالية في السياق القرآني) في غرة شهر رمضان المبارك لعام ألف وأربعمائة وستة عشر للهجرة، هذا الشهر المبارك الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. ولم يكن هذا الموعد مقصوداً عندما رسم لهذه المحاضرة أن تكون. لذا، فإنه يعجبني أن أتخذها من قبيل الفأل الحسن، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل الحسن.

وعندما رغّب إليّ الأخ الدكتور فتحي ملكاوي أو رغّبت إليه أن تكون هذه المحاضرة في هذا المكان الطيب إن شاء الله، لم يكن هذا

العنوان محدداً بهذه الصورة لا يتعداها. بل كانت تثور في نفسي رغبة جامحة في أن أقول في القرآن الكريم مقالاً. فإن أمتنا الإسلامية لم تؤت إلا لأنها اتخذت هذا القرآن مهجوراً. والذي يتأمل في أحوال الناس اليوم يجد أن أكثر الناس لا يشعرون بضرورة التمسّك بالقرآن الكريم واتخاذه دستوراً لحياتهم في كل شأن من الشؤون دون استثناء. وحتى القلة القليلة التي ما تزال تكن بعض التقدير للقرآن الكريم فإنها كثيراً ما تجاوز الصواب في فهم القرآن الكريم واستنتاج الأحكام الضرورية منه للتعامل مع الحياة في زمن الناس هذا.

أيها السادة:

وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم في حديث جامع ينبغي لنا أن ننظر فيه ببصيرة صافية، وأن نتخذ منه منهاجاً لفهم القرآن الكريم، ولتسيير حياة المجتمع الإسلاميّ، حيثما كان. وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا الحديث من أجل أن يثير فينا الإعجاب بالقرآن الكريم فقط.

بل قاله لنعمل به، ونتعلم منه، ونهتدي به إلى سواء السبيل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... هو كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنتنه الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً، من عَلِمَ علْمه سَبَقْ، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر، ومَن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

أرأيتم إلى هذا البيان النبوي الشامل؟ أرأيتم إلى كل جملة، وكل وصف في هذا الحديث النبوي الشريف كيف يثير موضوعاً كبيراً لا ينتهي القول فيه؟

وددت لو أعيد قراءة هذا الحديث الشريف لأتوقف عند كل جملة فيه مرة أخرى ونتدبر معناها. ووددت لو أن لقاءنا هذا يتسع لمناقشة كل فكرة وردت في هذا الحديث النبوي الشامل. ولكني -أيها الأخوة- سأدع هذا الحديث النبوي الشريف معكم، ترجعون فيه القول، وأمضي مع جملة واحدة فيه، تكون عندنا اليوم موضوع المساءلة والمقابسة. (ولا تنتهي عجائبه).

والعجائب جمع عجيبة، والعجيبة في معاجم اللغة ما يدعو إلى العجب، وهو روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء. وأي روعة تأخذ بالألباب أكثر من رؤية القرآن الكريم يصنع أمة الإسلام على مرّ السنين والقرون، ويبلغ بها ما بلغ الليل والنهار، ويقف شامخاً معجزاً يتحدى الإنس والجن، والأمم والشعوب، والمكائد والمصائب، والمؤامرات التي تدبر بليل، من أجل الإساءة إليه وإثارة الشكوك فيه، وصرف الناس عنه. وأي عجب يحير العقول أشد من رؤية المسلمين اليوم ينصرفون عن القرآن الكريم ليحتكموا إلى غيره من الشرائع من صنع الإنسان العاجز عن وضع قانون يسعد به نفسه بَلْهَ أن يسعد غيره من أبناء أمته.

القرآن الكريم أحد الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل على رسله -عليهم الصلاة والسلام- ليبيّنوا للناس دين الله الذي ارتضاه لهم في إعمار هذه الأرض. وإن الدين عند الله الإسلام، ولا دين لله في الأرض غيره. وما وردت كلمة (دين) في صيغة الجمع في القرآن الكريم أبداً. وإن المرء ليعجب كيف يستقيم لبعض الناس أن يظنوا أن أمر هذه

الأرض يمكن أن يعتدل إذا حكمت بأكثر من دين واحد. فالله عز وجل، خالق الكون، بما فيه هذه الأرض التي نحيا، فيها إله واحد لا شريك له.

والأرض هي الأرض منذ أن خلقها الله إلى أن يرثها -جل شأنه- هي ومن عليها. والإنسان هو الإنسان، اسم للجنس الذي خلقه الله عز وجل ليعمر الأرض. والإنسان في اتساع المكان وامتداد الزمان لا يختلف فرد عن آخر في الثوابت الإنسانية التي تشكل كل فرد وتميزه من غيره. فالإنسان -حيثما كان- يولد ويموت، ويجوع ويعطش ويأكل ويشرب، ويسخط ويرضى، ويحزن ويفرح، ويحب ويكره، وما يختلف إنسان عن إنسان، وبالتالي أمة عن أمة، أو مجتمع عن مجتمع إلا بمقدار ما تختلف ظروف البيئة وثروات الأرض وعوامل المناخ التي قد تؤثر في بعض أنماط سلوكه وتصرفاته.

فإذا علمنا ذلك كان من المسلّم به أن نؤمن بأن الله الواحد جل شأنه، يشرع لهذا الإنسان، هذا الصنف من الخلق، في هذه الأرض الواحدة، ديناً قيماً واحداً ينظم حياته.

الكتب السماوية كلها نادت بدين واحد. والأنبياء جميعاً نادوا بدين واحد، ودعوا دعوة واحدة، والكتب السماوية كلها اتفقت في الأساسيات التي دعت إليها، والمبادئ والقواعد والأحكام العامة التي بشرت بها: أن الله عز وجل حقٌ، وأن رسله وملائكته حق، وأن اليوم الآخر حق، وأن الموت والبعث حق، وأن طاعة الله عز وجل وعبادته بالأحكام الأساسية من الدين حق؛ كالصلاة والصيام والبعد عن المحرمات.

وما اختلفت الكتب السماوية بعضها عن بعض إلا بمقدار ما شاء الله عز وجل أن يوسع به من أحكام شريعة أمة من الأمم موازنة مع غيرها.

كأن يحرّم على أمة طعاماً يحله لغيرها أو كان أحلّه لغيرها في شريعتها. أو يجيز لأمة سلوكاً لم يجزه لغيرها.

إن الثوابت من أحكام الله عز وجل هي الدين وإن ما يمكن أن يتغير من أحكام الله لأمة من الأمم وفق ظروفها في عصرها هو شريعة. والشريعة بعض الدين. والكتب السماوية -قبل القرآن الكريم- كانت كلها لبيان الدين والشريعة فقط. أما القرآن الكريم فكان كتاباً للدين والشريعة، وكان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً.

والمعجزة في لسان الشرع -كما قالوا- هي أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة. وهذا يعني أن المعجزة ينبغي أن تكون أمراً لا يستطيعه إلا الله عز وجل، وأن تكون مؤيدة لرسول الله ، وأن تستمر مادامت الرسالة قائمة.

وتعلمون أن معجزة موسى عليه السلام كانت في إبطال السحر، وهو أمر تَفَوّقَ فيه قومه من بني إسرائيل في زمنه، وقد انتهت هذه المعجزة بوفاة موسى عليه السلام، وانتهى كذلك دور الكتاب الذي أنزل عليه. وتعلمون أن معجزة عيسى عليه السلام كانت في التفوق في الطب وهو أمر برع فيه بنو إسرائل في زمنه. فأحيا الله عز وجل على يدي عيسى عليه السلام بعض الموتى تأييداً له. وانتهت المعجزة برفعه عليه السلام، وانتهى به دور كتابه.

وتعلمون أن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت في ميدان الفصاحة والبيان، فأيده الله عز وجل بالقرآن الكريم، قرآناً يتلى إلى يوم الدين، يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وتعلمون أيضاً أن الله عز وجل اختار محمداً رسولاً للناس كافة

وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، ولذا فإن رسالته خالدة إلى يوم الدين وأن معجزته قائمة ما قامت رسالته.

من هنا نرى -أيها السادة- وجوب تمسك الناس بالقرآن الكريم، وتنفيذ أحكامه، والإيمان بإعجازه. فإن وثقت بأنه كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه كتاب منزل من عند الله، وأن كل حرف وكل كلمة فيه قد وضعت في مكانها، وثقت عندئذ بالله عز وجل -الذي أنزل هذا القرآن- رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً.

وماذا عسى ساعة محدودة كهذه أن تتسع للحديث عن إعجاز القرآن؟ وماذا عسى امرؤ مثلي أن يقول في إعجاز القرآن؟ ومهما يكن من أمر، فإننا لا نتحدث الآن عن دلائل الإعجاز بل نتحدث عن شواهد الإعجاز في القرآن الكريم. وشتان -أيها الأخوة- بين دلائل الإعجاز وشواهده. في بداية الأمر كان القرآن الكريم يتنزل على سيدنا محمد نجماً نجماً وفق الوقائع والأحداث. فمصدق من الناس ومكذب، ومؤمن من العرب وكافر، كان الأمر يحتاج إلى عرض أدلة الإعجاز، ومراقبة خطوات تحدي القرآن الكريم للناس أن يأتوا بمثله. وهذه قصة كبيرة فصلت فيها القول كتب الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً.

أما في هذا الزمن، بعد مرور خمسة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم فإن الأمر لا يحتاج إلى عرض أدلة الإعجاز القرآني إلاّ إلى بعض ذوي العقول الضيقة، والقلوب المظلمة، الذين عناهم المتنبي بقوله الذائع:

وليس في الأذهان شيء إذا احتاج النهار دليل

أما بصائر ذوي التمييز فإنهم يجب أن يسعدوا بلطائف الشواهد السائرة في بيان الإعجاز القرآني. والخطوة الأولى في بيان شواهد الإعجاز القرآني، يجب أن تبدأ من تدبر قول الله عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

أوليس من الأمور العجيبة اللافتة للنظر أنك ترى القرآن الكريم، الذي مضى على نزوله خمسة عشر قرناً، ما يزال يقرأ على ألسنة الناس. ويحفظ في صدور الحفاظ هو هو كما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف، ولم تتغير فيه حركة ولا اختلف الناس في ترتيبه أو تلاوته أو تسمية سوره. ثم إنك ترى مئات أو آلافاً من الكتب الأخرى تظهر وتختفي في عمر الإنسان الطويل، عَبْرَ حضارات الأمم المتوالية. فكم سمعنا عن كتاب كان ثم اندثر، وكم قرأنا من عناوين الكتب فيما وصل إلينا من المصادر، نجدها أسماء في هذه الكتب، ولم نجد لها أثراً في عالم الواقع، فتكون هي من آلاف الكتب التي طوتها رما ل الصحراء، أو عَدَتْ عليها عوادي الزمان الأخرى. ثم إنك تنظر في هذه الكتب التي سَلمت من عوادي الزمن ووصلت إلينا فإذا بها روايات شتى، وإذا فيها مَن الاختلاف والاضطراب، والحذف والإضافة والتقديم والتأخير، والزيادة، والنقص ما يجعل من الكتاب الواحد كتباً عدة، وما يوشك ألاّ يستطيع الناقد البصير، أو المحقق الخبير أن يستخرج من تلك النسخ المختلفة للكتاب الواحد نسخة معتمدة يطمئن إليها، فيقرر أنها هي كتاب كذا الذي طالما ذكرته المصادر.

وقد تزداد الدهشة ويستمر العجب، إذا علمت أخي القارئ -وأنت لا شك تعلم علم اليقين- أن القرآن الكريم، هو أكثر كتاب على سطح هذه الأرض تعرض -وما زال- لمحاولات التشويه والتغيير والتحريف. إن قوى الشرّ في الدّنيا كلها، ظلت طوال كل تلك القرون لهذا القرآن

الكريم بالمرصاد. في البداية وقف ضده الكفار والمعاندون من العرب، وأغروا به المتنبئين والسفهاء، فكثرت حوله الأقاويل والأكاذيب والدسائس، وتعددت محاولات المعارضة والإتيان بمثله، وخرج القرآن من كل ذلك منتصراً، وظلت تلك المعارضات والمحاولات أمثلة للفكاهة والتظرّف.

تروي أمثلة على سخف بعض بني الإنسان، عندما يهوي من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، فيفقد عقله وذوقه وفطرته وحكمه السليم. ووقفت في وجه القرآن الكريم، دول وشعوب، قديماً وحديثاً، وجُنّدَت لحربه الجيوش، وجمعت من أجل ذلك الأموال، ونشبت الحروب المدمرة، كما كان من معارك بغداد وعين جالوت وحطين ومرج الصفر قديماً، وما كان من احتلال العالم العربي كله واستعماره حديثاً، وإن في العالم اليوم عشرات من دور النشر تعمل على طباعة القرآن الكريم طباعة فاخرة. ولكنها تضع في أثناء آياته بعض التشويه والتحريف لمحاولة إثارة الشك حوله، ولكن سرعان ما تكتشف تلك الطبعات المشبوهة، ويتنادى الناس لحرقها وإتلافها والتشهير بها. فَمَنْ وراء حفظ القرآن الكريم وصيانته على الرغم من كل تلك كل الأهوال والمخاطر. إن الله عز وجل تكفل بحفظ القرآن الكريم وصيانته وحمايته. وليس هذا موطن الإعجاز الذي أريد الإشارة إليه، بل أريد أن أقول إن أحداً من الخلق لا يجرؤ أن يقول أو يدعي أنه سيحفظ القرآن على مر الدهور، فلو لم يكن القرآن الكريم من عند الله، لما وجدنا فيه هذا التأكيد، ولوجد الناس فيه اضطراباً كثيراً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فمن -غير الله عز وجل- يملك أن يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ومن -غير الله عز وجل- يملك أن يقول في كتابه العزيز: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقو النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾.

لا حظوا -أيها الأخوة- قول الله عز وجل ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾؛ (لن) هذه تفيد التأبيد -كما يقول الزمخشري- وغيره من النحاة. أي تفيد النفي المستمر إلى الأبد.

لقد آن لنا أيها الأخوة، أن نقول، إن القرآن الكريم معجز في كل شيء وفي كل العصور، وللناس جميعاً، منفردين ومجتمعين.

القرآن معجز لأنه كتاب الله عز وجل، ولأنه كلام الله عز وجل، معجز شأن هذا الكون الذي نعيش فيه، وهذه الأرض التي نحيا فيها ونحيا فوقها. وشأن هذا الإنسان الذي نشاهده في نفسي ونفسك.

* الإنسان كائن، فهل يمكن للإنس والجن أن يصنعوا إنساناً واحداً مثله، يمشي ويتحرك ويعيش وينمو كما يعيش بنو الإنسان؟

* النبات كائن حي، فهل يمكن للإنس والجن أن يصنعوا نبتة واحدة. تنمو وتعيش وتثمر كما تنمو وتثمر هذه النباتات على وجه الأرض؟

* الحيوان كائن حي، فهل يمكن للإنس والجن أن يصنعوا حيواناً واحداً، من أي صنف، كبيراً أو صغيراً، ينمو ويتحرك ويعيش كما يعيش كل حيوان أو طير أو حشرة أو دودة على وجه الأرض أو في باطن الأرض؟ لا، لا، بكل يقين.

ذلك أن الإنسان، والنبات، والحيوان، كائنات حيّة فيها روح، تولد به وتعيش به، وتنمو به، كائنات يمتزج فيها الروح بالجسد، فتعيش

وفق الحياة التي قدرها الله عز وجل لها، لتؤدي دورها. ومهما خلق الإنسان من أجهزة، وصنائع، فإنها تظل صنائع ميّتة جامدة لا روح فيها. تأمل في هذا الإنسان الآلي الذي صنعه الإنسان، فتوازن بينه وبين خلق الله عز وجل، ونستغفر الله على الموازنة، وتعجب من هذه الأذرع الحديدية والمفاصل الصناعية، تتحرك أمامك بطاقة كهربائية محدودة، إذا انتهت سقطت ميتة باردة برودة الموت. إن هذا هو مبلغ علم الإنسان وقدرته، ليس له أن يتجاوزها، وما ينبغي له، لأن الله عز وجل حدّد له هذه القدرة، وأوقفه عندها، ذلك لكي يعلم الإنسان أن الله عز وجل هو وحده خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

والقرآن الكريم -بهذا التصور- كائن حي كل متكامل. فيه روح من روح الله، اقرأ إن شئت قول الله عز وجل: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ وهذا الكائن الحي، القرآن الكريم وُضع فيه كل حرف وكل حركة وكل كلمة في مكانها، لتؤدي دورها، فلا تتقدم ولا تتأخر ولا تتغير، كما وضعت أجزاء الجسم الإنساني كلٌ في مكانه، لا يتقدم ولا يتأخر، ويقوم كل جزء بما أراد الله له، وما أودعه الله عز وجل فيه.

إن الجسد الإنساني جهاز دقيق بديع الصنع، سوف تعيش الإنسانية وتموت قبل أن تدرك كل الحقائق الإلهية التي أودعها الله فيه. والقرآن الكريم كذلك. فهو جهاز حي متكامل، وُضِعَ فيه كُلّ شيء مكانه فلا تتقدم فيه كلمة أو آية أو سورة على غيرها، ولا تتأخر، ولا تقوم كلمة بدور كلمة أخرى، ولا تغني آية عن غيرها.

ولذا فإن المسألة ليست مسألة وقت يمرّ، أو سنون تنقضي، أو وسائل تتيسّر، ليقول الإنسان مثل القرآن، لا، إنه قرآن كريم معجز، فوق الجن والإنس، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إني أنظر إلى القرآن الكريم نظرتي إلى جهاز حاسوب كبير -ولله المثل الأعلى إن هو إلا مثل أضربه لكم- أحاول فيه وبه توضيح فكرة في نفسي، فإن استطعت فالحمد لله، وإلا فإني أرجو أن أكون قد بلغت من لدنكم عذراً، عسى الأيام القادمة أن تعينني في توضيح فكرتي. فالقرآن إذاً يشبه أن يكون جهاز حاسوب كبيراً، مما يطلق عليه الناس الآن (كمبيوتر ضخم). هذا الحاسب (الكمبيوتر) منظَّم ومُبَرْمَجْ وفق نظام محكم واسع. فكل شيء في مكانه ليقوم بدوره، وكل امرئ من الناس يأخذ منه بما يساوي حدود علمه ومعرفته بنظامه وأسلوب تشغيله. وسوف يأتي يوم لا ريب فيه، تكون شعوب الأرض كلها ودولها قد حشرت في حاسوب بكل ما يتعلق بنظام حياتها، ويصبح لكل دولة (ديسك) أو (لوح) واحد، فيه كل ما يلزمها من شؤون حياتها. أقول إنّ هذا الحاسوب قد نظمت أجهزته وأسلاكه وقطعه وأجزاؤه بنظام محكم حتى لو أن جزءاً يسيراً فيه قد عطب أو قطع أو تغير لاختل النظام كله، وفسدت البرامج كلها.

وهكذا القرآن الكريم -ولله المثل الأعلى- بناء محكم مثل إحكام أجهزة (الحاسوب الكبيرة) وأسلاكه في الداخل. كل حركة وكل كلمة وكل آية في مكانها. وإنّ ما في القرآن الكريم من عناصر النظام اللغوي الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية قد صيغت في نظام إلهي محكم، كما صيغ هذا الكون الكبير بجباله وسهوله وبرّه وبحره وأرضه وسمائه وليله ونهاره. فإن كنت تعتقد أن البرّ لا يمكن أن يغني عن البحر،

وأن الليل لا يمكن أن يسبق النهار، وأن السهل لا يقوم بدور الجبل فأنت تعتقد يقيناً أيضاً أن ما في القرآن الكريم من:

- اختلاف صيغ الأفعال بين الماضي والمضارع والأمر.
- ومظاهر التقديم والتأخير.
- والتعريف والتنكير.
- والإفراد والتثنية والجمع.
- وتنوع الحروف وتعدّد مجالات استعمالها.
- وكثرة الأسماء وتنوع مواقعها الإعرابية.
- وتنوع الصيغ الصرفيّة في التراكيب اللغوية.
- وجرس الحروف وأصواتها.
- وحركات الإعراب ودلالاتها.
- وتعدد صيغ القسم.
- وتعدد أساليب النداء، والاستفهام والأمر، والنهي، والرجاء، والتمني والتوكيد، والنفي.
- وغير ذلك من عناصر التشكيل اللغوي.

كل أولئك مقصود، محدد، منظم، في بناء قرآني إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تدركه أفهام الناس، ولا يأتي الإنس والجن بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فالقرآن الكريم معجز في كل شيء، وفي كل العصور، وللناس جميعاً. في الماضي كانوا يعدون مظاهر إعجاز القرآن الكريم، فيقولون إنه معجز بما اشتمل عليه من:

- الإخبار عن أمور الغيب التي لا تُدْرك إلا بالوحي.
- وأنباء الأمم السابقة.
- وأحكام التشريع الكامل الذي يفوق شرائع البشر.

- وتعبيره عن حاجات الناس ودقائق مشاعرهم.
- وبعض مظاهر العلوم الكونية والاجتماعية.
- ونظم جديد يخالف المعروف من أساليب التعبير.
- وتأثيره في قلوب الناس قديماً وحديثاً.

وكل ذلك صحيح لا مراء فيه. وقد احتشدت الكتب العديدة في تفصيل القول في هذه الأمور، وساقت عليها من الشواهد والقصص ما ملأ المكتبات الخاصة والعامة، ولا ريب أن هذه الكتب -في معظمها- قدمت دراسات نافعة عن الإعجاز. ولكنها وهي تفعل ذلك، تكون هي نفسها شواهد على أن الإعجاز القرآني مستمر عبر العصور. فأنت تجد اختلاف طبيعة البحوث بين الكتب القديمة والكتب الحديثة. وقد مالت الكتب القديمة إلى النواحي التاريخية وإلى شرح مصطلحات الإعجاز والمعجزة وشروطها وحدودها، ومواقف الناس فيها. ودرجات التحدث وموقف الناس فيه، مما أحيل القارئ الكريم عليه في مظانّه. وقد مالت الكتب الحديثة إلى بيان الإعجاز البياني في القرآن واستخراج بعض اللطائف في التراكيب القرآنية وربطها بعلوم البلاغة والنقد، كما احتفلت بعض الكتب الحديثة ببعض مظاهر العلوم الكونية وإشارات القرآن الكريم إليها في بعض آياته.

وإني أرى أن الإعجاز في القرآن الكريم إعجاز لغوي في المقام الأول. وأن هذا الميدان يتسع ويتسع حتى يشمل مظاهر الإعجاز القرآني كلها. لأن كل لطيفة من لطائف الإعجاز مردّها في النهاية إلى الفهم الدقيق لأسرار اللغة ومعانيها. وإن ما يكشف عنه القرآن الكريم من أنظمة متكاملة في التشريع السياسي والاجتماعي والنفسي ومن حقائق علمية قائمة ومن إيحاءات وظلال، كل ذلك أثّر من آثار اللغة.

انظروا إلى قول الله عز وجل في سورتي الأعراف وفصلت: ﴿وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾.

- فما هذا النزغ أخي القارئ؟ ولم اختار الله عزوجل هذه الكلمة دون غيرها؟ مثل: وإما يصرفك عن ذكر الله صارف. أو وإمّا يشغلنّك عن الله شغل، أو وإمّا يلهينك عن ذكر الله لهو . . . الخ.

- ثم لماذا (وإما)؟ وليس و(وإن) أو (وإذا) أو (ولو).

- ثم لماذا توكيد الفعل (ينزغنّك) مع (وإما).

ولو أنك -أخي القارئ- راجعت آيات القرآن الكريم، لرأيت أن (وإما) هذه يأتي الفعل معها مؤكداً دائماً، مثل:

* ﴿فإمّا يتأتينّكم منّي هدى﴾
* ﴿وإمّا يُنسيَنّك الشيطان﴾
* ﴿يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسل﴾
* ﴿وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ﴾
* ﴿فإمّا تثقفنّهم في الحرب﴾
* ﴿وإمّا تخافنّ من قوم خيانة﴾
* ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم﴾
* ﴿إمّا يبلغنّ عندك الكبر﴾
* ﴿وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك﴾
* ﴿فإمّا تَرَينّ من البشر أحداً﴾
* ﴿فإمّا نذهبنّ بك﴾

فما الحكمة في هذا التعبير؟ ولم هذا التوكيد؟

إن هذا يدل على أن معجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ينبغي لها أن تكون من واقع ما عرف به قومه وتفوقوا فيه. وهم قد عرفوا بالفصاحة والبيان، حتى إنهم قالوا من قصائد الشعر ما أذهلهم حتى ذهبوا بها فعلّقوها على أستار الكعبة، فعرفت بين الناس بالمعلقات. ولك أن تتصور أيّ فخر، وأيّ سموّ يمكن أن يشعر به امرؤ يتناقل الناس قوله حتى إنهم يعلقونه على أستار الكعبة التي يحج إليها الناس من أطراف الدنيا ويطوفون بها. ولو أنك أنعمت النظر -أخي القارئ- في هذه المعلقات، وفي غيرها من قصائد الشعر الجاهلي لرأيت شيئاً عجباً حقاً. إن الشعر الجاهلي ما زال حتى الآن أصفى الشعر العربي وأعلاه بياناً وفصاحة. كان الشعراء الجاهليون يملكون اللغة ويتصرفون بها بسليقة صافية وطبع سليم، دونما تكلف أو تردد أو عناد، تماماً مثلما يشرب أحدنا الماء ويتنفس الهواء. لأن اللغة طبعٌ فيهم، وسليقة لديهم، وقد أوتوا من صفاء القريحة وجمال التصوير وعمق البيان ما تفوقوا به على كل الأمم.

هل أروي لك الآن بعض أبيات لبيد بن أبي ربيعة في معلقته التي يرى طه حسين أنها أجلّ المعلقات، أم أروي بعض أبيات النابغة شيخ النقّاد والشعراء، أم أبيات أبي ذؤيب الهذلي يرثي أبناءه الخمسة، أم أبيات الخنساء تبكي أخاها صخراً بشعر يشبه السحر؟ وما أرى إلا أنك قرأت أبيات متمّم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً، وأبيات حاتم الطائي يستقبل بها ضيوفه. إن نفسي لتراودني أن أعرض لك هذه اللوحات الساحرة، ولكني أريد أن أستثير عندك الشوق واللهفة، فتهب باحثاً عنها، وتقضي ساعات منتشياً مأخوذاً بها.

إن أمة تقول مثل هذا الأدب لا بد أن تكون معجزة النبي الذي بعث فيها تفوق هذا الأدب، وتتحداهم فيه. عندئذ تصدعهم المعجزة في أعلى ما عندهم، وأجلّ ما يتباهون به. وتتحداهم بسلاحهم وتقتحم عليهم حصونهم المنيعة.

أما معجزة النبي صلى الله عليه وسلم فهي مرتبطة بنبوة خالدة بخلود رسالته. وقد أرسله الله عز وجل: ﴿كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾، وجعله الله عز وجل: ﴿رسول الله وخاتم النبيين﴾، فالمعجزة قائمة إذاً ما دام القرآن الكريم وما دامت السماوات والأرض، وما دامت هذه الحياة الدنيا، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين. المعجزة دائمة بدوام الرسالة، والرسالة خالدة، والقرآن الكريم باق إلى يوم الدين، ولذلك فإن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم معجزة دائمة قائمة خالدة، بالقرآن الكريم وما أجمل أن نتذكر الآن قول الشاعر:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت   وجئتنا بكتاب غير مُنْصَرِم
آياتــه كلما طـال الـمدى جُدُدٌ   يَزينُهُنّ جمالُ العِتْقَ والقِدَم

والقرآن الكريم أُنزل بلسان عربي مبين، ولذا فإن المعجزة ينبغي أن تكون هي البيان اللغوي الساحر في القرآن الكريم.. الذي يعجز الناس كل الناس أن يأتوا بمثله، لا في زمن واحد، بل في كل الأزمان، وفي كل العصور. ولو كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن مؤقتة محدودة كالمعجزات السابقة لأمكن أن نقول إنها كانت فيما احتواه القرآن من قصص السابقين، أو فيما أخبر به القرآن من أخبار اللاحقين، أو فيما اشتمل عليه القرآن من قواعد وأحكام وتشريعات وقوانين تنظم الحياة والسياسة. وإن هذه الأمور يمكن أن تنتهي بانتهاء مدة الرسالة، ووفاة النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن معجزة النبي قائمة لأن رسالته قائمة

ولأن الإسلام باق إلى قيام الساعة. ولذلك يبقى القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قائماً يتحدى الناس جميعاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهذا التحدي لا يكون إلا باللغة، وبالبناء اللغوي المعجز، وبالأداء البياني العالي، الذي هدفه التشريع أولاً، ويفيض منه على مر العصور ظواهر بلاغية وأدبيّة، تبهر الألباب والعقول، وتتشكل في كل عصر بما يلائم ذلك العصر من أشكال الحياة المتنوعة، ومفردات المعرفة المتجددة.

فإذا اطمأننت بأن الإعجاز القرآني إنما هو في لغة القرآن الكريم وفي بيانه، فقل فيه ما تشاء مما يندرج تحت هذا الميدان مما يتعلق بعلوم النحو والصرف والبلاغة والأصوات والتجويد بل بعلوم الحياة كلها، لأن دلالات بعض الكلمات أو الآيات لا تظهر، إلا بما يملكه المرء من معرفة بعلوم كونية أخرى كالجغرافيا أو الفلك أو الرياضيات أو الاجتماعيات أو النفس وما إلى ذلك. إن نظم القرآن الكريم واختياره للكلمات في سياقها وللحركات تنظم التراكيب اللغوية، وللدلالات المعجمية المرتبطة بالسياق الاجتماعي، كل ذلك هو إعجاز القرآن.

إن إعجاز القرآن الكريم في الإشعاع وفي الإيحاء وفي الظلال وفي المعاني التي تفيض من آياته في كل زمن، ومن العجيب أنها دائمة صادقة كل الصدق، كاملة تمام الكمال. ذلك أن كل عصر يأخذ منها بطرف، بل إن كل عصر يتوصل إلى ما يكتب له أن يتوصل إليه، وعندما تقوم الساعة يكون الناس جميعاً خاضعين لقول الله عز وجل: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ ومؤمنين بقول الله عز وجل: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

إخواني الكرام:

بعد هذه الوقفة القصيرة مع إعجاز القرآن الكريم ينبغي لنا أن ندرك السبب الذي جعل الله عز وجل كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قرآناً. إن الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من أجل التشريع والبيان، كان لا بد أن يكون قرآناً يُتلى حتى تبدو للناس معجزته وبيانه. فهم أمة الفصاحة والبيان. وهذا سر ما نراه في القرآن الكريم من ربط بين مصطلحي (الكتاب والقرآن).

إن علينا أن نتدبر الآيات التي وردت في مادة (كتب) وما يشتق منها في القرآن الكريم. ولكي نتدبر الأمر سوياً أرجو أن أبين الملاحظات التالية:

* ورد الفعل الماضي (كَتَبَ) بفتح الكاف، ثماني مرات في القرآن الكريم. وكان الفاعل في كل هذه الآيات مسنداً إلى الله عز وجل.
* ورد تركيب (كتبنا) خمس مرات. والفاعل فيه هو الله عز وجل.
* وتركيب (كتبناها) مرة واحدة. والفاعل فيه هو الله عز وجل.
* وتركيب (سأكتبها) مرة واحدة. والفاعل فيه هو الله عز وجل.
* وتركيب (نكتب) ثلاث مرات. والفاعل فيه هو الله عز وجل.
* وتركيب (اكتب) مرة واحدة، وتركيب (اكتبنا) مرتين، الفاعل فيهما هو الله عز وجل.

فما دلالة ذلك؟

* وورود تركيب (كُتب) بضم الكاف، أي ببناء الفعل لما لم يسمّ فاعله، كما كان يقول سيبويه، أو للمبنى للمجهول كما نقول الآن، ورد ثلاث عشرة مرة. وفي هذه الايات كلها نشعر أن الفاعل هو الله عز

وجل، وأن بناء الفعل للمجهول كان لتوجيه النفس نحو الحدث ونحو الموضوع، لأن فاعل هذا الأمر أجلّ من أن نسأل عنه، جل شأنه، اقرأ إن شئت ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ وتدبر في هذا القول.

* وورد تركيب أو كلمة (الكتاب) في القرآن الكريم مئتين وثلاثين مرة. والحق أن مادة (كتب) ودلالة كلمة (الكتاب) في القرآن الكريم تفتح أمام الباحثين اليوم علماً جديداً ينبغي أن يشمروا له، وأن يجنّدوا له أدوات المعرفة الحديثة المتاحة لهم بالتقدم العلمي الهائل الذي نشهده. إن مادة (كتب) في القرآن الكريم تدل على أن الله عز وجل قد جعل كل ما يتحقق بقضائه وقدره في كتاب حفيظ، في كتاب واحد، وأنزل من هذا الكتاب على كل نبيّ ما يكفي لتشريع في أمته في الفترة التي بعث فيها، وإن الثوابت الدينية في الكتب السماوية عبر عنها الله عز وجل بتعبير (كَتب) أو بتعبير (كُتب).

* وقد وردت كلمة (الكتاب) في القرآن الكريم بالمعاني التالية:

١ - الكتاب الأم أو (أم الكتاب) كما سمّاه الله عز وجل، وهو الكتاب الجامع الذي جعل الله عز وجل فيه حكمه وأمره وتدبيره وقضاؤه وقدره لهذه الدنيا، ولمن فيها الخلق، من الإنس والجن، وهو المعنى الأساسي لهذه الكلمة. وقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة. منها قوله تعالى:

= ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾. لاحظوا الربط في هذه الآية الكريمة بين (الكتاب) وبين (كتب) في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾، لاحظوا جامع التقوى بين الآيتين. ومنها قوله تعالى:

- ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين . . . ﴾

وتلاحظوا أن (الكتاب) هنا من الأساسيات التي علينا أن نؤمن بها كإيماننا بالله واليوم الآخر والملائكة. ومنها قوله تعالى، وأرجو التدبر والتفكر العميق فيه:

= ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيّم . . . ﴾.

فهذا إذاً -كتاب الله- يوم خلق السماوات والأرض، أي قبل أن يوجد الإنسان، وقبل أن يكون الرسل والأنبياء، وقبل أن يتنزل عليهم شيء من عند الله. ومنها قوله تعالى:

= ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾. هل يحتاج الأمر إلى بيان؟ وهل تلاحظون أن (القرآن الكريم) قد صار شيئاً يتلى من هذا الكتاب المبين. وهناك آيات كريمة أخرى بهذا المعنى.

٢- الكتاب الذي أنزله الله عزوجل على رسله، وكل كتاب نزل على رسول من رسل الله عز وجل كان يحمل التشريع الذي فرضه الله على تلك الأمة في زمنها. والكتب السماوية كلها مستمدة من أصل واحد، من (أم الكتاب). ولذلك لم تختلف الكتب السماوية في الثوابت الأساسية التي نادت بها. قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيّنا من بعده بالرسل . . . ﴾.

= ومنها قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾. (الشورى ١٣، ١٤)

= ومنها قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾. (آل عمران: ١٨٧)

= ومنها قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (البقرة: ١١٣).

= وأرجو أن يتدبر الأخوة في قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة: ١٥٩).

فهو (كتاب) واحد (للناس) جميعاً.

= وقال تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ (النساء: ٥٤).

= وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ (مريم: ٤١).

٣- الكتاب الذي يسجل فيه أفعال العباد في الدنيا، ويحاسب عليه الناس في الآخرة، وهو كتاب جامع لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ولنتأمل -أولاً- في الآيات الكريمة التالية: قال تعالى:

= ﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها * ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ (الكهف: ٤٩)

= وقال تعالى: ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون * ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إنّ ذلك في كتاب إنّ ذلك على الله يسير﴾ (الحج: ٦٩-٧٠).

= وقال تعالى: ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ (المؤمنون: ٦٢) وأرجو أن يحدّق الأخوة القرّاء في كلمة (ينطق بالحق).

= وقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ (سبأ: ٣). ووازنوا أيها الأخوة بين هذه الآية وبين الآية السابقة من سورة الحج. وكلتاهما انتهت بالإشارة إلى أن ذلك في كتاب، وإن ذلك على الله يسير. وإنه لعمري ليسير جد يسر.

= وقال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ (الزمر: ٦٩).

- وقال تعالى: ﴿ق * والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ (ق: ١-٤)

- وقال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية: ٢٨-٢٩)

هذا هو إذاً نبأ (الكتاب) الذي أحصى فيه الله عز وجل كل عمل الإنسان في دنياه. وسوف يعرض هذا الكتاب عليهم يوم القيامة، ليرى كل إنسان عمله بأم عينه، وإن ذلك على الله يسير.

٤- الكتاب الذي جعله الله عز وجل في جسد كل إنسان منا. يسجل عليه صوتاً وصورة كل أقواله وكل أعماله. ويوم القيامة يخرج الله عز وجل هذا الكتاب وينظر فيه المرء ولا يملك أن يجادل في أي شيء ورد فيه عندئذ تبيض وجوه وتسودّ وجوه ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية * فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني ماليه * هلك عني سلطانيه﴾ (الحاقة: ١٨-١٩).

هل تأملتم -أيها السادة- في قوله عز وجل ﴿يومئذ تعرضون﴾. وهل هذا العرض المؤكد هو وراء الإلحاح الشديد في القرآن الكريم على الدعاء المستمر ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

أيها الأخوة:

وقد كنت من قبل أقول هذا الرأي بحذر وتردّد. وما زلت أتابع البحث عنه حتى ثبت لي بما يشبه اليقين أن في جسد كل منّا جهازاً يسجّل علينا كل ما نقول وما نفعل، حتى لقد أصبح لدي -بحمد الله- هاجس ملح يشعرني بأن كل ما أقوله وما أفعله مسجل عليّ، فأهمّ أحياناً بيني وبين نفسي بالتلفظ بكلمة، أو بفعل شيء لا أرضى عنه، فأراجع نفسي سريعاً، وأخجل من نفسي، أن يُسَجّلَ عليّ، ثم يعرض على الناس يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد.

إن إثبات ذلك في آيات الله عز وجل يسير، وإن الآيات التي تتحدث عن ذلك كثيرة، سوف أعرضه أو أعرض بعضها الآن دون تعليق، لأن الوقت يضيق عن ذلك، ولأن في فطنة الأخوة ما يغني عن كل تعليق:

- قال تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق: ١٨).
- وقال تعالى: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ (النبأ: ٤٠).
- وقال تعالى: ﴿يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة: ٦-٨)
- وقال تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ (الحاقة: ١٨)
- وقال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ (الإسراء: ١٣-١٤)، وأرجو أن يهتدي العلم القادم إلى تفسير قوله تعالى ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ ولكن العلم الحاضر قد

قرّب إلينا إمكان فهم هذه الآيات الكريمة. إن الإنسان اليوم استطاع أن يضع حاسوباً كبيراً يضع فيه كل ما يتعلق بهذا العالم من معلومات، وأن يزود كل دولة بما تريد. وأن يجعل لكل دولة (ديسكاً) خاصاً، فيه ما يتعلق بها من معلومات.

وإن الإنسان استطاع اليوم أن يسجل عمل الفرد الواحد في أشرطة ڤيديو منذ ولادته إلى أن يموت، وإنّ كل أب يمكن له أن يفعل ذلك لولده إن أراد. ثم جاء (الكمبيوتر) فاختصر حجم الڤيديو إلى لوحات صغيرة قد لا يتجاوز الواحد منها حجم صحن فنجان القهوة. هل أتاكم نبأ (الديسك) الذي حشروا فيه مئات المجلدات، ويحمله المرء في جيبه. وهل أتاكم حديث مكتبة الكونجرس الأمريكي التي يزيد عدد كتبها على عشرة ملايين، أصبح يمكن للمرء أن يحملها في حقيبة يده. فإذا كان الإنسان قد صنع ذلك فعلاً، أفلا يقدر خالق الإنسان جل شأنه أن يجعل في جسد الإنسان جهازاً يسجل عليه أقواله وأفعاله. وأنتم تعلمون أن جسد الإنسان جهازٌ كهربائيّ فيه كل خواص الجهاز الكهربائي الذي ترونه أمامكم، وفي بيوتكم. وإلا فكيف تعمل هذه الأجهزة في جسدك؟.

ليس السؤال هل يوجد هذا (الكتاب) أو هذا (الجهاز المسجل) في جسد الإنسان. بل السؤال الآن أين يوجد هذا الجهاز؟ أفي عنق الإنسان هو؟ ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ أم في صدره هو؟ ﴿والله عليم بذات الصدور﴾. أم هو في جلد الإنسان ﴿حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ (فصلت: ٢٠-٢٢).

كنت مازلت أتساءل عن مكان هذا الجهاز في جسد الإنسان، حتى وقفت أخيراً على حديث نبوي شريف أورده الإمام القرطبي في تفسير سورة (ق). . . في حديث جابر بن عبدالله، قال: سمعت رسول الله يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له، إن الله لا إله غيره، إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه وأثره وأجله، واكتبه شقياً أو سعيداً، ثم يرتفع ذلك الملك، ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك الملكان، ثم جاء ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه، فإذا أدخل حفرته، رد الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحطّ عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضر معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ ومعنى أنشطا كتاباً معقوداً أي حلاّ عقدته.

إن هذا الحديث الشريف يصدق قول الله عز وجل: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ ويصدق قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾. وسواء أكان هذا الكتاب في عنق الإنسان أم في صدره أم في جلده فهو كتاب يحصي على المرء أقواله وأفعاله بكل صدق ويقين.

هذه مادة (كتب) في القرآن الكريم. وفي هذا الإطار ينبغي أن نفهم كل ما ورد من مشتقاتها في القرآن الكريم. وقد حان الوقت -أيها الأخوة- أن نعود إلى القرآن الكريم، ففيه كما أخبرنا رسول الله: نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وهو الكتاب الذي (لا يشبع منه العلماء، ولا يمله

الأتقياء، ولا يخلق على طول الرد، ولا تنتهي عجائبه . . .). ولو أنا تدبرنا آيات القرآن الكريم لرأينا فيه سعادة الدنيا والآخرة. فيه نظام حياتنا المتكامل. القرآن يصنع منهاج الحياة الشامل في إطار من البيان المعجز، يضع الكلمة في الآية الكريمة، فتكون الآية محكمة البناء، مقصودة بلفظها ومعناها في الوقت نفسه. وعلى الرغم من أن مئات الدراسات القرآنية توفرت على استخراج أحكام الإسلام وتشريعاته، إلا أنني أرى أن أمر المسلمين اليوم بحاجة إلى مزيد من الدراسات المتخصصة الواعية في كيفية التعامل مع النظم الاقتصادية السائدة، وكيفية التعامل مع المناهج التربوية المتعددة. إن لنا في كتاب الله عز وجل مندوحة عن الانسياق وراء مناهج الناس وأنظمتهم تلك التي لا يراد لها إلا أن تحطم حياتنا وتفرّق شبابنا وتغرقهم في التيارات الفكرية الفاسدة.

ثم إنه ينبغي للأمة الإسلامية أن تتبع القرآن الكريم في قيادته المسلمين في حياتهم اليوم. إن في القرآن الكريم إجابة عن كل ما يشهد العالم من تطور في المعرفة والعلوم. ولا أقول إن القرآن الكريم كتاب نظريات علمية، فإن هذه مقولة أصبح طرحها من نفل القول، ولكني أقول إن في القرآن الكريم من الحقائق الكونية واليقينيات الإلهية ما يغرينا بالتمسك به والإيمان بأن التزامه فيه الخير كله.

وأتمنى لو أن الوقت يسمح لعرض بعض الحقائق التي يبينها القرآن الكريم بالكلمة الطائرة في بنائه المحكم، انظروا إلى قوله تعالى:

- ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ (ق: ٧) ولولا أن الأرض كروية لما امتدت باستمرار أمام السائر فيها.
- وقوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾.

- وقوله تعالى: ﴿ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾.

- وقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ (ق)، فما الذي بين السماء والأرض، وأنى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعرف في زمنه ما بين السماوات والأرض لولا أن علّمه الله.

- وقال تعالى: ﴿والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع﴾ وفيهما من علوم الفلك وعلوم طبقات الأرض ما يضيق عن الشرح.

- وقال تعالى: ﴿فكسونا العظام لحماً﴾.

- وقال تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾.

ومئات المواضع الأخرى. على أن في القرآن الكريم آيات ما زالت تحتاج إلى بيان، وما زال العلم الإنساني لم يتوصل إلى حقيقة حكمة الله فيها. من ذلك قوله تعالى:

- ﴿والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾ فما هذا الطارق وما هذا النجم الثاقب؟

- ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

- ﴿يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً * فويل يومئذ للمكذبين﴾ (الطور: ٩-١٠).

- ﴿يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة﴾ (النازعات: ٦-٧). فما الراجفة؟ وما الرادفة؟

- ﴿إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت * وإذا البحار سجرت﴾ (التكوير: ١-٦).

- ﴿إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت﴾ (الانفطار: ١-٣)

- ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها* وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها﴾. ترى ما هذه الأخبار التي ستحدث بها الأرض؟ وما بالنا لا نسعى للبحث عنها وتقديم كتاب ربنا إلى الناس ليعلموا أن وعد الله حق.

ما بالنا -أيها الأخوة- تركنا ديننا القويم، وكتاب الله الكريم واتبعنا مناهج البشر، وقوانين الناس، فضلت بنا السبل، إن الإنسان لا يملك أن يشرّع للإنسان، بل يشرّع له خالقه عز وجل وهو العليم به. وعندما شرّع الإنسان للإنسان سقط كل شيء، وعاش المرء المسلم في حياة نكدة شقية، ولو رأيتم إذ الناس في الخمسينات من هذا القرن وقد استهوتهم الأفكار القومية والاشتراكية، فكان بعضهم يموج في بعض، وقد ظن البسطاء منهم أن هذه الأمية سوف تحكم العالم بأسره. وما هو إلا قام أهلها ودعاتها عليها ليتخلصوا من كابوسها الثقيل. لقد مرت بنا الدروس والعظات والعبر في القرن العشرين، لنتعلم أنه لا مفرّ لنا من العودة إلى كتاب ربنا إذا أردنا أن نحيا حياة كريمة، وأن نحيا حياة إسلامية عزيزة. فمتى نعود إلى الصراط المستقيم، إلى كتاب الله العظيم، إلى تلاوة القرآن الكريم؟

قد سألنا ونحن أدرى بنجد ... أطويل طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياقَ ... وكثير من ردّه تعليل



عالمية الخطاب القرآني

أ.د. طه العلواني

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته شاكراً ومقدراً لكم ولجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ولمكتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي في عمان إتاحة هذه الفرصة للقاء هذه الوجوه الكريمة والحديث إليها حديثاً من القلب إن شاء الله.

قيل لي إن لي ساعة واحدة فسأحاول جهدي الالتزام بها لتغطية ما أنيط بي الحديث عنه وتغطيته. آملاً أن يكون الوصول إلى النتائج المتوخاة من هذا اللقاء هو نتيجة التعاون بين المتحدث والسامع بحيث نصل معاً إلى النتائج التي نتوخاها من بحث هذين الموضوعين المطروحين.

الموضوع المطروح -في الحقيقة- موضوع ذو شقّين، يشكل كل منهما موضوعاً خاصاً ومتميزاً.

الأول: كما في إعلان المعهد والجمعية- «المسلمون في أمريكا الشمالية».

والثاني: لم يرد في الإعلان وهو «البعد العالميّ في الخطاب القرآني».

أما الأول: فلم يكن من اختياري، ولا هو من الموضوعات المحببة إليّ.

وأما الثاني: فهو موضوع اهتمامي الخاص منذ فترة طويلة. سأبذل جهدي في هذه الساعة المخصَّصة لي لتناول الموضوعين بإيجاز. سائلاً العلي القدير أن يلهم ويسدد ويرشد إنه سميع مجيب.

١ - أنبأنا الباري تبارك وتعالى أنّه ما خلق شيئاً في هذه الأرض باطلاً أو عبثاً، وأن كل شيء فيها مخلوق بقدر. ليس في الكون شيء يمكن أن يقال: إنه حدث بطريق المصادفة، أو عن غير حكمة أو دور يؤديه؛ فالقول بالمصادفات مظهر من مظاهر الفكر الإحيائي البدائي المتخلف العائد إلى مرحلة النشأة الإنسانية.

لكن الإسلام قد أخرج الناس من ظلمات تلك المرحلة، ونقلهم من فكر المصادفات إلى فكر يعتمد التعليل المنهجي المنطقي الذي يؤدي إلى اكتشاف العلاقات بين الظواهر والأشياء، ويوجد حالة عقلية تستطيع الكشف عن سنن الله -تعالى- في الكون والحياة والإنسان، وإدراك حسن تقديره جلَّ شأنه في كل شيء، وينتج عن ذلك النشاط العقلي علوم ومعارف تنظم العقل الإنسانيّ، وترشّد مسيرته وتجعله قادراً على تجاوز الدلالات الجزئية للأشياء والظواهر والحياة، إلى ربطها ببعضها لاكتشاف شبكة العلاقات والمحتوى الغائيّ لها: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلاّ بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الدخان: ٣٨).

وفي هذا الإطار نود أن نتأمل في أمرين قد لايرى الإنسان ارتباطاً بينهما، لكنه بشيء من التأمل أو مزيد منه سرعان ما يكتشف الارتباط!!

في عام ١٤٩٢م انتهى الوجود الإسلامي السياسي والاجتماعي في الأندلس، واستتب الأمر في حواضرها وريفها (لفرديناند وايزابيلاّ)، وخرج آخر حاكم مسلم منها مشيَّعاً بسخريّة مرّة، حتى من والدته:

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وفي الوقت نفسه يُعدُّ (كولومبس) العدة لرحلته الاستكشافية لجزر الهندالصينيّة، التي انتهتَ باكتشاف أمريكا بمساعدة ومباركة من فرديناند وايزابيلا خادمي الصليب.

وكأنَّ الصليب قد حقق انتصارين عظيمين في وقت واحد: أنهى الوجود الإسلامي من الأندلس، وقضى على سائر مقوماته، وفتح قارة جديدة بكراً، ليجعل منها قاعدة كبرى له منذ ذلك التاريخ، بدأت تُعْلِي راية الصليب وتنشر ألويته، وها هي تتصدر قيادة العالم في ذلك. وحيَن بدأت في أوروبا اضطهادات رجال الدين والمتدينين في دائرة الاختلافات التي أبرزتها أفكار عصر التنوير واللوثرية، وجد هؤلاء المتدينون في العالم الجديد -أمريكا- ملاذاً ومثابة يهجرون أوروبا إليها، ليحافظوا على دينهم وقيمهم النصرانية. وقبل الاسترسال في الحديث عن ذلك، أود أن أشغل أذهان السامعين معي ببعض التساؤلات أو الأسئلة، منها على سبيل المثال:

ما الحكمة وراء هذا التزامن بين انهيار الوجود الإسلامي في الأندلس، واكتشاف أمريكا؟

هل كان في مقدور العرب المسلمين في الأندلس أو غيرها السبق إلى هذا الاكتشاف؟

وسواء أجبنا عنه بالإيجاب أو السلب فلماذا؟ لمَ لم يستطع المسلمون بعد انهيار كيانهم في الأندلس العودة إليها؟ أو استَعادة شيء من نفوذهم وقوتهم فيها؟

لمَ انتهت وانقطعت آمال العرب والمسلمين فيها بالرغم من أنّ كل شيءَ فيها يذكرهم بأنّها كانت جزءاً من ديارهم؟

ما أهم أسباب انتهاء وجودهم فيها؟ هل هناك أيّ شبه أو ربط بين ما يحدث في البوسنة والهرسك اليوم، وبين ما حدث في الأندلس قبل خمسة قرون وما وجه الشبه؟ علماً بأن أعداداً من المسلمين واليهود الذين هربوا من محاكم التفتيش حطّوا رحالهم في البوسنة؟

نعود إلى المسلمين في أمريكا. يكاد الباحثون يتفقون على أن الوجود الإسلامي في أمريكا حديث العهد، فهو وجود يرجع إلى منتصف القرن الماضي ويمتد عبر هذا القرن، وإن كان بعض الباحثين يرى أنّه أقدم من ذلك بكثير، وأنّه يرجع إلى فترة استقدام الأفارقة المسلمين قسراً إلى الولايات المتحدة من قبل البيض، فهؤلاء الأفارقة كانوا مسلمين سواء أولئك الذين خُطفوا وأخذوا وزُرعوا في أمريكا الشمالية، أو الذين زرعوا في أمريكا الجنوبية. لكن هؤلاء الذين تكاد تتفق المصادر التاريخية على أنهم كانوا أكثر تحضراً وثقافة، من أولئك الذين استخدموهم وجعلوا من أنفسهم أسياداً لهم، قد جرى تنصيرهم وتدمير خصوصياتهم الثقافية، فلم يعد من الممكن اعتبار وجودهم تعبيراً عن وجود إسلامي، فهم اليوم الأمريكان الأفريقيون Afroamericans والذين يعودون إلى الإسلام منهم يعدُّون مسلمين جدداً.

ولذلك فقد تعارف الباحثون على أن الوجود الإسلامي في أمريكا قد بدأ في إطار هجرات ثلاثة من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، ذابت الأولى منها وامتصَّت ولم يعد لها بالإسلام صلة، وتدارك الله - تعالى- برحمته جزءاً من أبناء الهجرة الثانية، ولفيفاً من أبناء الهجرة الثالثة.

ولا يكاد الأمر يختلف كثيراً على المستوى العربي عنه على المستوى الإسلامي بالنسبة للهجرات المشار إليها، والارتباط شديد جداً بين هذه الهجرات والحروب والفتن والأحداث التي بدأ العالم الإسلامي والعربيّ يتعرض لها.

أما الوجود الإسلامي في أمريكا -الآن- فقد تجاوز مرحلة «الهجرة»، إلى مرحلة الانتماء إلى الأرض، وبدأ يقيم مؤسساته المختلفة من مساجد ومراكز إسلامية وثقافية ومدارس ومؤسسات لخدمة المجتمع المسلم، وتسعى جل هذه المؤسسات لجعل الوجود حقيقة واقعة وراسخة، ومقيمة في تلك الديار وليست طارئة.

نعود -الآن- إلى الربط بين الموضوع الأول «المسلمون في أمريكا»، والموضوع الثاني «عالميَّة الخطاب القرآنيّ» وهل يمثّل الوجود الإسلاميّ في أمريكا وأوروبا مقدَّمة من مقدّمات العالميّة الإسلاميّة، أو بعض إرهاصاتها أو لا نستطيع أن نعده كذلك؟ لكي نصل إلى الإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من معرفة معنى «العالميَّة».

العالمية هي نسبة إلى العالم على غير قياس. وتشمل الإنس والجن. و«العالميَّة» خاصية شديدة الأهمية وإدراكها وفهمها في هذه المرحلة من تاريخ البشرية بالغ الخطر، كبير الأثر. لقد نزل القرآن بلغة العرب وعلى رسول منهم وفي البلدة المحرمة بدأ نزوله، وفي الحرم الثاني -المدينة- اكتمل نزوله وبه كمل الدين، وقد خرج العرب بهذا القرآن إلى حوض الحضارات القديمة، ولم يكن خروجهم ذاتياً من عند أنفسهم، وما كان الخروج من طبيعتهم، لكن الله -تعالى- أخرجهم في إطار دفع إلهي، لا في إطار استعلاء قوميّ ذاتي، وعلاقتهم بالقرآن والرسالة التي اشتمل عليها علاقة تكليف وتبنٍ وإيمان لا علاقة إنشاء وتوليد من ذواتهم.

وقد خرج حَمَلَةُ رسالة الإسلام الأولون ليحققوا مهمتين: الدعوة إلى الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾ (آل عمران: ١١). فهي دعوة لتحقيق غايات إنسانية مشتركة بين البشر جميعاً تتلخص بـ «إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» وكل هذه الأمور يعود نفعها على الناس الذين يوجّه إليهم الخطاب جميعاً؛ وبذلك الخطاب المتجرّد عن أية مكاسب قومية أو ذاتية، المتجه لصالح الآخرين تحققت قابلية استيعاب الآخرين وحضاراتهم وأنساقهم الثقافية، وتحويلهم إلى شركاء متساوين في تبنّي الرسالة، وحمل أعباء توصيلها إلى الآخرين. ولم تكد تمضي على بدء الدعوة وتبليغ الرسالة سنوات قليلة حتى غمر الإسلام بنوره النصف الجنوبي من العالم المعروف آنذاك؛ أي من جنوب الصين شرقاً إلى جنوب أوروبا غرباً. وقد استطاع استيعاب الشعوب الوثنيَّة من مغول وفرس وأتراك وبربر وسواهم في حركة فتح واسعة، جرت في إطار العالم القائم آنذاك ونظامه وطبيعة علاقاته. أما الشعوب الكتابيّة فقد دخل من دخل منها في عقود ذمة المسلمين، حفظت لهم شخصياتهم القومية وخصائصهم الدينية والثقافية واستوعبتهم، وانهارت الدولة الرومية في الشام وكذلك الفارسية، ليصبح حوض الحضارات القديمة -كله- مستنيراً بنور الإسلام، ولتصبح دولة المسلمين «الدولة العالمية الأولى». لقد استطاع المسلمون أن يتجاوزوا ثنائية الشرق والغرب، كما استطاعوا استيعاب التعدديات الدينية والثقافية والحضارية كلها في إطار «عالمية الخطاب القرآني»؛ وإذا كان أقصى ما وصلت إليه الحضارة المعاصرة هو إقرار التعدد، فإن عالمية الخطاب القرآني عملت وتعمل على استيعاب التعدد

بعد الإقرار به، ودفعه باتجاه «العالمية» ليتحول إلى عامل دفع في إطار تنوع بشريّ إيجابيّ تهيمن عليه أنوار الهدى ودين الحق التي لا تسمح ببروز أية أسباب أو عوامل للانقسام الديني والطائفي. فالإسلام قد جعل من نفسه محور جذب لا محور تنابذ وطرد كالمركزية الغربية المعاصرة، وجعل من الأمة المخرجة قطب تأليف واستيعاب.

إن الآيات الثلاث التي ورد فيها الوعد الإلهي بظهور الهدى ودين الحق على الدين كله تذكر بأهم الخصائص المساعدة على الظهور، وهي تحري الهدى، والسعي وراء الحق. فالدين مضاف إلى الحق والحق مضاف إليه. ولم تستخدم كلمة الإسلام في هذه الآيات، لئلا يتوهم البعض أن المراد به إطاره البشري القائم، الذي يشمله في إطار امتداده الأول وعمقه الجغرافي الذي وصل إليه من خلال الفتح وعمليات الانتشار الأولى، فيؤدي إلى لَبْس أو توهم بأن عالمية الإسلام المنتظرة ستتخذ الأبعاد والوسائل نفسها، وكما هو الحال في نبوءات أنبياء أهل الكتاب، حين يتوهمون حدوثها كخوارق تقع بشكل غيبي وبدون أسباب، أو بذات الأسباب التي وجدت في عصور أولئك الأنبياء والرسل. لا! ما الأمر كذلك؛ فإن الصيرورة التاريخية محكومة بسنن الله والقوانين التي أحكم الله -تعالى- إيجادها.

لقد بلغت البشرية مستوى متقدماً جداً في العلوم والمعارف والمناهج العلمية، وتجاوزت في عمرها المديد العقل الأحيائي الجزئي إلى العقل الطبيعي، ثم تجاوزت المرحلتين معاً لتدخل مرحلة «العقل العلمي»، وها هي قد بدأت تتشكك في بعض معطيات العقل العلمي وتنتقدها، كما بدأت تدرك أن العقل العلمي، وإن استطاع أن يقودها إلى "التفكيك" من خلال «التحليل»، فإنه قد عجز عن تمكينها من "التركيب"، وصارت تدرك خطورة المرحلة التي بلغتها بقيادة العقل العلمي، وتشعر

أنها إن استمرت في طريقها هذا فإنها سائرة إلى العدم والعبث والهاوية أو نهاية التاريخ. والتوتر والقلق الذي يسود أوساط العلماء في الغرب خاصة كبير جداً، ولا شك أن «الإسلام هو الحل» ونعني بهذا أن المسلمين يستطيعون أن يقدموا القرآن العظيم «بديلاً حضارياً على مستوى العالم» يحمل منهجيَّة معرفية كونية، وشريعة تخفيف ورحمة بخطاب عالميّ.

عقبات -في طريق العالميّة- على المستوى الإسلامي:

يرسخ الواقع التاريخي في أذهان الناس الوسائل التي اتبعت في عمليات الانتشار الإسلامي الأولى وهي الفتح، واستقر في الأذهان أن على الأمة المسلمة أن تقيم دولة كدولة المدينة لتتولى هذه الدولة مهام دولة المدينة في العالم المعاصر. كما استقر في الأذهان أن المسلمين في حاجة إلى التعبئة الدائمة المستمرة لتحقيق هذا الحلم -بناء دولة التمكين والمنطلق. وقد بقي الخطاب الإسلامي المعاصر حبيس هذه الأمنية محاطاً بتأثيرات التصورات المختلفة لما يعد من عوامل أو أسباب أو وسائل تحقيقها، وبقيت العقول المسلمة والأنظار معلقة بالواقع التاريخي فقط (غير ملتفتة إلى الواقع المعاصر أو المستقبل) باحثة عن وسائل تحقيق ما عدته أم الأماني «بناء الدولة والوصول إلى الحكم». فلم يزدها ذلك إلا بعداً عن تحقيق أهدافها في استئناف حياة إسلامية. وقد زادت تعقيدات العلاقات مع الغرب الطين بلة؛ وخاصة بعد تحطيم دولة آل عثمان وتمزيق كيان المسلمين إلى أشلاء وفقاً لتخطيطات «سايكس وبيكو»، ذلك التمزيق الذي أدى إلى أن يستنفر كل قطر طاقاته -كلها- ومنها طاقاته الإيمانية ورصيده الديني لمواجهة غزاته ومستعمريه، وطرد أعدائه ومستذليه من أرضه ودياره فعزَّز ذلك من مكانه الموروث بشكل عام، ومن حالة الرفض للوارد من طرف الصراع أياً كان ذلك الوارد،

فتكرست سائر المعطيات الفكرية في الواقع التاريخي الإسلامي في العقل المسلم المعاصر، وبقيت الأجيال المسلمة تجترها وتسترجعها على الدوام، واعتبرت معطيات ذلك الواقع التاريخي على اختلافها وسائل حفظ وحماية لكيان الأمة المعاصرة لا بد من حمايته والدفاع عنه، والتشبث به كله -خيره وشره، جيده ورديئه، طيبه وخبيثه دون مراجعة أو نقد أو تمحيص.

كما أن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وتصرفاته يغلب عليها أن تكون ردود أفعال تجاه من سيطر عليه وغلبه، خاصة إذا كان المغلوب يعيش حالة أزمة فكرية مستعصية وتوقف عقلي.

وهذا قد جعلت عملية «تقديم البديل الحضاري القرآن المعاصر» في غاية التعقيد والصعوبة.

عقبات -في طريق العالميّة- على مستوى الغرب:

إن الخصائص الفكرية للعالميّة الغربية أو المركزية الغربية الراهنة: أنها عالمية وضعية تتزرع بالمنهجية العلمية، وقد فجرت في الإنسان قدراته النقدية والتحليلية، وكرست فيه نزعة النفور من كل ما يؤثر في حرية الاختيار لديه. ولقد انداحت هذه العالميّة لتفرض نفسها وقيمها وخصائصها على الناس جميعاً، ولتضع المعمورة كلها في دائرة تأثيرها، بما في ذلك المسلمين وديارهم، كما دعمت فكرة الحذر والشك في كل ما هو ديني خوفاً من الوقوع مرة أخرى في دائرة التأثير اللاهوتي الديني الكنسي، فكيف يمكن تقديم الإسلام مصدراً للبديل الحضاري؟!.

نود أن نقولها صريحة وبملء الفم؛ إن «خطاب القرآن العالمي» لا يمكن أن يحمل على عاتقه أفهام المسلمين التراثية في كثير من القضايا؛

ولذلك فلا مناص من الإبداع والتجديد والاجتهاد، فإن الإسلام لو قدم بذات الشكل الذي يقدمه المسلمون اليوم به ويفهمونه بمقتضاه -اليوم- ومنهم الحركات الدينية، فإن نصيبه من العالم الرفض والمحاصرة والاضطهاد. ولا شك، أن المسلمين يقدمون الإسلام كعنوان على البقعة الجغرافية التي يعيش المسلمون بها -اليوم- والتي بلغها الإسلام في مرحلة انتشاره الأولى. كما أنهم يعدونه ديناً للعناصر البشرية التي تنتمي إليه وتدعي تمثيله، ولمجمل الواقع التاريخي الذي ينتسب إليه، ولمعطيات تراث المسلمين في عصر التدوين للتراث الإسلامي وما تلاه. وبذلك يأخذ الإسلام أبعاداً جغرافية وإطاراً قومياً، وما كان له أن يكون كذلك، لأنه إذا أعطي هذه الأبعاد، فإنه سينظر إليه على أنّه قسيم في الصورة المشوهة ليهودية ونصرانيّة استطاع أهلوهما المعاصرون تنقيتهما من سلبيّاتهما، وتحويلهما إلى مجرد أديان وظيفيّة، تقدم للإنسان خدمات هو بحاجة إليها، فتشبع أشواقه الروحيّة، وقد تعالج بعض أمراضه النفسية.

إنّ الإسلام يقدم اليوم بشكل لا يتناسب وعظمته وقدراته، وذلك من خلال التراث الإسلامي والفقه الموروث، الذي مثّل محاولة فقهائنا العظام في معالجة مشكلات مجتمعاتهم الزراعية البسيطة، أو الرعوية، أو ذات التجارة الفرديّة المعتمدة على التبادل البسيط النافع في تلك المجتمعات، وحين يراد لهذا التراث وهذا الفقه أن يستجيب لحاجات معقدة لمجتمعاتنا المعاصرة واقتصاديّاتها، فإننا نكلفه ما لا يطيق، وقد نوقف حركة نمو هذه المجتمعات، وهذا سوف ينعكس على الإسلام وعالميتّه انعكاساً سلبياً؛ فلا ينفي عنه عالميته فحسب، بل يظهره بأنه دين لا يصلح إلا لمجتمعات قروية رعوية بسيطة. وهنا يكمن الخطر: فالإسلام دين عالميّ منذ انطلاقته الأولى للناس عند نزول (إقرأ) على

خاتم النبيّين -صلى الله عليه وسلم- وبدأ تأسيسه لمجتمع الدعوة الإسلامية العالمية، الذي شمل ما بين المحيطين الأطلسي غرباً والهادي شرقاً في الوسط من العالم، وكان يربط بين القارات الثلاث: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، فدمجت تلك العالمية الإسلامية في مرحلة انتشارها الأولى بين الحضارات والثقافات والأعراق في إطار إنسانيّ واحد، فألغت لذلك (ثنائية) الشرق والغرب، وامتدت أنوار الإسلام إلى أوروبا، كما غمرت أنواره آسيا وإفريقيا، واتخذ الإسلام وضعه ختاماً لكل النبوات ورسالة مهيمنة على الرسالات، استوعبت الجميع بمضمونها الإلهي منطلقة من رسالة دينيّة منفتحة على الجميع ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦). والعالميّة الإسلاميّة -هذه- مثلت ولا تزال تمثّل قوّة تفاعل عضويّ يوحد البشرية، ويرفع الحواجز بينهما.

لماذا العالمية الإسلامية؟

تبرز الحاجة إلى المناداة بالعالمية في إطارها الوضعي البشري، أشد ما تبرز، عندما تتفاقم الأزمات الإنسانية وتعجز الأنساق الثقافية والحضاريّة والقوميّة والإقليميّة عن معالجة تلك الأزمات الإنسانية، بل تبدأ بالتراجع والتلاشي والاضمحلال أمامها. فيأتي نداء العالميّة ليكون محاولة للخروج من المآزق والأزمات العالمية. وكأن البشرية تحاول أن تستجمع كامل طاقاتها وقدراتها للخروج من مأزق أو مآزق أدركت عمقها وتعقيداتها، وعجز الحلول المنفردة عن مواجهتها. ولكن الفرق كبير جداً -كما سيتضح- بين عالميّة وضعيّة، ينفرد العقل البشري بنسبيّته ومحدوديته بقيادتها، وعالمية يوجه دفتها العليم الخبير فيحكم بداياتها، ويحسن عاقبتها.

نماذج من العالميات

لقد شهد العالم قبل الإسلام بروز بعض العالميات الوضعيّة، ونحن نحاول أن نعرف بها بإيجاز. كما شهد بعد الغياب الحضاري للإسلام العالمية المعاصرة التي أطلق عليها «النظام العالمي الجديد». وبين تلك العالميّات الوضعيّة القديمة وهذه العالميّة الوضعيّة الحديثة نسب عريق، فهل استطاعت تلك العالميّات قبل الإسلام إخراج العالم من أزمته؟ وهل يستطيع «النظام العالمي الجديد» أن يحقق شيئاً من ذلك؟! لعل النظر في السياق التاريخي يساعد على توضيح الأمر.

إن كلاً من الحضارات الآسيوية السابقة، والإفريقية كذلك، لم تشكل (بعداً عالمياً) يقابل في عالميّته عالميّة الإسلام: فالغرب الأوروبيّ هو الوحيد الذي شكل (عالميّتين) مقابلتين تاريخياً للعالمية الإسلامية في دائرة انتشارها الأولى وها هو يتحدّى ويعمل على إعاقة انبثاق العالميّة الإسلامية المرتقبة، وذلك بالشكل التاريخي التالي:

أ) إن الغرب المعاصر يعد نفسه وارث العالميّة الهيلينيّة التي استوعبت حضارات الشرق التقليديّة الإقليميّة كافة وشمال المتوسط، فتلك أولى العالميّات بحكم الاتساع والاستتباع والاستقطاب منذ غزوات الاسكندر المقدونيّ (٣٥٦-٣٢٣ قبل الميلاد).

ب) وكذلك العالمية الرومانية التي خلفت العالميّة الهلينيّة منذ توسعها في البحر الأبيض المتوسط (عام ٢٠١ قبل الميلاد) ثم سيطرتها على الشرق الأوسط.

وقد تميزت الحضارتان الهيلينيّة والرومانية بالنهج الوضعيّ؛ إذ أن تراثهما الدينيّ وثني غير سماوي، يستمد من قوة آلهة الأولمب (بالنسبة لأثينا)، ومن قوة القياصرة المؤلهين (في روما)، وذلك قبل اعتناق روما

للاهوت المسيحي الذي وصل إليها محرفاً في شكل الإله المجسّد، أي بوصفه إلها يستمد خصائصه من مواصفات آلهة الأولمب مثقلة بالموروث الهيلينيّ والروماني، ولم يعد لها ثمة علاقة بالأصل (التوحيدي) الذي جاء به عيسى -عليه السلام- في الأرض المقدسة التي بارك الله حولها.

ولقد تكونت الحضارتان الهيلينيّة والرومانية ضمن نسق حضاري له نظرته الخاصة للإنسان، وهي نظرة تسمح باستعباد الإنسان بوصفه طاقة للعمل، وتسخيره بدون أجر، وتحويله إلى قوة مسخرّة في نظر أثينا وروما. وأفضل العبيد في نظرهما مصارع في ساحات القتال. وورثة هاتين الحضارتين الغربيون المعاصرون لم تختلف نظرتهم للإنسان كثيراً، حيث سخّروه في المناجم والصناعات المختلفة، كما سخره أسلافهم في بناء الهياكل . . . وهذا النسق الحضاريّ بشقيه الوارث والمورّث بُنِيَ على هذه النظرة للإنسان المؤدية للصراع والتضاد والتنابذ لا محالة.

وفي مقابل ذلك كله تأتي عالميّة الإسلام لمواجهة العالميتين الوضعيتين؛ قديماً الإغريقيّة والرومانيّة، وحديثاً الغربية المعاصرة. تأتي وهي تحمل في ثناياها القدرة -عند التحديد- على تقدم البديل للناسخ لكل من تلك العالميّتين وعلى النحو التالي:

أولاً: في مقابل العالميّة القهريّة الهيلينيّة والرومانيّة جاء الإسلام محرراً للشعوب. إذ لم يسجل لنا التاريخ، حتى التاريخ الوضعيّ منه واقعة واحدة قاتل فيها المسلمون شعوب المناطق التي فتحوها. فقد كان القتال -كله- موجهاً ضد جيوش الروم وجيوش أباطرة الفرس، وقد ساندت الشعوب الفاتح المسلم ضد سادتها، فهو أول فاتح في التاريخ يأتي مَنْ حَوْلَه من الشعوب لا فاتحاً، بل محرراً ملتزماً بكتاب سماويّ يقيّده بقيود أخلاقية كثيرة، تمنعه من أن يعلو

في الأرض أو يفسد فيها. بذلك أسس الإسلام أول عالميّة (مقابلة) للعالمية القهرية الوضعية.

ثانياً: تميزت الحضارة الإسلامية ضمن مراكزها العربية (المدينة المنورة، دمشق، بغداد، القاهرة وغيرها) بعقيدة توحيد كان من شأنها ألاّ تستعلي بدينها (الجديد) الذي لم يكن خاصاً، لأنّه يمكن أن يكون دين الجميع، على أديان آلهة الشعوب الأخرى. فقد انطلقت الحضارة الإسلامية من محاربة الشرك ونشر التوحيد ومد الجسور مع تراث النبوءات التوحيدية. بقطع النظر عمّا أصابه من الانحراف. فبقيت اليهودية والنصرانية وقبلتهما، وأضيفت إليهما المجوسيّة، وكذلك الصابئة، ضمن ديانات متعايشة في إطار الكيان الإسلامي الجامع وبحمايته. فكان الكيان الإسلامي أول كيان يتآلف فيه جميع الذين يصدرون عن الأديان الإبراهيميّة وغيرهم، ولا يُكره أحد فيه على تغيير دينه ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ثالثاً: تميز النسق الحضاري الإسلامي بعدم استعباد شعوب المناطق المفتوحة، فلا المدينة المنورة بناها عبيد يستقدمون من المستعمرات ويسخرون لبناء الهياكل، ولم تبن دمشق أو بغداد أو القاهرة بهذا الشكل، والزكاة كانت توزّع في مناطق جبايتها، وللمؤلفة قلوبهم من غير المسلمين حظ فيها. في حين بنى العبيد المسخرون صروح أثينا وروما. فالنسق الحضاري الإسلامي في إنسانيته- هو نقيض النسق الهيلينيّ والرومانيّ.

هذه معالم وضعية ثلاثة تقابل معالم إسلاميّة ثلاثة: إسلام توحيديٌّ قائم على استرجاع تراث الأنبياء كلهم، وتحريره من كل ما أضيف إليه

ودمجه بعالميّته يخلف عالمية وضعيّة سابقة، ثم لا يكون مثلها في توجهه العالمي، إذ يطرح التوحيد في مقابل الوضعية ويطرح النسق الحضاري الإسلامي مقابل النسق القهريّ الاستعباديّ، ويربط العباد بخالقهم ولا يسخرهم للملك أو السلطان.

إذن فقد نُسخت العالميّة الوضعيّة المتمثلة بالحضارة الرومانيّة الهيلينيّة بعالميّة إسلاميّة أولى تختلف عنها، ويمكن لعلماء التاريخ والتصور والتاريخ الحضاري دراسة نمو الأفكار وتشكلها وانتشارها وإعداد دراسات تفصيلية لكل ذلك الذي أشرنا إليه.

إن الحضارة الأوروبية المركزيّة سواء تفرّعت شرقاً أوغرباً -بدأت بإرساء دعائم عالميتها الثالثة منذ بداية سقوط عالميتنا الأولى سواء في بغداد أثر الاجتياح المغولي، أو في الأندلس إثر الاجتياح الأوروبي، ثم ما تلا ذلك من امتداد لما سبقه من حروب لم نسمّها نحن صليبية، فهم الذين سموها بذلك؛ أما نحن فقد سميناها «بحروب الفرنجة أو الافرنج» وتلك كتب تراثنا وتاريخنا شاهدة على ما نقول، فلم يعودنا إسلامنا شن حروب بين هلال وصليب، ولا بين شرق وغرب، فطبيعة الإسلام تأبى ذلك وترفضه. وبعد أن تمكّنت عالميّتهم الأوروبية «الثالثة» كان غزوهم لأراضينا، بداية من نهاية القرن التاسع عشر، ثم كان زرعهم لإسرائيل في قلب الوطن العربي من عالم الوسط الإسلاميّ في منتصف القرن العشرين.

وهكذا فرضوا هيمنتهم وعالميّتهم أو مركزيتهم الجديدة على أرض الإسلام كلها، ما بين المحيطين الأطلسي غرباً والهادي شرقاً، وانتشروا إلى ما وراء ذلك، ثم سادوا العالم بأكمله، فأصبحت الحضارة الغربيّة الأوروبية ذات الجذور الرومانية من بعد الهيلينيّة عالميّة العالم الجديدة

تكاد تستوعب في تفاصيله الحياتية والعقائدية وتفرض عليه نماذجها في كل شيء. إنها تريده عالماً على صورتها في كل شيء، فما هي صورتها هذه التي تعود إليها -اليوم- في شكل نظام عالمي جديد؟ وهذه -أيضاً- تسميتهم المعبّرة عن نظرتهم المركزية الشموليّة.

نعود مرة أخرى إلى المتقابلات الثلاث التي كانت لدى الهيلينّة والرومانيّة. إن الصورة الثلاثية نفسها تتكرر من جديد ضمن عالميّة (شاملة) هذه المرة، وهي كما كانت من قبل:

أ) مركزيّة جعلت نفسها شاملة وعالميّة ولم تعد أوروبيّة أو أمريكية فحسب.

ب) مركزيّة وضعيّة لم تعد القيم الدينية من مبررات عالميتها الحضاريّة حتى اللاهوت المسيحي طلقت قيمه الدينيّة الأخلاقية إلى غير رجعة.

جـ) نسقها الحضاري كما هو يستند إلى الصراع والاستحواذ بالقوة القاهرة، فماذ علينا أن نفعل في مقابل ذلك؟ لا لإنقاذ أنفسنا فحسب، بل لإنقاذ أوروبا وأمريكا والعالم كله، وتحويل العالم إلى بيت كبير يستقر الإنسان فيه مستمتعاً بالسلم والأمن سالكاً سبيل الهدى والحق.

منطلق الدخول في السلم كافة:

لا نريد تكريس أفكار وثنائيات «الشرق والغرب» فذلك ينافي عالميّتنا، ولسنا في معرض التحيّز ضد أوروبا والغرب، ولسنا في إطار تكريس الصراعات الحضاريّة، فعالميتنا الإسلامية (وخروجنا) من قبل

بالرسالة إلى الناس كافة، ودمجنا بين الحضارات والثقافات والأعراق ونبوة خاتم النبيين الوارثة لكافة النبوات والدين الإسلامي الوارث لكافة الرسالات، وإلغائنا بتوجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لثنائيات الحضارات البشرية المتصارعة، والتزامنا بعقيدة التوحيد و (التعارف) بين الناس، وإيماننا بوجوب دخول البشريّة في (السلم كافة)، كل هذا لا يجعلنا ننطلق من منطلق التحيّز، بل نعذر الغير إن تحيّز ضدنا -فللغير- من موروثه التاريخي ونسقه الحضاري ولاهوته الديني -ما قد يدفعه لذلك. أما نحن فما كنّا متحيّزين من قبل، وما ينبغي لنا أن نكون.

إن الله -سبحانه وتعالى- وهو رب المسلمين كما هو رب الأوروبيين والأمريكيين ورب الناس كافة- قد وعد وأعد لعالميّة إسلامية أخرى تقابل في شمولها واتساعها مركزية الغرب الشاملة، والمهيمنة -اليوم- على العالم. فكما كانت عالميتنا في انطلاقتها الأولى بديلاً ومقابلاً للهيلينية والرومانيّة ستكون عالميتنا المرتقبة بديلاً عن المركزية الغربية الشاملة، وذلك حين نعرف كيف نستخدم مداخل منهجيتنا بشكل مناسب، فيظهر الهدى ودين الحق على الدين كله، وتسود القيم المشتركة من العدل والأمانة والتحرر.

ليست عالميتنا عالميّة تعصب ديني أو مذهبي أو جغرافي أو عرقي، ولا هي وليدة دعوة تنطلق من الخصوصيّة الجغرافيّة البشريّة لمضاهاة العالميّة الغربية. إنّها عالميّة (الرحمة) لنا وللغربيين على حد سواء وللعالم كله. ولتفصيل ذلك يمكن أن نضع المعالم التالية:

أولاً: إنها عالميّة إسلاميّة أعدها العليم الخبير للعالم كله؛ لأن العالم يحتاج إليها للخروج من أزماته السياسية والاقتصادية والفكرية والبيئية التي يتردى فيها نتيجة نسقه الاجتماعي والأخلاقي، ولم

تكن أزمة الحضارة الغربيّة المركزية بأقل من أزمة الأمة الإسلاميّة، والله -سبحانه وتعالى- أعد رسالته الشاملة ليخاطب البشرية جمعاء بها، وينقذها من هذا التردي والمصير الهالك الذي ينتظرها.

ثانياً: إن الخطاب العالميّ الذي علينا أن نخاطب به العالم وأن نوجهه للحضارة المعاصرة بتفرعاتها الغربية وغيرها، حين نوجهه إلى الحضارة الغربية الأوروبية الأمريكية، فإننا نفعل ذلك؛ لأن هذه الحضارة هي الحضارة المهيمنة على السلوكيات البشرية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، ـ بحكم مركزها العالمي وتقدمها التقني وعلومها السائدة، وهذه العالمية الإسلامية هي القادرة -في نظرنا- على القضاء على القلق الغربي وإنقاذ الغربيّين منه، والأمة المسلمة لن تستطيع أن تجد خلاصها إلاّ في حمل هذه العالمية وتبنيها، فعلى المسلم أن يستحضر هذا البعد في سائر أحواله ليكون قادراً على توجيه الخطاب الإسلامي المناسب.

ثالثاً: إنها عالميّة إسلامية منتظرة وحتمية الوقوع، وحين نبدأ العمل لها من الآن فإننا نفعل ذلك (التزاماً) بالمسؤولية الخلافيّة ومسؤوليّة الشهادة على الناس، وليس (تفضلاً) منّا على الآخرين. وفي التزامنا بمسؤولياتنا أمام الله -سبحانه وتعالى- تكمن حريتنا وخصوصاً نحن المسلمين، وتخلصنا بذات الوقت من أزمتنا. فما نفعله لغيرنا سوف ينعكس علينا، فقد قضى الله -سبحانه وتعالى- أن نكون حملة رسالته والشهداء على الناس - فما نفعله للغير نحصده في واقعنا، فإذا لم نبلغ رسالته ونوصّل إلى الناس هداه بقي حالنا على ما هو عليه. وهذه علاقة أخذ وعطاء بين المولى الكريم وبيننا نحن المسلمين. فلا ينبغي أن نستعلي بها على أحد، أو نمن على أحد حين نقدّم للناس عطاء الله -سبحانه وتعالى- ولكن المنة

علينا لله وحده. ولا نستحوذ على غيرنا بعطائنا فالقرآن كتابه، وخاتم النبيين رسوله. وعلينا أن نعمل لتقبل كلمات الله منا، ولنا شهادة تاريخية من نسقنا الحضاري، حيث لم نستعبد أحداً ليبني الهياكل في المدينة المنورة، ولم نكره أحداً على ديننا، ولم نأت بغير رسالة التوحيد، ولم نوجد في الأرض تنابذاً ونفياً وصراعاً؛ بل استوعبنا سائر الأنساق الحضارية والثقافية، وبشكل لم يسبق له مثيل من قبل، ولم يأت بعده ما يشبهه. وإذا وقعت في تاريخنا بعض الأخطاء في بعض الفترات «فقل إنما أنا بشر مثلكم».

إن الحضارة الأوروبية الغربية العالميّة صارت شاملة واستحكمت بعالميتها من اليابان وعبر الجمهوريات التي كانت سوفياتية مروراً بأوروبا الغربية وامتداداً بثقافتها إلى كل من أمريكا الشمالية ثم أمريكا الجنوبية؟

ومهمتنا نحن المسلمين، رغم سوء أحوالنا وظروفنا، أن ندخل الناس في مرحلة الهدى ودين الحق. فأوروبا وأمريكا -ونعني بها حضارتهما المركزية الشاملة عالمياً- تدرك في نفسها ومن نفسها وعبر فلاسفتها أنها لن تستطيع إخراج نفسها ولا العالم من المأزق الذي يتجه إليه، لأنها تعاني المسائل الجوهرية التالية:

أولاً: إن الحضارة الغربية تتلمس المزيد من التقدم التكنولوجي الذي أعقب ثورتيهما الصناعيتين الأولى والثانية، وتعاني في المقابل تدهوراً اجتماعياً وحضارياً وقيمياً، فالرقيّ التكنولوجيّ يقابله انهيار إنسانيّ. ولم تستطع الحضارة الغربية -حتى الآن- حل هذا الذي يبدو لها وكأنه لغز حضاري. فالتقدم الحضاري المستوي على كل المجالات يجب أن يكون أفقياً ومتصاعداً وبذات الوقت يفترض أن يتطور الإنسان، بموجبه قيمياً وأخلاقياً. كما تتطور تكنولوجيّته

بقدر حاجته إلى ذلك التطور، غير أن الذي يحدث في الحضارة الغربية هو العكس تماماً. العلوم تتقدم والإنسان ينهار وقيمه تتلاشى وعذابه واستلابه ومآسيه تتزايد.

ثانياً: إن كل محاولات السيطرة على التاريخ لم تعد مجدية بالرغم من المحاولات المتفائلة منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى وما قبل الحرب العالمية الثانية، فالكل قد تفاءل وقتها ولكن الحروب قد اندلعت، وتحول البشر فيها إلى وحوش ضارية، فما الذي يمنع حدوث ذلك من جديد؟ وليس ثمة (منهج) للسيطرة على التاريخ كالمنهج الربانيّ، وكل ما يحدث تغيّر في آليّات الصراع ووسائله وأدواته، أما الصراع واستلاب الإنسان فإنه مستمر دائم مهما تغيّرت الآليات!!.

ثالثاً: إن كل محاولات السيطرة على الإنسان في النظامين (الاشتراكي المقبور، والرأسمالي القائم) استتبعها ويستتبعها (تمرد) الإنسان. فالإنسان في إطار الشموليّة الماديّة يبحث عن قيمته الذاتية، فيرتدّ إلى قوميّته، ويبحث عن ذاكرته الوجودية فيرجع إلى دينه، وذلك ماحدث في الاتحاد السوفياتي المقبور. والإنسان في إطار الليبرالية والوضعية الغربية لا يحصل ولا تعطيه هذه الليبرالية سوى الفكر الانتقائي المجزأ والمبعثر، يبحث الإنسان عن ذاته فلا يجدها، فيفرغ ذاته في ذاته، انهماكاً في الجزئيات، ثم يتأزم ويفارق حتى جذره العائلي، فالحرية بلا مضمون، والإنسان بلا التزام بشيء، بلا عائلة ينتمي إليها، بلا زوجة تؤويه، بلا ولد يفرغ عليه أبوته أو أمومته. حرية إلى حد الموت الذاتيّ، إلى حد النفس المفككة، إلى حد التردي والهلاك. ماركس تمنى الخبز فوجده، فماذ بعد ذلك؟ إنها

العدميّة! إنه اليأس فالانتحار! إنّه انفجار الإنسان في ذاته وصراع الحضارات! إنّها نهاية التاريخ!

رابعاً: النسق الحضاري القائم على الصراع وغلبة الأقوى وسيطرة الشركات الكبرى حتى على مستوى الإعلانات التافهة، أمر يأخذ الغربي باستلاب تام ليختار نموذج التعليم لابنه، وطبيعة ما يأكل ويتذوق ويلبس ويمارس ويتصرف تحت ضغط ذلك كله.

لو أردنا تقييم آلاف الصفحات فيما كتب ويكتب في هذه المجالات لفعلنا. فالشواهد لا تنقصنا بحال من الأحوال، فإذا أتينا بهذه الشواهد ونسقناها فلسفياً سنكتشف المحددّات الموضوعيّة التالية لأزمة الحضارة العالمية الراهنة التي تثبت عجزها وحاجتها إلى البديل.

أولاً: اللاهوت المسيحي -بعد أن استلبه الموروث الهيلينيّ والرومانيّ- لم يعد قادراً على أن يمنح العقل الغربيّ رؤية كونيّة تتجاوز مفهوم الإله (المتجسد)، فقضى اللاهوت المسيحي- بذلك الوضع على نقاء التوحيد واستبدل به بحلوليّة شركية- على المفهوم الكوني المتجاوز للطبيعة في الفكر الفلسفي، فأصبح الجهد العقلي الإنساني مقيّداً إلى (موضعية) ضيقة، لأن مفهوم ألوهيّة الله (وهو أساس الكونية والعالمية الأولى) اختزل إلى مستوى (الشيء) الطبيعيّ؛ فاللاهوت المسيحي نفسه يعد أحد أكبر مشكلات الفكر الغربيّ المعاصر.

ولهذا فإن العودة إلى الله -حين تتم بموجب هذا التوجه اللاهوتيّ- فإنها لن تتجاوز العودة إلى ما هو خارج الذات الضيّقة، فالغائب الفلسفي في اللاهوت المسيحي هو (الله أكبر) الذي يمثل نقاء وصفاء مفهوم الألوهية والتوحيد ويقدم حلاً لأزمة الحضارات

والتعالي والتحيز الحضاريّ. ودلالة تكبير الله عميقة للغاية، ولكن أكثر الناس لا يعقلون؛ فحين ينتفي التوحيد أو التنزيه يصبح الإله (متجسداً) حالاً في خلقه أو مشابهاً لهم أو متجسداً فيهم، والمدلول الحضاريّ لتجسد الإله يحمل دليل حاجته كإله (لاعتراف) الإنسان به، أي أنه يفتقر إلى الإنسان ولو من أجل أن يمنحه حبه وولاءه، ليجسد الإنسان نفسه فيه طلباً لقوته -أي قوة الإله. فحين يستغني الإنسان عن قوة الإله المتجسّد يستقلّ عنه، ويتجاوز تعاليمه وشرائعه ويطغى، وهذا ما حدث في الحضارة الغربيّة، فقد صرف الإله عن الفعل والتأثير، ثم حين أراد العودة إلى موقعه في إطار أصوليتهم، طلبوا منه أن يعود بطريقتهم. فاللاهوت المسيحي هو أصل في المشكلة الحضارية الغربية. ولا يمكن حل هذه المشلكة الفكرية الكبرى إلا بتقديم مفهوم (الله الواحد -الله أكبر) أمام الحضارة الغربية. فالله -سبحانه وتعالى- إذ هو أكبر من كل زمان ومكان طبيعي لا يستلب لأي منهما ولو بقوة الفعل في الأشياء (كما فعل المسيح)، ومن هنا يتم التفريق بين منهجية الخلق والتكوين الإلهي، ومنهجية جعل الأشياء وتحديد وظائفها. ولأن اللاهوت المسيحي لا يعرف التوحيد ولا يؤمن بأن (الله أكبر) لذلك فإنّ مفهوم الخلق -نفسه- يضطرب لديه، ومنهجية الخلق تضطرب كذلك. ومن هنا أنتج الفكر الغربي فلسفات العلوم الطبيعية بالطريقة التي أنتجها بها وهي طريقة مبتورة جعلت هذه الفلسفة غامضة عنه فخسرت الكثير من قدرات الامتداد فيها.

ثانياً: العقل الطبيعي ثم العلمي -حين حاكم العقل الأول، أي الطبيعي الخارج من أسر اللاهوت المسيحي، ثم دعمه العقل الثاني، أي العلمي، بتوجهات وصلت إلى حد القطيعة المعرفيّة مع اللاهوت،

تبنَّت (الثقافة الغربية)- ونركز هنا على عبارة (ثقافة)- قضية القطيعة مع اللاهوت المسيحيّ أو (الحياد). فاستغل الماديّون استدراجات القطيعة لتكريس مذهب يحيّد الله -سبحانه وتعالى- في حين استغل الوضعيّون استهواءات التحييد لجعل مفهوم الله -سبحانه وتعالى- نسياً منسيّاً، وتلك هي الظاهرة الأولى في النتائج -العكسية (السلبيّة والإيجابيّة معاً)، للعقلين الأوروبيين، الطبيعي والعلميّ، أي القطيعة مع اللاهوت المسيحي، ولكن الظاهرة الثانية هي الأخطر.

ثالثاً: التفكيك والعجز عن التركيب -من بعد نمو العقليتين الطبيعية والعلميّة في مواجهة اللاهوت المسيحي الضيّق، لقد اتجهت العقليّة العلمية المزودة بقوة النقد والتحليل إلى البحث في (ما ورائيات) كل شيء بتحليل عميق، يرد كل المقولات إلى أصوها، اتساقاً مع منطق الحضارة الصناعي، أي تحليل كل مادة إلى أولياتها وعناصرها، وقد أفلحت الحضارة الأوروبية الغربية بشقيها الشرقي الذي تفكك والغربي الذي ينتظر في ذلك كثيراً، إلى أن توصلنا إلى (الغزو) الفضائي -وهو تسخير وليس غزواً- ولكن ماذا بشأن التركيب...؟

قد أفلحوا في فن التركيب -فيما يختص بالمادة والطاقة- ولكنهم عجزوا عن ذلك في الجوانب الإنسانية نتيجة ما أوردناه في الفقرتين (الأولى) ثم (الثانية)، فعاشت الحياة الغربية، أو بالأحرى الحضارة الغربية المركزية، مشكلة التركيب.

ثم تأتي من بعد ذلك المسألة الأخطر تركيب الحضارة الغربية الأوروبية وهي الخاصة بمشكلة (النسق الحضاري وبنائيّة التطور التاريخيّ والاجتماعيّ).

ولتوضيح هذه النقطة الهامة نقول: إن النسق الحضاري الغربي، كما أوضحنا تكوينه منذ استمداده التاريخي للمرحلتين الهيلينيّة والرومانيّة، كـون ذاته على أساس الصراع والاستعلاء على الآخرين. فالنسق الحضاريّ الغربي تنابذي، يعتمد على سيطرة الأقوى، والتحكم في كل شيء بمنطق القوة. لذلك تصعب فيه ممارسة الدعوات الأخلاقية إلاّ أن تكون فارغة من القوة ذات الفعالية (الإصلاحية). فلك أن تدعو الله - سبحانه وتعالى- بما تشاء ولكن ليس لك أن تتصرف اقتصادياً واجتماعياً- بشكل يناقض «مصالح» المسيطرين، وكل الأشكال المغايره لفلسفتهم الاقتصادية وفكرهم الاجتماعي يناقض مصالحهم حتماً. ومن هنا استهدف النظام العالمي القديم ثم الجديد القضاء على خصوصيات الأمم والشعوب الأخرى.

هنا تبدو القضية قضية (نسق حضاري) وليست قضية دين أو أخلاق أو تعاليم، فالغرب بمعنى النسق الحضاري الغربي، يسمح لك بالتكلم في الدين كما تشاء، ويحبّذ لو تكون داعية للسيد المسيح بالطريقة التي يراها هو، وقد يدعوك لتفعل ذلك في بعض مؤسساته، ولكن حين تتجاوز دعوتك ذلك، فإنه يدرج الأمر في إطار (التعبئة السياسية المضادة والأصولية والتعصب والتطرف).

إذن، فماذا ينبغي علينا أن نفعل لإيجاد تفاعل بين عالميّة الإسلام والغرب بقيادة أمريكا ومركزيتها بعد كل هذه المعطيات؟

صحيح أن المشوار ليس مستحيلاً، ولكنه ليس سهلاً كذلك:

أولا: ليس سهلاً، لأن الغرب يعيش الحالات التي ذكرناها كافة، وسيقاوم بشدة أي إصلاح، خصوصاً إذا صدر هذا الإصلاح عن فكر (ديني) وبصورة أخص حين يصدر عن تفكير ديني إسلامي؛

فللغرب ميراث عقليّ طبيعيّ، وعقليّ علميّ ضدّ اللاهوت الديني، وله ذاكرة تاريخية مترعة بعوامل الصراع مع الإسلام بالذات، وهو لا يفرق في ذلك العداء بين اللاهوت المسيحي والقرآن العظيم إلاّ تفريقاً شكلياً.

ثانياً: وليس سهلاً، لأن النسق الحضاري للغرب لا يتقبل دعوات أخلاقية وقيمية تخل بنسقه المهيمن على مجتمعاته وعلى الشعوب المندرجة تحت نفوذه السياسي والاقتصادي خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والذي يعد انهياره شهادة صحة لنظامه الليبراليّ، وتأييداً لسلامة موقفه.

ثالثاً: وليس سهلاً، لأن أي دعوة إصلاحية تصدر عن عالم المسلمين بالذات، يعدها الغرب، طبقاً لخلفيات كل ما ذكرناه ولذاكرته التاريخية، صادرة عن طرف معاد، يجب عليه تحطيمها مهما بذلنا لإقناعه أو ادعاء التقرب إليه.

إذن: ما العمل؟!

رغم كل ما ذكرنا فإن -هناك- بعض المسالك المفتوحة، منها:

أولاً: إن الحضارة الغربية تعيش أزمة حادة نتيجة التفكيك التحليلي والعجز عن التركيب. وبما أننا -وحدنا- في العالم المعاصر نملك بالقرآن المجيد التركيب عبر (المنهج المعرفي القرآني) فمهمتنا الأولية والأساسية جداً والضرورية جداً، أن نمارس أقوى العلاقات مع مدارس التحليل الغربيّ -أياً كانت اتجاهاتها وتوجهاتها- وهي مدارس تتسع قواعدها الفكرية والثقافيّة والفلسفيّة يوماً بعد يوم. فهذه المدارس هي رصيدنا في الاتصال المعرفيّ بالغرب لأننا -وحدنا وبالقرآن العظيم- نستطيع أن نمنحها قدرة التركيب من خلال (المنهج المعرفيّ القرآني)، وهو ما ينقصها.

ثانياً: أن نمنح كل الطاقات الممكنة لحركة أسلمة المعرفة في مجالات توجيه العلوم الطبيعية وإعادة بناء العلوم الاجتماعية والإنسانية، وإن تطور هذه العلوم في وحدتها الكونية سوف يشكل حافزاً لمعظم الغربيين على الانفتاح على منهجنا أو اكتشافه أو الإفادة منه.

ثالثاً: وذلك سوف يفتح الطريق أمامنا للوصول إلى الملأ الغربي والنخبة الغربية، والتحاور معها في إطار منهجيّ علميّ لا نحتاج فيه إلاّ إلى التسلح بوعي مفاهيمي على القرآن المجيد وعطائه، الذي لا ينفد وعجائبه التي لا تنقضي. وآنذاك سيكون المدخل الجديد للعالميّة الإسلاميّة المرتقبة مدخلاً معرفياً ومنهجياً يستطيع أن يتحدى عالمياً، وعلى مستوى السقف المعرفي والمنهجي العالميّ الراهن. ولن نلجأ ونحن نحاول أن نشق طريقنا إلى العقل الغربي -إلى أساليب الدعوة والدعاة والدعاوى المثيرة للحساسيات، ولكنها البحوث والدراسات العلمية التي تعالج قضايا العالم المعاصر وأزماته ومشكلاته انطلاقاً من منهجية القرآن العظيم المعرفية، ومنهجه عليه الصلاة والسلام في تطبيقها. وهنا لا بد من الالتفات مرّة أخرى إلى الحركات الدينيّة والداخل الإسلامي للنظر في مدى قدرتها على تفهم هذا الدور الخطير، ثم مدى قدرتها -بعد ذلك- على ممارسته!!.

دور الحركات الدينيّة:

إن الحركات الدينيّة، وقد قامت تنظيماتها المختلفة انطلاقاً من مشروعية دينيّة تراثيّة وتاريخيّة وثقافية، قد شدّتْ رؤيتها وأفكارها إلى الواقع التاريخي الإسلامي الغابر، فكأنها قد غادرت واقعها إليه. وحين يحدث أن تستدعي ذلك التراث إلى واقعها فإنّها يغلب أن تستدعيه بمنطق سكونيّ لا يلتفت كثيراً إلى خصائص النصّ القرآني، وبخاصة

«إطلاقيته»، فيضعه ونصوص السنة داخل الهياكل الأولية التي بناها الجيل الأول، في إطار سقف معرفي ومنهجي وخصائص مرحليّة محددّة، وتاريخ وسير لم تأخذ حظها من التوثيق، فضلاً عن الدراسة والتحليل؛ ولا يحاول أن يقوم بعمليّات تحليل لتلك الهياكل تساعده على دراستها من الدّاخل، لفهم وتقدير التحوّلات الهائلة التي يمكن أن تطرأ على تلك الهياكل، من خلال التفاعل الإنسانيّ ومتغيرات الزمان والمكان، وسنن التحول والصيرورة، ليستطيع أن يلتفت -بعد ذلك- إلى، تأثير التداخل بين المحليّ والعالميّ وحجمه وقيمته، في سياق تفاعليّ لا يعرف توقفاً أو انقطاعاً.

وإذا كانت الأزمة في دائرتها الغربية أزمة تفكيك عاجزة عن التركيب، نظراً لاستبعاد الله والوحي والغيب، فإن الأزمة في دائرتها الإسلامية تبدو واضحة في منهجيّة التعامل مع تراث ذي شموليّة لها ما يبرّرها، لكنها تصطدم على الدوام بمنطق سكوني في تفسيره وتأويله يجعلها عاجزة عن استعمال مداخل التصديق والاسترجاع والاستيعاب والهيمنة القرآنية، وأخيراً التركيب المفتقد عالميّاً، كمداخل منهاجيّة للتغيير. وإذ تعجز عن التغيير بمنهجيّة معرفيّة إسلامية، فإنّها تلجأ إلى العنف التكفيري، والتشبّث بمعطيات الواقع التاريخي الإسلامي في امتداد الدعوة الأول، والإحالة على الغيب بغير منهجيّة الإسلام في التفاعل بين الغيب والإنسان والكون، أو التوثب إلى السلطة لإحداث التغيير بإسناد الحاكمية لله تعالى، مع ولاية فقيه لمعرفة ماذا يصنع جل شأنه بعد أن يتم استرضاؤه، تنزه وتقدس وتبارك! بتطبيق التشريع الجنائي وإقامة الحدود. وفي إطار هذا التبسيط للإسلام والاختزال الكبير له تصاغ البرامج والمشاريع السياسية، التي يؤكد صائغوها بكل المؤكدات الممكنة أنّها تمثّل الإسلام وتعبّر عنه، وتنطق باسمه.

وقد بلغ العالَمُ -كلُّه- حَدَّ القناعة بأنّ الحركات والقوى الإسلاميّة تستهدف بالتغيير سائر أشكال الحكم وجميع الأنظمة، ومنها الأنظمة التي يعملون في نطاقها وداخل مشروعيتها السياسية، بقطع النظر عن استمدادها من الشرع أو الشارع، فالحركات تستهدف -في نظر الناس على الأقل- بالتغيير الأنظمة الليبراليّة التعدّديّة ذات المنحى الديمقراطي المتسع أو المقيّد، وكذلك الأنظمة الاشتراكية ذات الطابع الشمولي والحزب الواحد إن وجدت، ولا تتجاوز الأنظمة الملكية، دستورية كانت أو مطلقة، ولا الأنظمة الملفقة أو المركبة من ذلك كله. وذلك انطلاقاً من شموليّتها ومفاهيم الحاكمية والشرعيّة والشريعة لديها.

والحركات الدينيّة ترى نفسها الأولى والأحق والأقرب إلى الشرعيّة، ولذلك فهي أولى بالأمر من أية جهة كانت، وهي تحاول أن تحرج باستمرار سائر النظم والحركات الأخرى في تديّنها وإسلامها فهي لا تتهاون ولا تهادن أية شموليّة أخرى، فهي تناقض التعدُّدية الليبرالية في مضمون الحريّة، وتصارع الأنظمة المختلفة، وتنفي عنها الشرعيّة؛ لأنها لا ترى الشرعيّة إلا في نظام تقيمه هي، أو تنوي أن تقيمه من هياكل تراثية لم يُتفق عليها ولم تتضح بعد معالمها حتى في الأذهان.

ومن هنا تسمّرت أنظارها باتجاه السلطة في الدوائر الجغرافية التي تعيش فيها، وغفلت أو تغافلت عن مفاهيم «العالميّة» فضلاً عن التفكير في مناهج بلوغها، ومستلزماتها ووسائلها وأدواتها، وآثارها التي لا بد أن تبرز في سائر جوانب الخطاب الإسلامي، وكذلك جوانب الحركة.

وهي تظن أن أي نجاح تحققه في قطر محدد بالوصول إلى مقاليد الحكم فيه، يمكن أن يجعل من ذلك القطر قاعدة ومنطلقاً -بعد ذلك- لبلوغ العالميّة -هذا إن خطرت العالميّة على البال- وذلك بعد استكمال

مقوّمات القوة في ذلك القطر التي تسمح له بالانطلاق بالرسالة باتجاه العالم؛ وهو تفكير يتجاوز السنن والأسباب، ويفتقر إلى مراجعات وتصويبات كثيرة، ليستقيم وينسجم مع السنن التي لا تقبل تحويلاً ولا تبديلاً.

إن الحركات الدينيّة قد تمثّلت ببعض أهداف إسلامية والشكل الإسلاميّ، ولكن بوعي مفاهيميّ محدّد، ولم تستطع بناء نموذج يربط بين تلك الأهداف وقوانين وسنن التحوّل والتغيّر في المجتمعات، ولذلك أخذت تقنع نفسها بعمليات «الاستقطاب الكمّي» للأعضاء والامتداد الأفقي، مستخدمة كل ما تيسر لها لتجميع القوة العدديّة، ومنها وسائل الدعوة. فالتغيير لا يزال في ذاكرتها مرتبطاً بتكوين «الجماعة» ذات القوة العديدة؛ أما التعامل مع قوانين الحركة الاجتماعية والتاريخيّة وقواعد وسنن التغيير، والتحولات الفكريّة والثقافيّة واتجاهاتها العالميّة فذلك خارج عن دائرة تفكيرها. ولذلك فكثير منها يتعالى على الفكر والمعرفة ويجعلهما نقيضين للإيمان والعقيدة، ويفترض بينهما فصاماً يصل إلى حد التنافي والتعاند.

ولا شك أن هذه الظاهرة في طريقها إلى التغيُّر، وأن هناك محاولات كثيرة لتجاوز هذه المآزق والخروج من دوائر الأزمة، لكنّ تلك المحاولات لا تزال عاجزة عن إعطاء الدافعيّة المطلوبة للخروج من الأزمة، أو هي أقل من المطلوب بكثير. فمحاولات التجديد في «أصول الفقه» أو في «الفقه» أو بناء «علم كلام» إسلامي معاصر، لن تحل إشكالية الربط بين النص القاطع والواقع المتغيّر بسنن الصيرورة والزمان والمكان. كما أن التسامح الفقهي وتجهيز الفتاوى باتجاه التشديد أو التيسير لإيجاد التوافق بين ما يعده البعض معطيات النص ومعطيات الواقع، لن يفعل أكثر من توسيع دائرة الفكر الذرائعي والتبريريّ والتوفيق.

وحين يبلغ الأمر هذه المرحلة، تلوح فكرة السلطة كوميض برق أو كحل أو مخرج من أزمة، لم تستطع الوسائل والمناهج الفكريّة أن تعالجها؛ فتصبح السلطة هدفاً تكرّس الجهود لبلوغه قبل بلوغه، وتكرس الجهود للمحافظة عليه بعد بلوغه؛ وما دام الفكر قد عجز فلم لا تجرّب العصا؟!

إنّ «الخطاب الإلهي» إلى البشرية حتى في المراحل التي سبقت بعثة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هو خطاب متحد ومعجز، فلا يمكن أن يتقاصر عن تطوّر البشريّة التاريخي؛ فإذا كانت البشرية تتقدم بخطى سريعة باتجاه العالميّة فهل من الممكن أن يتراجع خطاب الرسالة الخاتمة إلى حال الإقليمية أو القوميّة، أو المجال الحيوي المحدّد؟! لا يمكن. ذلك فالعالمية التي يتوحد البشر في إطارها على قيم مشتركة جامعة تقوم على الهدى ودين الحق هي أرضية التحرك، ولها شروطها وقوانينها التي يستطيع القرآن أن يقدمها لحملته ومتدبريه.

إنّ الإمام فخرالدين الرازي (المتوفى عام ٦٠٦هـ) نقل في تفسيره عن (القفّال) أنّ تقسيم الفقهاء للأرض إلى دار حرب ودار إسلام ودار عهد لم يعد مقبولاً وأنّ الأولى تقسيم الأرض كلها إلى (دار إجابة) و(دار دعوة). وأن تقسيم النّاس إلى أمة مسلمة وأمم غير مسلمة، يمكن أن يستبدل به بتقسيم الناس إلى أمة إجابة وهم المسلمون وإلى أمة دعوة وهم غير المسلمين. وتفكير هؤلاء الأئمة، خاصة الشاشي، يعني بعض القضايا الفقهية التي اعتبرت ثوابت لدى المتأخرين كانت موضع مراجعة من علماء القرن الثالث الهجري، وذلك يدل على أن بعض أولئك الأعلام كانوا أقرب إلى أصول الإسلام وألصق بأدلته، وأقرب إلى فهم العالميّة وإدراكها من هؤلاء المعاصرين من بعض قيادات الحركات الدينية

التي تجهل أو تتجاهل «عالمية الإسلام» وتكرس الإسلام في مواقعها الجغرافيّة المستندة إلى الخصوصيات الإقليمية والتاريخيّة المغلقة. ولا تزال في تكوينها الفكري والثقافي وبنائها النفسي تقسم الناس والأرض إلى شرق وشرقيين وغرب وغربيين، وفي داخل كل قطر تقسم الناس وتصنفهم أيضاً إلى طوائف ومذاهب.

إنّ غياب هذا البُعد، بُعد «العالمية»، قد أدّى إلى العديد من الإصابات الفكرية والمنهجية في العقل المسلم، فلو استطاعت الحركات الدينيّة إدراك هذا البُعد مبكراً، لما نشأ فكر المقاربات وفكر المقارنات وفكر التجاوز دون استيعاب، وهي أبرز السمات الأساسية للفكر الإسلامي في العقود الأخيرة.

تحذير من الخلط بين العالمية الإسلامية والمركزية السائدة:

تحاول الفصائل اللادينيّة أو الدنيويّة أو العلمانيّة أن تنادي «بالعالميّة»، ولكن في إطار الدعوة إلى التبعية والاستسلام لمركزية الاستحواذ الغربي أو عالميته، في إطار ما يعرف «بالنظام العالمي الجديد»، وهي دعوة نقيض لدعوتنا وشعار مفارق ومغاير لشعارنا. إنّ دعوتهم تلك تمثل خضوع عقلية التقليد والتبعيّة واستعدادها للاستسلام إلى عمليات الابتلاع، والقضاء على الخصوصيات كلّها.

إنّ «عالميتنا الإسلامية» عالميّة تسعى لتوظيف هذه التوجهات التاريخية التي نجمت عن الثورات المتتالية التي شهدتها البشرية في القرون الأخيرة، وآخرها «ثورة المواصلات والاتصالات»، وما سبقها وزامنها من ثورة تقنيّة، جعلت العالم يسير بخطى حثيثة نحو عالميّة ووحدة بشرية عضوية، لم يعد الحديث عنها أو البحث عن أفضل الصيغ لها مستغرباً.

فإذا تم توظيف هذه التوجهات، وإدراك كونها توجيهات تولدت عن تطور تاريخي طويل «. . . قطعت مشواره الأنساق الحضارية للإنسان منذ نشوء الحضارات القديمة وكأنها تعبير عن نزوع فطريّ لدى الإنسان كأمر ينتظر الفرص المناسبة ليعبر عنه: فكان الاتجاه العالمي في الإسلام فرصةً للتعبير عنه؛ فسرعان ماشملت عالمية الإسلام في انفتاحها الأول ما بين المحيطين الهادي شرقاً والأطلسي غرباً في الوسط من العالم، فألغت ثنائية الشرق والغرب التي كانت سائدة قبل الإسلام، واستوعبت بمنهجيتها المميّزة ونسقها الحضاريّ المتميّز مختلف الحضارات والثقافات والأعراق، وتفاعلت بانفتاح عجيب مع ثقافاتها وأنظمتها الفكرية والفلسفية، فكان ذلك النتاج الحضاري الثقافي الهائل الذي مثلته الحضارة الإسلامية في كل شيء.

إنّ «عالميّة الإسلام» وهي تحمل ذلك الرصيد التاريخي لا تخشى عمليّة الاستحواذ من قبل المركزيّة الغربيّة، لأنها تدرك أنّها ليست بعالميّة، بل مركزية؛ ولذلك فإنّها لن تؤدي إلى حالة اندماج توحد البشريّة عضوياً فهي في هذه الناحية يغلب عليها عالمية القشر الخارجيّ الوجبات السريعة "Fast Food" وملابس «الجينز» ونحوها.

أماعلى مستوى الأفكار والنّظم فإنّها تعاني من أزمات عميقة جداً، وإن اختلفت عن أزماتنا؛ فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته. إن الحضارة الغربيّة نفسها في حاجة إلى إنقاذ، فهي تعيش حالة اضطراب شديد، بعد أن فككت مقولات اللاهوت الديني، ومبادئ المعرفة العقليّة القبليّة القطريّة، عبر مناهج العلوم الطبيعية التي فهمتها في الحدود السطحية للجدلية الماديّة وللتطوريّة الداروينيّة والنفسانيّة الفرويدية ونسبيّة إنشتاين. فالغرب إذا لم يستطع أن يمتد بمناهج العلوم الطبيعيّة نفسها إلى مداها الكوني ونهاياتها الفلسفيّة، فإنه لن يجد المخرج السليم من أزماته.

إن «الحضارة الغربيّة» قد أطلقت مارد العلوم الطبيعيّة، لكنها لم تستطع أن تتعامل معه إلاّ في حدود فلسفاتها الوضعية القاصرة، ولذلك تتابعت أزماتها. لقد حاولت الماركسية أن تمنح الفكر الغربيّ نهاياته الفلسفية، لكن نسبة الأزمة في الماركسية كانت أكبر بكثير من نسبة الحل فتهاوت، وعادت الأزمة أقوى مما كانت.

إن النسق الحضاري الغربي -بوضعه الحالي- لن يتمكن من مغادرة خندق الأزمة. لقد عمت الأفراح ساحات الأنظمة الغربية الرأسمالية عندما انهار الاتحاد السوفياتي وأعلنت شهادة وفاته. واعتبرت ذلك انتصاراً لفكرها ونهجها، الذي لولا أزماته لما قامت الماركسيّة، وما علمت أن ذلك راجع إلى أن أي نهج وضعي يتجاوز الله -سبحانه وتعالى- والغرب لا بد أن ينتهي إلى ذات النهاية. «وأن جدلية الإنسان الممتدة إلى الغيب والطبيعة تصرع كل نظام لا يستجيب لصيرورتها أياً كانت طبيعة ذلك النظام سواء أكان نظاماً لاهوتياً يتجاوز أو يتجاهل قوانين الطبيعة الكونية وسننها، أو لاهوتياً وضعياً انتقائياً يحول الإنسان إلى ترس في آلته الانتاجية، أو لاهوتياً وضعياً مثاليّاً يجعل الإنسان موضوعاً لآلية الزمان والمثالي الهجليّ، أو لاهوتية دينيّة لا تلتفت إلى حقائق الدين ومداخله وأبعاده المنهاجية وحقائقه.

إنّ أزمات العالم أصبحت تتداخل، ومع تداخل الأزمات وتحولها إلى عالميّة تصبح الحلول المطلوبة حلولاً عالميّة. إنّه لم تعد أزمات أي بلد أو شعب أزمات محكومة بالعوامل الداخليّة أو الذاتيّة وحدها، فالتداخل الاقتصادي والبيئيّ والاستراتيجي والسياسي والثقافي، الذي نجم عن ثورة الاتصالات والمواصلات، جعل من الخصوصيات والأنساق الحضاريّة الخاصة أجزاءً صغيرة تتداخل في بناء كليّ عالميّ، بقطع النظر عن كون هذا التداخل يتم بإرادة تلك الشعوب واستشرافها للمستقبل

العالمي، أو بمنطق التفاعل الجدليّ الذي لن يسمح ببقاء أي قطر أو شعب بمعزل عن التوجهات العالميّة المندفعة بتفاعلاتها ومؤثراتها وتداخلها.

لقد كتب SAMUEL P. HUNTINGTON في FOREIGN AFFAIRS صيف عام ١٩٩٣، دراسته ورؤيته عن صراع الحضارات، وتكهّن أن العقود القادمة ستشهد صراعاً حضارياً سيكون المرحلة الأخيرة في نشوء وتطور الصراع في العالم الحديث، وأشار إلى أن الشعوب والحكومات اللاغربيّة التي لم تكن أكثر من أهداف تحولت إلى محرِّكة ومشكِّلة للتاريخ بجانب الغرب، وأضاف إلى تكهناته: أنّ العالم في المستقبل سوف يتم تشكيله من خلال تفاعل سبع حضارات: الحضارة الغربية، والكونفوشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندوسية، والأرثوذكسية السلافية، والأمريكية اللاتينيّة. ومن الممكن أن تُضَم إليها الحضارة الإفريقية. وقد قسم الحضارة الإسلامية إلى عربية وتركيّة وملايويّة وتجاهل الفارسية والهندية، والشعوب الأخرى المنضوية تحت الحضارة الإسلامية. كما قسم الحضارة الغربية إلى أوروبية وأمريكية. وأكد على جوهريّة الخلاف بين الحضارات؛ كما أكد على أثر اختلاف الدين في جوهرية الصراع بين الحضارات، التي تجعل من هذا النوع من الصراع في نظره أطول الصراعات وأكثرها عنفاً.

وقد رصد في مقالته الهامّة جملة مهمة من الظواهر الحضاريّة جديرة بالدراسة، لكن الذي فاته نجم عن نوع من السذاجة أو القصور في نظرته إلى الإسلام وثقافته وحضارته التي تتسم بأنها نظرة استشراقية تقليدية؛ وأن خلفيّته الغربيّة وانتماءه إلى حضارة الصراع والتنابذ حرمته من رؤية أي جانب من جوانب الحضارات والأديان والثقافات غير الجانب الصراعيّ التنابذي، الذي هو محور ارتكاز الحضارة الغربيّة، وكان تأثره فيما يتعلق بالإسلام بالواقع التاريخي، لا بحقيقة الإسلام وجوهره.

كما أنّه -على ما يبدو- قرأ خارطة الحضارات المذكورة كما لو كنا في عام ١٥٠٠م فلم يعط للثورة التقنيّة وما أحدثته، ولا لثورة الاتصالات وما أفرزته نصيبها في البحث والدراسة ليتبيّن آثارها. كما أنّه أغفل إلى حد كبير آثار العوامل الاقتصادية والبيئيّة، رغم أنه أشار إشارة عابرة إليها، ولم يستطع الوقوف أمام دلالة عقد «قمة الأرض» لبحث مشكلات البيئة المشتركة أو الكون الذي يمثل البيت الإنساني المشترك. كما لم يستطع الوقوف أمام «النموذج الغربي العلماني» الذي يكاد يتحول إلى نموذج شامل بتبني الغرب له، وآثاره في الأديان والثقافات والحضارات. وقد ركز الكاتب على صدام الإسلام والغرب، وأعطى مؤشرات كثيرة حول كيفيّة كسب الغرب لمعركته المقبلة ضد حضارة الإسلام، وكيف يستقطب ضدها من الحلفاء من يعينه في كسب معركته الحضاريّة ضد الإسلام الذي لم يعرف الكاتب منه غير صورته التي استصحبها من مخزون الذاكرة الغربيّة الصراعي.

لا شك أن هذا النوع من التفكير والتحليل ليس بغريب على كاتب غربي مثله، لكنّه لو أعطى العناصر التي لم يولها عناية ما تستحقه من البحث لخرج بنتائج مغايرة، ولأدرك أن كهانته قد تصح وقد تقع إذا لم يكتشف العالم أسساً سليمة لتوحده في إطار نسق حضاري منفتح لا منغلق يشكّل قطباً لا مركزياً يقوم على قيم مشتركة، لا على قيم ذات خصوصية قومية أو اقليميّة أو دينيّة؛ قيم تمثل ثوابت بالنسبة للبشرية كلها؛ ألا وهي قيم الهدى ودين الحق، تطالب البشرية بالمعروف في فطرتها، وتنهاها عن المنكر الذي ترفضه فطرتها، وتحل لها الطيبات، وتحرم عليها الخبائث، وتضع عن البشرية إصرها والأغلال التي كانت عليها؛ فتجعل من الإنسان سيد هذا الكون والمستخلف فيه، وتجعل من الكون بيتاً للإنسان مسخراً له، وتدعو الناس كل الناس أن يلتزموا بتلك

القيم ويدخلوا في السلم كافة، في حضارة تنظر للناس كلهم على أنهم لآدم، وآدم من تراب، وتستوعبهم جميعاً.

أما (جارودي) الذي اطلع على الإسلام وأدرك هذه الخصائص فيه فلم يتوقع صراعاً بين الحضارات بل حواراً بينها يمهّد للعالميّة ويهيء لها. فهو يؤكد في مستهل كتابه «حوار الحضارات ص ١٧» . . . أن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم «الغرب» إنما ولد في «ما بين النهرين» وفي «مصر». ويوجه لوماً شديداً للغرب على جهله بمزايا وخصائص الحضارة الإسلاميّة خاصة، والحضارات الأخرى عامة، ويحاول أن يدعو الغرب من خلال تجربته الذاتية إلى محاولة اكتشاف الخصائص الحضارية الإسلامية، وينوه إلى أن أزمته الذاتية قبل الإسلام كأزمة الغرب، لأنها أزمة نابعة عن انتمائه الحضاري الغربي، ولذلك فإنّ اكتشاف الغرب للإسلام كفيل بمعالجة أزماته، ثم يقدم دليلاً عمليّاً لإحداث «ثورة ثقافية» على مستوى عالميّ يتلخص بما يلي:

١ . أن تحتل الحضارات غير الغربيّة في الدراسات مكانة متساوية في الأهميـة على الأقل لمكانة الثقافة الغربية في جامعات الغرب ومدارسه.

٢ . أن ينظر إلى الفكر الفلسفي نظرة جديدة، وهو يعني بذلك أن لا يقلل من شأن الدراسات النظرية والفكرية والفلسفية المتعمقة لحساب الدراسات العملية.

٣ . الاهتمام «بعلم الجمال» وإعطائه أهميّة لا تقل عن أهميّة العلوم التقنية.

٤ . الاهتمام بالدراسات المستقبليّة مع ربط مستمر لها بالتاريخ الإنساني.

لكن (جاوردي) وأمثاله، إذا كانوا قد عالجوا أزمتهم مع الفكر الغربي بالإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من معالجة أزمتهم الجديدة كمسلمين (لم يرثوا الإسلام إرثاً، بل جاءوا إليه من نسق ثقافي حضاري مغاير) مع التراث الإسلامي. والذي يلاحظ أزمة هذا النوع من المسلمين الذي يمثلون أوائل ثمار عالميتنا المرتقبة مع تراثنا وتراثهم الجديد يشفق عليهم كثيراً، ويرى كيف تحنو طاقاتهم وتضمحل بعد الإسلام حتى تتلاشى في بحر تصوف غنوصيّ قد لا يختلف كثيراً -عند البعض- عما كانوا عليه قبل أن يكتشفوا الإسلام، وذلك لأنهم لم يستطيعوا من خلال ذلك التراث المتراكم أن يكتشفوا حقائق الإسلام؛ وخصائصه العالميّة بشكل شامل، ولا تمكَّن الفكر الإسلامي المعاصر، المكبّل بكل تلك القيود الموروثة عن عصر التدوين من أن يقدم لنفسه ولهم تلك الخصائص.

نسي المفكرون المسلمون والدعاة أن الإمام الشافعي بنى فقهه في بغداد، وكتب كتاب «الحجة» وقرأه وتلقاه عنه البغداديون أحمد بن حنبل وأبوثور والكرابيسي وسواهم، ولما غادر إلى مصر أعاد النظر في ذلك الفقه كله، وقال بخلاف أقواله تلك إلا ثلاث عشرة مسألة، وصار له فقه قديم وفقه جديد، وهو إنسان عاش خمسين عاماً فقط مع أن الاختلاف بين النسقين الحضاريّين، البغداديّ والقاهريّ، لم يكن بالعمق الموجود الآن بين النسق اليابانيّ والحجازيّ مثلاً أو النجديّ والأمريكيّ. ومع ذلك فإن فقيه العصر يحاول أن يحمل مسلم اليوم أعباء فهم نسق حضاري جاء على فقه مدرسة الحجاز أو مدرسة الكوفة في القرن الثاني الهجري أو على فقه أهل الرأي وأهل الحديث في تلك الفترة، ويحاول أن يدخل الجَمَل في سَمِّ الخياط، لا لشيء إلاّ لعدم إدراكه لما يعنيه مفهوم «عالميّة الإسلام»، من قدرة على استيعاب الأنساق المختلفة في إطار ثوابت قيمية مشتركة لا في إطار متغيرات فهم معتنقيه المتأثرة بعوامل لا تكاد تحصى.

إن مدخل «عالميّة الإسلام» وعالمية الخطاب القرآني ليس شعاراً نرفعه لنفخر به وننتشي بترديده، بل هو مدخل منهاجي عظيم الأثر كبير الخطر، سيفرض علينا مراجعة تراثنا كله مراجعة دقيقة فاحصة وقراءته قراءة معرفية منهجيّة، واكتشاف نماذجه وإعادة تصنيفه ومحاكمته إلى القرآن المجيد ومنهجيته، والسنة ومنهجها في التنزيل على الواقع. وهذا يحتاج إلى آلاف العقول الذكيّة المتنوعة الجادة المجتهدة المستنيرة بمنهجيّة القرآن المعرفية ومنهجيّة السنة التطبيقية. كما يحتاج إلى مئات المؤسسات الجادّة في سائر أنحاء الأرض.

وآنذاك سنجد تراثاً كثيراً في مختلف علومنا ومعارفنا. لا بد من استبدال غيره به، وسنجد تراثاً لا بد من تصحيحه، وآخر لا بد من تجديده، كذلك سنجد تراثاً يمكن البناء عليه وتقويمه.

وقد يقول قائل: ولمَ كل هذا العناء؟ فنقول: إنّه قدر هذه الأمة ومهمتها، ورسالتها في الشهادة على الناس فرسول الله خاتم النبيّين لا نبي بعده، والله -سبحان وتعالى- كان يوالي إرسال الرسل لئلا يكون للناس عليه حجة ﴿قالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك . . .﴾ وأكد جل شأنه أنّه لا يعذب أحداً حتى يبعث رسولاً ﴿وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الاسراء: ١٥).

أما بعد محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- فإنّ النبوة قد ختمت؛ وهذا يعني أنّ هذه الأمة صارت هي المسؤولة مجتمعة عن تعويض البشرية عن إرسال الأنبياء، وعلماؤها ومفكروها «كأنبياء بني إسرائيل» كما في الأثر. فتجديد الرسالة، وحملها إلى الناس، والقيام بأمانة الشهادة ليس خياراً إسلامياً تستطيع الأمّة أن تقوم به أو تتخلى عنه أو تتساهل فيه، وأجيالها مسؤولة باستمرار عن تجديد الخطاب الإسلامي وجعله في متناول عقول أمم الأرض وافهامهم كلها. وإذا لم تؤد هذه

الأمّة هذا الواجب، ولم تتوافرفيها هذه الصفات، فسوف يصيبها ما يصيب الرسول الذي يتخلى عن مهمته أو أمته؛ ولم نعرف نبيّاً أو رسولاً تخلى عن رسالته، إلاّ ذلك الذي أشار إليه قول الله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٧).

تُرى هل هذا الذل والهوان الذي تتمرغ فيه أمتنا في مختلف بقاع الأرض لأنّها أوتيت آيات الله فانسلخت منها؟! أو هذا التفكك والتفسخ الذي تعايشه نجم عن القعود عن الخروج إلى الناس بالرسالة والنموذج والمثل والقدوة والرضا بالخلود إلى الأرض والالتصاق بها؟

فأين تذهبون؟

إننا لا نعرف نموذجاً لتخلي نبي عن قومه أو فراره منهم إلاّ نموذج يونس ﴿وإنّ يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنّه كان من المسبِّحين لَلَبثَ في بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه في العراء وهو سقيم * وأنبتَنا عليَه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ (الصافات: ١٣٩-١٤٨).

فهل ما تعانيه أمتنا من سقم، وأزمات، دونها أزمة يونس في بطن الحوت، لأنها تخلت عن البشريّة، وهي قومها، إليها أوكلت مهمة هدايتها وترشيدها، وأنارة عقولها وقلوبها بالهدى ودين الحق؟

إن دلالات ختم النبوة، ومفهوم الشهادة على الناس يشيران إلى هذا، والله أعلم. تُرى لو أنّ هذه الأمّة أدركت حقيقة دورها، وجوهر رسالتها هل كانت ستنصرف إلى ما تتخبّط فيه حالياً من أوحال؟ ولو أنّ طلائع هذه الأمّة من العلماء والمفكرين والجماعات والحركات والدعاة حدث لديهم الوعي على هذه المداخل، هل كانوا انشغلوا بما هم منشغلون فيه عن هذه الرسالة وهذه المهمة؟!.

المسلمون في أوروبا الغربية

د. يورغن نيلسون

إن وجود الإسلام في أوروبا مستمرٌّ منذ بداية التاريخ الإسلامي. وغالباً كان هذا الوجود في شكلٍ جماعات صغيرة أو أفراد.

ولكن في بعض الأحيان شمل جاليات هامّة على الصعيد التاريخي، وبين الجاليات التي أقامت بإسبانيا/ الأندلس طوال ٨٠٠ سنة، والجاليات لها علاقة بالحاضر مثل التتر والبشناق والألبان وشعوب إسلامية أخرى في شرق أوروبا.

ولكن اهتمامنا بالدرجة الأولى بمناسبة هذه الندوة الكريمة ينحصر بالجاليات المسلمة التي هي موجودة في عصرنا في غرب أوروبا، وهي جاليات وجودها عندنا على الأغلب نتيجة لتاريخ الحكم الاستعماري وما بعده لأوروبا الحديثة.

بدأ هذا الحضور المسلم أولاً في الولايات الألمانية والنمساوية في وسط القارة في القرن الثامن عشر بالجنود المرتدّين والمساجين والهاربين من الجيوش العثمانية، وفيما بعد من الجيوش الروسية التي كانت وقتئذ تُعَمِّق سيطرتها على مناطق جديدة في بلاد الأتراك والتتر، ولحقهم تجار ودبلوماسيون. وقد قَوِيَ التأثير العثماني في أواخر القرن التاسع عشر عندما عزّزت الدولة الألَمانية الموحّدة جديداً مصالحها التركية.

ومن جهة ثانية يشير التاريخ البريطاني والفرنسي بوضوح كامل إلى العلاقة بين الهجرة المسلمة الحديثة والاستعمارية الأوروبية. فقد بادرت شركة الهند الشرقية البريطانية إلى تطويع الهنود منذ بداية وجودها في المنطقة في القرن السابع عشر وأضيفت إلى هؤلاء مجموعة يمنية عبر عدن بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩.

وقد أثّرت الحربان العالميتان ازدياداً ملحوظاً في عدد الجنود والبحّارة والتجار الذين أقاموا في بريطانيا. وكان أغلب الهجرات في عهدها الأوّل تضمّ أناساً من ديانات مختلفة بينها الإسلام. فالهجرة إلى بريطانيا كانت مرتبطة بشكل مباشر بالوظيفة في وسائل الاتصالات الامبريالية والقوات المسلّحة البريطانية.

أمّا في فرنسا فقد كان استمرار الهجرات نتيجة للعمل في المناجم والصناعة، وربّما كان هذا الطلب الفرنسي للعمّال متعلّقاً بالتدهور السكّاني الحاد في القرن الماضي وأوائل هذا القرن.

وبعد عام ١٩٤٥، وبرجوع الاقتصاد الأوروبي تدريجياً لحاله السلمي، بدأت الصناعة في العديد من الدول الكبرى تبحث عن العمال لتحقيق النمو الاقتصادي السريع.

ففي بريطانيا بدأ هذا البحث في الجزائر الكاريبية وامتدّ فيما بعد إلى الهند، وحوالى نهاية العقد السادس إلى الباكستان وخاصة إلى قطره الغربي وأيضاً إلى قطره الشرقي الذي أصبح دولة بنغلادش عام ١٩٧١.

هذا ونتيجة للأوضاع الشاذة والأزمات السياسية والاقتصادية، منها الصراع في جزيرة قبرص في الخمسينات وسياسية التأميم في كينيا وأوغندا، وفيما بعد الصراعات المستفحلة في مناطق مختلفة في الشرق

الأوسط، سبّبت كلّها هجرة مجموعات بشرية من مختلف أنحاء العالم إلى بريطانيا طلباً للعمل والأمان.

وأخذت فرنسا أيضاً تستدعي العمال من امبراطوريّتها، وخاصة من بلاد المغرب العربي، وهذه الحالة توقّفت على اثر حرب الجزائر التحريرية، واستؤنفت في الستينات على أساس اتفاقية هجرة العمل في عهد Evian عام ١٩٦٢.

ودخلت ألمانيا الاتحادية في هذا المضمار فيما بعد. وكان عليها أولاً التعهد بالعديد من الألمان الذين كانوا يغادرورن شرق أوروبا بعد انتهاء الحرب الثانية، ولكنّها تطلّعت بعدئذ إلى أوروبا الجنوبية وأخيراً في عام ١٩٦١ وقّعت أول اتفاقية لدعوة عمال من تركيا. ثم تبعتها اتفاقيات مماثلة بين تركيا ودول أوروبية أخرى مثل هولندا وبلجيكا والسويد وسويسرا.

ونتّحدّث خلال هذه المدة عن الهجرة الأولية، أي هجرة الذين يبحثون عن العمل عادة لبضع سنوات فقط. ومن المناطق الإسلامية كانت هذه الحركة المتطوّعة غالباً من الشباب.

وقد تغيّرت هذه الأوضاع بنتائج ضخمة فجأة في عام ١٩٦٢ في بريطانيا عندما أُقرّ المرسوم الأول لتحديد الهجرة من دول الكومنويلث، فحصل تحديدَ مماثل عام ٧٣-١٩٧٤ عندما أغلقت حكومات الدول الباقية في غرب أوروبا أبواب الهجرة للعمل، وكانت هذه الأحداث نتيجة للانخفاض الاقتصادي بعد غلاء أسعار النفط وحرب تشرين.

والآن اتخذت الهجرة شكلاً جديداً وهو إعادة بناء الأسر مع استمرار هجرة الأولاد والزوجات. وفي أواخر السبعينات أخذت الجاليات في غرب أوروبا من أصل مجتمعات إسلامية تقترب إلى نوع

من التـوازن الديموغـرافي مـا بين النسـاء والرجـال ومـا بين كـبـار وأولاد واستقرّت بحياة عائلية واجتماعية . وإنه من الواضح أن هذه الجاليات كانت يافعة بالنسبة إلى معدّل سكان أوروبا . وقلّما نجد وقتئذ بينها الجدود (grand parents) بينما الأغلبية العظمى هي من سن الزواج .

وعلى هذا الأساس كانت الأرضية مهيّأة ومعدّة لاستمرار التوسّع والازدياد حتى عندما اتخذّت غالبية الحكومات في الثمانينات قرارات صارمة للغاية من الهجرة مهما كان نوعها وشكلها وسببها .

وفي السنوات العشر الأخيرة أصبحت هذه العراقيل كثيرة وشديدة لحد بعيد حتى توقفت الهجرة فعلاً . ولكن في الوقت نفسه استبدلت بزيادة عدد المستقدمين بطلب اللجوء السياسي .

وفي الوقت الحاضر فان أي استمرار لدخول مسلمين للإقامة في أوروبا الغربية هو جزء من قضية اللجوء ، مع أن الهجرة غير القانونية مستمرة عبر أسبانيا وإيطاليا خاصة . وفي هذا الصدد إنّه من المهم أن نتذكر أن الدول الأوروبية الآن لا تفضل لاجئاً على لاجئ آخر على أساس دينه وأن اللاجئين المسيحيين يتلقّون نفس العراقيل في الدخول كالمسلمين .

فأما عدد المسلمين في غرب أوروبا بعد هذه التطورات كلها يقترب الآن من عشرة ملايين تقريباً . وهذا هو زيادة مليونين خلال العشر السنوات الأخيرة . ومن المعروف أن أغلبية هذا الارتفاع هي نتيجة التوالد ولبست نتيجة الهجرة .

إنّ أيّة محاولة لتقديم أرقام من هذا النوع تبقى مخالفة للواقع ؛ لأن الاحصاءات الدولية الرسمية لعدد السكان ولأحوالهم الاجتماعية

والمادية لا تحتوي على معلومات عن الديانات. وفي حال عدم توافر مثل هذه المعلومات يجب علينا أن نستدل على معطياتنا من أرقام السكّان الذين أصلهم أو جنسيتهم في الخارج، على أن نفترض بأن الجزائريين والتونسيين والمغاربة والأتراك والباكستانيين هم مسلمون في الدين والثقافة، وثمّة إمكانية لإجراء بعض التصحيحات على الأقليّات غير المسلمة ضمن هذه الجنسيات مثل السريان والأرمن.

ولكن المسألة تصبح أكثر صعوبة عندما نأخذ بعين الاعتبار الجاليات القادمة من أقطار تحتوي على رعايا دينية أو طائفية كبيرة غير مسلمة مثل الهند ولبنان وفلسطين وسوريا والعراق ويوغسلافيا سابقاً وبلدان إفريقيا الصحراوية.

فبعد أخذ هذه المعلومات في الحساب نستطيع تخمين عدد المسلمين في كل من فرنسا بين ٣ ملايين ونصف و ٤ ملايين؛ وفي ألمانيا ١,٨٠٠,٠٠٠؛ وفي بريطانيا بين مليون وربع ومليون ونصف؛ و٤٠٠,٠٠٠ في كل من هولندا وإيطاليا؛ وحوالى ربع مليون في كل من إسبانيا وبلجيكا والسويد وبين ١٠,٠٠٠ و ١٥٠,٠٠٠ في كل من النمسا وسويسرا وأعداد ليست بأقل من عشرات الآلاف في الدانمرك والنرويج والبرتغال.

وهذه هي المعلومات والمعطيات الاحصائية والاجتماعية والتاريخية التي تعرّفنا على أوضاع المسلمين في أوروبا الغربية على الصعيد الظاهري. ولكن يوجد صعيد آخر، وهذا الصعيد هو مسائل التلاقي والاحتكاك بين التقاليد والثقافات والتراثات الإسلامية والشرقية من جهة والأوروبية والغربية من جهة أخرى. وبالنسبة للجاليات المسلمة يجب علينا الاعتراف بأنها جاءت بتقاليد مختلفة ومختلطة من أصول متعددة.

ومن المهم أن نلاحظ أن الأكثرية العظمى من الجيل الأول -أي الجيل الذي هاجر في العشرين سنة ما بين ١٩٥٥و١٩٧٥- هم من مناطق قروية وزراعية، وقد وجدنا بينهم نسبة الأميّين فوق الخمسين بالمئة وخاصة بين النساء اللاتي هنّ أمهات الجيل الجديد. وكذلك كان علمهم بأسس الإسلام ضعيفاً للغاية وكثيراً ما كانوا لا يعرفون حتى مجرّد العبادات.

وخلال العشر سنوات الأخيرة تغيّر هذا الوضع في حال اتساع الجيل الجديد. وقد استفاد الفتيان والفتيات المسلمون للغاية من تجربتهم التعليمية في المدارس الأوروبية بالرغم من مشاكلها التي سوف نرجع إليها فيما بعد.

ولكن من نتائج هذا التعليم توتر العلاقات بين هذا الجيل وآبائهم الذين قد يصعب عليهم فهم أوضاع أولادهم وتقدير ظروف مسيرتهم المعقّدة في الحياة اليومية في حضارة وثقافة غربية.

وما هذه الحضارة والثقافة الغربية؟

من المعروف أنّ ما نعبّر عنه بالحضارة الأوروبية هو نتيجة تمازج الحضارات اليونانية والرومانية والعربية والألمانية والحقائق والوقائع الموجودة سابقاً.

ولا تستطيع أي دولة أو أيّ شعب في أوروبا المعاصرة أن تدّعي بأنّها ليست إلاّ نتيجة التزاوج الإنساني والثقافي. وإذا أخذنا بريطانيا مثلاً فقد كان مستوطنوها الأوائل من السلتيين ويليهم النرويجيون والدنمركيون وبعدهم النورمانيون والهولنديون والفرنسيون البروتستانت؛ واغتنت في العصر الحديث باليهود وعدة جنسيات من جنوب وشرق القارّة.

وتستطيع جميع بلدان أوروبا الباقية إعداد قوائم مماثلة وهذا قبل الدخول في تفكيرنا للمهاجرين الكاريبيين والعرب والأتراك والباكتسانيين والهنود وغيرهم الذين أقاموا عندنا في الفترة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ومن المؤكّد أن تاريخنا الفكري والثقافي قد تشكّل من سلسة لا متناهية من الأفكار والآراء التي هي في تحرّك مستمر. ولكن في الحقيقة أصبح القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حداً فاصلاً قسّم بين الماضي والحاضر.

كان النجاح السياسي للفكرة القومية هو الأساس في الدولة القومية، فاستلزمت تحولاً نوعياً في المراحل التقليدية. فعملت الحركة الرومانسية والقومية في علاقة قريبة مع التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية، التي هي معروفة بصورة عامة تحت عنوان الثورة الصناعية. فخلقت هذه التطورات أسطورة تاريخياً جديداً للوطن الجديد ولجذورها الثقافية التي أكّدت على أسطورة التراث المشترك وعلى هويّة وطنية موحّدة.

ونتيجة لهذه الأوضاع شاهدنا مفهوم الدولة القومية الأحادية، التي بشكلها النموذجي تتميّز بتاريخ واحد وثقافة واحدة، وتتخصّص بشعب واحد يعيش في منطقة جغرافية واحدة ذات حدود معترف بها ويتحدّث بلغة واحدة.

وفي الواقع لا توجد دولة أوروبية وحيدة تتوفر فيها شروط هذا النموذج بكاملها؛ لأن ثمة في دستور كل دولة خصائص تشتمل تنازلاً جزئياً عن النموذج الصافي. ولكن الحقيقة تبيّن أن دولاً مثل بلجيكا

وسويسرا يعتبر كونها حالاً استثنائياً، ويؤكّد هذا الأمر بأن النموذج الذي قدّمناه هو نموذج مثالي. وبهذا نستطيع التوسع في المفهوم بتوضيح مضامين الثقافة المتحدة، وهي مثلاً ديانة مشتركة، وقانون مشترك، ونظام سياسي مشترك.

ولكن كلّما تعمّقنا في شرح هذه المسألة، توضّحت الأمور بأن للدولة القومية (ذات حضارة واحدة وشخصية واحدة) مصاعب جمّة تفسح المجال لانضمام الغرباء بشكل عام بينما يختلف الوضع جزئياً بين البلدان، وعلى سبيل المثال سننظر إلى مسألتين وهي مسألة التجنيس ومسألة السياسة التربوية.

فأما التجنيس (ومن المعروف أن مفهوم المواطنة الألماني هو قبائلي) فيعني أن كل فرد يدّعي أصله الألماني يستحقّ الجنسية الألمانية، بينما التركيّ المولود في البلاد، من والدين مولودين كذلك في ألمانيا، ليس له حق مماثل. وفي بريطانيا تختلف قوانين التجنيس اختلافاً كاملاً؛ لأن أساسها مفهوم الشعب بأنه رعية الملك. ونتيجة لذلك أصبح كل شعب سقط تحت الاستعمار البريطاني رعيّة للملك، ولذلك صار كل مهاجر أصله من مستعمرة بريطانية، أو من بلاد عضو في الكومنولث -أي المستعمرات السابقة- مواطناً بريطانياً بمجرّد التسجيل في السجلات المدنية. وطبعاً في كل بلدان غرب أوروبا يوجد قانون تجنيس عادي يعطي الجنسية على شروط وهي عادة إقامة عدة سنوات معيّنة، وشروط إضافية تختلف بين الدول الأوروبية.

وأما سياسة التربية فهي مرتبطة بنفس التساؤلات، أي شخصية الشعب والهوية القومية. وكما هو الوضع في البلدان العربية تعد التربية الرسمية وسيلة مركزية لبناء الوطن بجانب دورها وسيلة لصنع قوة عمل

في سبيل التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وأحياناً العسكري أيضاً. وبهذا نرجع إلى السؤال عن ماذا هو الوطن؟ وما مفهوم القوم؟ إن الجواب مختلف على حسب البلاد، ولكن بعد ما لحظناه عن مفهوم الجنسية الألمانية ليس بمفاجأة أنّ ثمة صعوبات ضخمة لتجارب تغيير البرامج التعليمية إلى جهة التربية التعدّدية الثقافية (muilticultural)، بينما في بريطانيا اتخذت المبادرات الأولى في هذا الاتجاه منذ خمس وعشرين سنة. وفي بلدان كالدانمرك وهولنداوالسويد أخذت الهيئات السياسية قرارات تقصد تنفيذ تغيّرات عميقة في الرأي العام والوعي القومي، ولهذه القرارات تأثيرات على نظام المدارس وعلى برامج التربية.

فما زالت الأوضاع تتطوّر وتتغيّر بصورة مستمرة لكن يظل حال الاختلاف الأساسي هو الدين.

منذ أكثر من ألف عام بقيت أوروبا الغربية مسيحية ومن وجهة النظر الإسلامي عامة كانت ولا تزال أوروبا هي قلب المسيحية، بالرغم من كونها ديناً مشرقي الأصل وبرغم بقائها الحيوي في البلدان العربية.

وحتى الآن يعد التراث المسيحي محور الهويّات القومية والشعبية الأوروبية في زمن الأزمات ولاشك. ولكنّ دور المسيحية قد تغيّر بشكل متطرّف عبر القرون القليلة الماضية تغيّراً يلخّص عادة بعبارة (العلمانية أو العلمنة).

هذا لا يعني بأن الدين اختفى -أي لم تصبح أوروبا ملحدة- ولكن يعني بأن أوروبا أصبحت مجتمعاً تعددياً. ففي المفهوم السياسي فإنّ أنظمة الدولة قد أفسحت المجال للاختلاف في الرأي. ولكن مازال ضمن الاطار العام إجماع جزئي بالنسبة لطرق المعاملة المتّفق عليها وبالنسبة للمؤسسات الدستورية. وفي المفهوم الاجتماعي توجد إمكانية

واسعة لتشكيل مجموعات وتنظيمات جماعية متنوّعة. وفي المفهوم الديني فالفرد قد أصبح السلطة الذاتية المستقلة؛ فينمو ويزداد الدين الفردي والشخصي بينما تضعف الديانة الرسمية والتقليدية وأنظمتها.

وبذلك أصبح الدين مسألة خاصة منفردة على الصعيد العام. وأثّر تاريخنا في غربية أوروبا أنّ هذه الرؤية الضيّقة والمحدودة صارت أساس القوانين والمؤسّسات التي تحيط وتختص بأوضاع الدين وعباداته ومعاملاته عاماً وخاصاً. فيعني هذا أنه بينما تصرّح بيانات حقوق الإنسان، والمعاهدات المعلّقة بها بحرية التعبير الاعتقادي والديني، فان هذا التعبير عندما يصبح جماعياً أو سياسياً يحدّد بكل سرعة بإجراءات محددة، بين الاستنكار والرفض وبين الحظر المطلق. ونشير في هذا الصدد إلى الاحتكاكات المستمرّة بين الكنسية والحكومة في بريطانيا وكذلك في فرنسا خلال السنوات الأخيرة.

وقد توارثت جميع الدول الأوروبية علاقات مختلفة، تعتمد على نظام الهيئات والمؤسسات بين الكنيسة والدولة. ويمتد نوع هذه العلاقات من كنائس الدولة، كما هي موجودة في الدول الاسكندنافية، إلى النظام العلماني كما هو موجود في النظام القانوني الهولندي أو الفرنسي. وفي هذه الأحوال، عرف المسلمون صعوبات كثيرة في الحصول على المساواة في الحقوق الدينية.

وقد سمحت ظروف خاصة بالاعتراف القانوني بالإسلام في النّمسا عام ١٩٧٩ وفي بلجيكا عام ١٩٧٤ وفي إسبانيا أوائل التسعينات وهناك نوع من الاعتراف القانوني في ألمانيا، ولكن لم ينجح أي طلب بالاعتراف القانوني في ألمانيا وحتى الآن.

وبين الاعتراضات التي أثارها بعض الخبراء لمطالب المسلمين لأجل الاعتراف بهم، الاعتراض على أن الإسلام يتعارض مع القانون الأساسي، أي الدستور فيما يتعلّق بالتمييز بين الجنسين. وبما أنّه يناشد سلطة عليا، الأمر الذي يتعارض ضمنياً مع أولوية القانون الأساسي وسيادته كما يقولون. ولكن في الوقت نفسه يبدو أن لا أهمية مثيرة للقلق للاعتراض بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية في البلاد، ففي بريطانيا حيث لا يوجد عنوان الاعتراف كهذا تعمل الكنائس التقليدية تحت ظل أنظمتها القانونية الخاصة وقد حافظت على تمثيلها في مجالات العلاقات العامة والدولية.

وفي هذه البيئة يعمل عدد كبير من الأنظمة والمؤسسات الإسلامية في إقامة العبادات وفي التربية الإسلامية وفي الخدمة الاجتماعية. وكثيراً ما نلاحظ أن هذا العمل يسير بالتعاون مع المنظمات الخاصة غير الإسلامية ومع منظمات الكنائس ومع الهيئات العامة في البلديات. ومنذ أربع سنوات أسست الحكومة المركزية مجلس الديانات للمدن الكبيرة، وانضم إليها مندوبو كل الديانات المهمة في بريطانيا وبينها الاسلام.

ومن ناحية أخرى فقد اكتشفت جمهوريتا فرنسا وهولندا العلمانيتان أنه من الممكن الى حد ما ولمدة محدودة في السبعينات، أن تمنح المنظمات الإسلامية مساعدات مالية أخذاً بعين الاعتبار أن ليست لديها المصادر المالية الموروثة.

وأما السويد فقد اعتبرت الانظمة الإسلامية من بين الفئات الدينية خارج كنيسة الدولة اللوثرانية. ونتيجة لهذا الاعتبار تتقبل ثلاث منظمات اتحادية إسلامية الإعانات الحكومية السنوية كالكنائس السريانية والمارونية والرومية على سواء التي هي أيضاً نتيجة الهجرة.

ومن المؤكد أن تحت عنوان النشاط الاجتماعي والتعليمي والثقافي تتقبل المنظمات الإسلامية بشكل منتظم ومميز الإعانات المالية والدعم المادي، ولكن يجب طلب هذا الدعم تحت عنوان غير ديني أي لا تمنح هذه الإعانات لمعاملات دينية في معناها المحدود.

أنه لمن الواضح أن هنالك مسائل عديدة مرتبطة بعضها ببعض على صعيد ممارسة الفرائض الدينية على المستويين الفردي والجماعي.

فمن ناحية ثمة مظاهر الحقوق الدينية التي يمكن عملها ضمن الاطارات الموجودة. وبما أنّ مثل هذه الحريات والحقوق مضمّنة في الوثائق الدستورية أو في المعاهدات الدولية يجب أن لا يوجد أي سبب لعدم امتدادها إلى جميع الجاليات الدينية مهما كانت أصولها وعقائدها وجنسية رعيتها على شرط احترامها للقوانين.

فمن الواضح أن هذا يشير إلى عدة أمور، منها حق الاجتماع من أجل العبادة وحق امتلاك مكان للعبادة وحق حرية طبع الأدب الديني ونشره، وقد يستطيع كثير من هذه المسائل، بتنفيذها العملي، أن يسيء إلى العلاقات بين المسلمين والمجتمع بمعناه الشامل. ومثلاً إذا سمح لليهود بالحصول على اللحم الكوشير، كما هو فعلاً مسموح في عدة بلدان كيف يحرم اللحم الحلال؟ ونعرف أنه بينما تبحث السلطات الرسمية عن طرق يتمكن بها من السماح بالذبح الإسلامي يعارض بعض الحركات الشعبية هذه الإجراءات.

وإذا سمحت وزارة التربية بوجود مدارس خاصة للكنائس، لماذا لا للمدارس الإسلامية؟ وفي كل البلدان الأوروبية تكون هذه المسألة سبباً للاحتكاك باستثناء الدنمارك وهولندا وتوجد في كليهما بين عشر مدارس إسلامية وخمس عشرة.

ويشعر المسلمون بأن الاعتراضات التي قد تثار بالنسبة لمشاريعهم العديدة هي عبارة عن تنكر لاعتراضات أساسية لها ارتباط وعلاقة مع نوع من الدفاع عن هوية وشخصية أوروبية ليس فيها محل للاسلام.

ولكنّ الصورة ليست سلبية بكاملها وخاصة خلال السنوات الأخيرة. وقد افتتحت مدارس إسلامية تمولها الدولة في الدنمارك وهولندا وتموّل النمسا مصاريف تعليم الاسلام ضمن المدارس الرسمية.

وقد اتسعت سبل التعاون بين المنظمات في بريطانيا، التي أنتخب فيها أول رئيس بلدية مسلم في مدينة برادفورد منذ ثماني سنوات. وفي عدة بلدان أوروبية فتحت فرص عديدة لبرامج إسلامية في إذاعة الراديو والتلفزيون. وفي الوقت الحاضر توجد في أغلبية المدن الكبيرة مساجد وجوامع. ومثلاً عندنا في مدينة برمنغهام اليوم بين سبعين وثمانين بناية تستعمل بشكل مستمر كمسجد وبينها ستة عمرت حديثاً كجامع ومنها يسمع أذان الظهر والعصر يومياً.

وفي كل البلدان الأوروبية اليوم يؤثر الجيل الجديد المتعلّم تأثيراً كبيراً على مسيرة الجاليات المسلمة وعلى التطور الاجتماعي الأوروبي بشكل عام، وبقدرتهم على انتقاد أوضاعهم الثقافية والاجتماعية يستطيعون التمييز بين جوهر الاسلام عقيدة وعملاً وبين التزايدات المرتبطة بزمان وبمكان وخاصة في هذا الصدد بين الخصائص الثقافية الموروثة من آبائهم.
إن هذا الجيل المسلم الأوروبي الجديد قد اجبرته أحوال حياته وتجربة تربيته، بمعناها الشامل، على أن يرجع ويكتشف طرق الاجتهاد في التفكير وفي تحليل الاوضاع المحيطة بهم وفي البحث عن حلول كل هذه التحديات. وأنا شخصياً أرى أن هذا الاجتهاد الجديد ستكون له

إمكانيات وتأثيرات ايجابية للغاية نستطيع أن نتعلم منها سواءً عندنا في الغرب وفي العالم الإسلامي.

وفي الختام، ومن باب التوكيد، بأن اقتصادنا الأوروبي في الماضي كان متلهفاً للترحيب بالمهاجرين من كل أنحاء العالم لأجل العمل في المصانع الخاصة وفي الاتصالات والنقليات العامة. وهذا لا يزال مستمراً في بعض الحقول في الصناعة كما في الزراعة. وأكد الضمير الاجتماعي الذي هو أيضاً جزءٌ من تراثنا الأوروبي، احترام الاسرة التي هي أساس المجتمع.

فقد انتجت هذه التطورات مجتمعاً متعدد الثقافة، مجتمعاً من نوع جديد يتطور وسيتطور بتربية أولاد المهاجرين وأحفادهم. وهذه هي الفترة التي يجب فيها تثبيت القواعد الانسانية، التي نفتخر بها دائماً، كنموذج لباقي العالم لنستوعب هذه الانسانية بمعناها الشمولي بجدية، على الصعيد الفردي كما على الصعيد الاجتماعي.

ومعنى هذا أن العلماني أيضاً يجب أن يستوعب الفكر الديني عند الآخرين بجدية كما تعلم المسيحي الأوروبي أن يستوعب بجدية العلماني وكما أن الكثير من المسيحيين يتطلعون إلى قبول المسلم كمسلم.

وإن إعطاء الوقت والحساسية والمجال تستطيع الاقليات الثقافية والدينية من خلال مصادرها وتجاربها أن تجد طرقاً لتلعب دوراً إيجابياً في أوروبا المستقبل.

١ . إنه من الصحيح أن المسلمين المهاجرين إلى غرب أوروبا في العصر الحديث لم يصل إلى بيئة فارغة من صور ومفاهيم عن الإسلام . وقد عمّرت هذه الصور طوال التاريخ المشترك ، الذي مدّته ١٤٠٠ سنة بدءاً من الصراع بين الدولة البيزنطية والفتوحات العربية الإسلامية وفيما بعد فتوحات الفرنج الصليبيين في بلاد الشام والأندلس ، والصراع الطويل بين الدولة العثمانية ودول وسط أوروبا ، وأخيراً عصر الاستعمارية الغربية . كل هذا التاريخ عمّر صوراً متبادلة هي أساس سوء الفهم الذي يسيء إلى العلاقات بين الحضارتين حتى أيامنا هذه . وكلما كان يحدث حادث وتطوّر أو خبر جديد له علاقة مع الإسلام نرجع للتذكر عن الصور والمفاهيم التي أصولها هذا التاريخ . وفي مثل هذه اللحظة ، كما أشرت إليه في محاضرتي ، تصبح أوروبا طائفية وتنسى علمانيتها التي هي بالفعل تطوّر جديد ولذلك تطوّر سطحي فقط .

٢ . سُئل عن عدد المسلمين الذين أصلهم أوروبي . إن الأوضاع تختلف بين البلدان الأوروبية وخاصة بين بريطانيا وبقية البلدان . ليست هناك احصاءات أو مصادر موثوقة تعطينا أرقام الأوروبيين الذين أسلموا ولكن من بحوث ميدانية نعرف أن الأعداد في ألمانيا وفرنسا هي عشرات الآلاف ، بينما في بريطانيا تصل إلى عشرة آلاف وربما أقل .

ولماذا هذا الفرق؟ إن السبب موجود في الثقافات التقليدية لدى الجاليات المهاجرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . إننا نحسب أن أكثرية إسلام الأوروبيين هو نتيجة زواج بنات أوروبيات من شباب

مسلمين. وبينما أنه من الواضح أن هذا النوع من الإسلام هو غير جدّي.. فكثيراً ما نشاهد أن هذه النساء يُصبِحْنَ مسلمات صحيحات عندما يكبر أولادهن.

ولكن في بريطانيا كانت تختلف الأحوال لأن الثقافة التقليدية في شمال شبه القارة الهندية تفترض الزواج داخل العائلة المتّسعة وداخل the caste بالرغم من رفض الإسلام بين الأوروبيين غير الإسلامّ بطريق الزواج هي بطريق التقاءات شخصية وخاصة بالتقاءات مع ظواهر التصوّف وشخصياته.

٣. إن طبيعة الهجرة المسلمة الحديثة إلى أوروبا سبّبت تساؤلات جديدة غير معروفة من قبل في المناطق الأصلية. إن الاستيطان الإسلامي عندنا هو استيطان مختلط ثقافياً؛ بمعنى أن مسلمين من أصل البنجاب وقبرص واليمن وبنغلادش اختلطوا في أنحاء إسكانهم في المدن البريطانية. وكانت طبيعة الاسكان المسلم المختلط في بقية البلدان الأوروبية مماثلة.

وبهذا انتهت حياتهم المستقرّة في قراهم الأصلية التي لم يكن فيها سبب للتساؤل عن ما هي العقيدة أو ما هي أسس الحياة الإسلامية الصحيحة من ناحية ومن ناحية أخرى؛ عن ما هو تقليد ثقافي محدّد لحياتهم التقليدية في قريتهم. ولكن عندما يجرّبون أن يعيشوا على طريقتهم التقليدية أمام جيران أصلهم من غير منطقة مسلمة وتقاليدهم مختلفة فإنه من المفروض أن يميّزوا بين إسلامهم وبين تقاليدهم المحدودة وعادة لا يستطيع جيل المهاجرين هذا التميّز. ونتيجة لذلك شاهدنا مدارس مسمّاة إسلامية في الدانمرك وهولندا وهي فعلاً مدارس عربية أو تركيّة أو باكستانية أو مغربية ... الخ.

ونتيجة لذلك أيضاً شاهدنا تأسيس جوامع ومساجد قومية واثنية ومسلكية ومذهبية أيضاً. فعلى سبيل المثال نستغني عن نصف المساجد الثمانين في مدينة پرمنجهام إذا حسبنا مجرّد نسبة استعمالها من جهة الرعية المسلمة ككل. ولكن توجد مساجد يمنية وبنغلاديشية ومرپورية ومجراتية وپنجابية وتركية وتركية قبرصية . وتوجد أيضاً مثلا بين المساجد الپنجانية مساجد تابعة لطرق صوفية مختلفة وللجماعة الإسلامية (أبوالأعلي المودودي) ولجماعة التبليغ ولمنظمات تنتمي إلى الإخوان المسلمين . . . الخ. فمن أهم التطوّرات خلال آخر ٥-١٠ سنوات هو رفض كثير من الجيل الجديد أن يقبلوا هذه الأحوال. ولو قدرنا مشاهدة الأوضاع بعد ١٥ سنة في المستقبل أعتقد أنا شخصياً أن هذه الأوضاع ستتغيّر تغيّراً إيجابياً للغاية.

٤ . من المؤكد أن وسائل الاعلام في الغرب تعمل في إطار رأي عام قد توارث صورة الإسلام السلبية التي قدمنا ذكرها. ولكن يجب علينا أيضاً الاعتراف بأن ثمة غير أصوات أخرى هي أقلية ولكن ليست بدون تأثير. ويجب علينا أيضاً الاعتراف بأن وسائل الاعلام الغربية هي التي أخبرت العالم كله عن مأساة البوسنة والشيشان وعن الانتفاضة في فلسطين وعن المذابح في مخيمات صبرا وشاتيلا.

إن جزءاً من المشلكة هو عدم الديمقراطية الكاملة عندنا. ومن الواضح أن عادة ثمة تأثيراً مباشراً direct effect، من الرأي العام، على الحكومة في السياسة الداخلية بينما تأثير الرأي العام على السياسة الخارجية عادة غائب.

وهذه وسائل الاعلام أيضاً تخبرنا عن أحداث تحريم لبس الحجاب عند بنات مسلمات في فرنسا، وتؤثر هذه الأخبار على الآراء العامة في أوروبا كما في العالم الإسلامي. ولكن لم تخبرنا هذه الوسائل أن المحاكم الفرنسية ألغت كل حادث تحريم للحجاب على أساس اعتراضه لحقوق المواطن ولحرية الديانة الدستورية.

ومع ذكر مسألة حقوق الانسان يجب عليّ أن أرجع إلى مسألة البوسنة لسببين:

أ) إن عدم تدخّل الحكومات الأوروبية في الأزمة من أول أيامها بالقوة -مهما كانت الأسباب- أتاح الفرصة لإحياء الكراهيات الموروثة، التي تكلّمنا عنها قبل، من جديد. وبهذا افتتحنا المجال لحساسية الشك ونقص الأمن بين الجاليات المسلمة في أوروبا الغربية. وافتتحنا من جديد باب الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وبين المتعصبين الإسلاميين. إن عدم الدفاع الأوروبي عن حقوق البوسنيين بسبب لجوئهم إلى العنف والارهاب، وهنا أمر يضر العالم الإسلامي أكثر بكثير مما يضرّ العالم الأوروبي.

ب) إن البلدان الغربية تفتخر عادة بتطبيقها لحقوق الإنسان المتعاهد عليها في الوثائق الأساسية لهيئة الأمم المتحدة. ولكن كيف نستطيع استمرار هذا الافتخار عندما نرفض تطبيق هذه الحقوق لشعب أو لدولة، ونلزم شعباً أو دولة بتطبيق نفس الحقوق. إن مثلاً عندنا يقول: "حقوق الإنسان لا تنقسم". ولكن في سياستنا الخارجية قسّمناها ونطبقها بطرق مختلفة حسب مصلحتنا. إذا استمررنا في هذه السياسة المخالفة للأصول التي نخطب عنها للعالم أضعنا احترام العالم واحترام الذات وخنّا الذين يجاهدون لتطبيق العدل في عالمنا هذا.

بين مفهوم المعجزة والإعجاز القرآني
نظرات نقدية

أ. د. عدنان محمد زرزور

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين وبعد:

أولاً: تعريف المعجزة وصفاتها:

لا بد من بيان الفروق بين آيات الأنبياء السابقين أو أدلتهم وبراهينهم على نبوتهم، وإعجاز القرآن؛ وذلك من أجل الوقوف على المسافة التي تفصل بين المعجزة كما دعيت -أو آيات الأنبياء بعبارة أدق- وإعجاز القرآن. ومن ثم: معرفة مدى التجاوز الذي وقع فيه علماؤنا الذين خلطوا بين هاتين المسألتين عند الحديث عن إعجاز القرآن.

أوجز بعض هؤلاء العلماء تعريف المعجزة بالقول: إنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة[1]، وعرفها بعضهم بأنها أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له على وجه يبين صدق دعواه، أو على وجه يدل على صدقه ولا يمكنهم معارضته. وجاء في تعريف ثالث أنها: «فعل الله سبحانه الخارق للعادة المقارن

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ٣٢٤

لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه غير مكذب، يعجز من يبني معارضته على الإتيان بمثل»[1].

وفي حين قال عضد الدين الإيجي صاحب (المواقف) إن حقيقة المعجزة ما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله. فإنه وضع لها - في بحث مفصل- سبع شرائط نوجزها فيما يلي:

الأول: أن يكون فعل الله؛ لأن التصديق منه لا يحصل بما ليس من قبله.

الثاني: أن يكون خارقاً للعادة؛ إذ لا إعجاز دونه.

الثالث: أن يتعذر معارضته فإن ذلك حقيقة الإعجاز.

الرابع: أن يكون ظاهراً على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له[2].

ثم تساءل الإيجي حول هذا الشرط بقوله: «وهل يشترط التصريح بالتحدي؟» فأجاب بقوله: «الحق أن لا، بل يكفي قراءة الأحوال، مثل أن يقال له: إن كنت نبياً فأظهر معجزاً ففعل».

---

(١) شرح السنوسية الكبرى، ص ٣٥١، وانظر الإقتصاد في الإعتقاد الإمام الغزالي ص ٩٦-٩٨ ومقدمة ابن خلدون ص ٨٦ ٢٤

(٢) التلازم أو الإقتران كاحتراق القطن عند ملاقاة النار مستمر أو قائم بجريان سنة الله تعالى، لأن فاعل الإحتراق على الحقيقة هو الله تعالى. قال الإمام الغزالي يرد على الفلاسفة: إن الخصم يدعي أن فاعل الإحتراق هو النار فقط، وهو فاعل بالطبع لا بالإختيار فلا يمكنه الكف عما هو من طبعه. وبعد أن قال الإمام الغزالي: إن النار جماد لافعل لها. قال: (وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الإحتراق عند ملاقاة النار. والمشاهدة تدل على الحصول عنده، ولا تدل على الحصول به)، ويقول إمام الفلسفة النقدية (كانت) فلقد يجوز لك أن تتصور الشمس مشرقة من المغرب في الغد، وأن النار قد تتبدل عليها الظروف فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية. راجع الإقتصاد في الإعتقاد، الغزالي، ص ٥٠، والفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، ٢٣-٢٩ وقصة الفلسفة أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ١/ ١٧٩، ومقالة في المعرفة للدكتور عدنان زرزور ص ٤٥.

أما **الشرط الخامس**: فأن يكون موافقاً للدعوى، فلو قال: معجزتي أن أحيي ميتاً، ففعل خارقاً آخر لم يدل على صدقه.

السادس: ألا يكون ما ادعاه وأظهره مكذباً له، فلو قال: معجزتي أن ينطق هذا الضب، فقال إنه كاذب! لم يعلم به صدقه بل ازداد اعتقاد كذبه. ثم يستدرك الإيجي قائلاً: «نعم لو قال: معجزتي أن أحيي هذا الميت، فأحياه فكذبه، ففيه احتمال. والصحيح أنه لا يخرج بذلك عن كونه عجاً، لأن المعجر إحياؤه، وهو بعد ذلك مختار في تصديقه وتكذيبه، ولم يتعلق به دعوى. وندع هنا الشرح والتعليق من التنويه بهذا التنبه، حتى في هذا السياق إلى حرية الإرادة بوصفها مناط التكليف. أما **الشرط السابع** والأخير فهو «ألا يكون متقدماً على الدعوى بل مقارناً لها؛ لأن التصديق قبل وقوع الدعوى لا يعقل! فلو قال معجزتي ماقد ظهر على يدي قبل، لم يدل على صدقه، ويطالب به بعد، فلو عجز كان كاذباً قطعاً»[1].

جاءت هذه التعريفات والشروط -ونحوها كثيرة في سياق الحديث عن النبوات السابقة، وعن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وما أيده الله تعالى به من المعجزات الدالة على هذه النبوة الخاتمة وبخاصة معجزة النبي الكبرى: القرآن الكريم. ووقفتنا هنا عند هذا الجمع، لأننا لا نستطيع التسليم بتعريف جميع (المعجزات)، أو ببيان ماهية (المعجزة) على نحو واحد. كما لا يمكننا التسليم بصواب تلك الشروط أو بعمومها وانطباقها على جميع النبوات نظراً للخصوصية التي تمتع بها النبي صلى الله عليه وسلم في معجزته الكبرى: القرآن الكريم: أي أن ما ينطبق على

---

(١) تفسير الطبري: جامع البيان ١/٢٨ وبهامشه النيسابوري.

النبوات السابقة جميعها لا ينطبق بالضرورة على (إعجاز القرآن) وكذلك العكس.

ونحن إذا أنعمنا النظر في تاريخ النبوات السابقة عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووقفنا على طبيعة المعجزات التي جاء بها الأنبياء السابقون، وعلى الصفات التي اتصفت بها (المعجزة) في هذا التاريخ؛ فإننا نلاحظ أن (المعجزة) لم تكن أكثر من دليل أو برهان على النبوة، أو حجة للنبي على قومه بغض النظر عن مسألة (التحدي)، أو شرط التحدي وجد أم لم يوجد. وربما كان الماوردي قد قصد إلى شيء من هذا حين قال: «وإذا كانت حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم. فالمعجز هو ماخرق عادة البشر من خصال لا تستطاع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقاً على اختصاصه برسالته» فسماها «حججاً» أي أدلة وبراهين، وذكر أن الغاية منها «تصديق» النبي في دعواه، أو في أن الله تعالى خصه برسالته. كما أن الإيجي تساءل فيما نقلناه عنه قبل قليل بقوله: «وهل يشترط التصريح بالتحدي»؟ ثم أجاب بقوله: «الحق أنه لا، بل يكفي قرائن الأحوال» فنسب (التحدي) إلى هذه القرائن، وليس للنبي ولهذا تساءل فقط عن (التصريح) بالتحدي لا عن شرط التحدي ذاته بعد أن ذاع وشاع على ألسنة العلماء.

أما الصفات التي اتصفت بها (المعجزة)، أو أدلة الأنبياء في تاريخ النبوات، وكما يدل على ذلك واقع الحال أو الاستقراء، وبغض النظر عن القيود التي أشير إليها في التعريفات السابقة فهي كما يلي:

الصفة الأولى:

كونها أمراً حسياً ناقضاً للعادة، ومخالفاً للمألوف من سنن الكون والطبيعة. وقد أجمعت التعريفات السابقة وغيرها على هذه الصفة، وهي أن المعجزة أمر خارق للعادة؛ يريدون أنها ليست مخالفة للعقل،

ولا مناقضة لحكم من أحكامه؛ لأن التلازم الموجود أو القائم في الطبيعة بين الأسباب والمسببات مصدره العادة أو الحس والمشاهدة، وليس مصدره حكماً من أحكام العقل، أي أن هذا التلازم ليس من جنس التلازم الموجود بين المقدمات والنتائج في القضايا العقلية أو المسائل الرياضية[1].

الصفة الثانية:

كونها من جنس الفن أو من الباب الذي كان يحسنه قوم النبي الذين بعث فيهم، أو الذي اشتهر في بيئهم أو عرف عنهم وبرعوا فيه. ويعود السبب في هذه الصفة فيما يبدو إلى أن هؤلاء القوم هم أولى من يعلم انفصال ماهم عليه -أو مابرعوا فيه- من جنس المعجزة التي جاء بها نبيهم. ولهذا يمكن عدها -أي هذه الصفة -نوعاً من البيان أو إزاحة العلة أو (اللطف) -إذا استعرنا بعض مصطلحات المعتزلة -الذي يكون مع المكلف أقرب إلى الإيمان والتصديق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ (سورة الحجرات: ٧).

ولهذا كان سحرة فرعون أول من آمن؛ لأنهم علموا علم اليقين أن ماجاء به موسى ليس من جنس السحر، بل إنهم دفعوا حياتهم ثمناً لهذا الإيمان العميق والحازم، وقد جابهوا فرعون بقولهم ﴿فاقضِ ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ (سورة طه: ٧٢) حين توعدهم بأبشع صورَ القتل: ﴿فلأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنّكم في جذوع النخل﴾ (سورة طه: ٧١).

---

(١) الفهرست ابن النديم تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان، ص٨١، والأعلام، الزركلي، ٣٦٧/٦.

الصفة الثالثة:

كونها مفصولة عن دعوة النبي ورسالته ومضافة إليه؛. أي أنها تمثل عنصراً خارجياً عن الكتاب أو الوحي الذي نزل على النبي. فإذا عبرنا عن هذا المنزل بأنه (دعوى) النبي، فإن برهان هذه (الدعوى) ودليلها جاء مفصولاً عنها ومضافاً إليها؛ فقد جاء موسى عليه السلام بالتوارة، وكانت آيته -أو معجزته- قلب العصا حية. وجاء عيسى بن مريم بالإنجيل، وكانت آيته -أو معجزته- إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

ولم يصف أحد التوراة ذاتها أو الإنجيل نفسه بحكم كونهما وحياً إلهياً، أو منزلين من عند الله بالمعجزة، فضلاً عن الإعجاز الذي وصف به القرآن الكريم فيما بعد.

الصفة الرابعة:

وغني عن البيان أن نذكر أخيراً أن هذه الآيات -أو المعجزات- تاريخية، بمعنى أنها وقعت في التاريخ، و رآها قوم النبي الذين بعث فيهم، وشاهدوها -بوصفها معجزات أو خوارق حسية كما قدمنا- ثم انتهت الرسالات والمعجزات جميعاً. ولا يعدو أن يكون الحديث عنها الآن، أو بدءاً من عصر نزول القرآن الكريم وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم لا يعدو أن يكون حديثاً عن خوارق وقعت في عصر من العصور، ومن ثم فإن التسليم بوقوعها يعتمد على الرواية والنقل، لا على المعاينة والمشاهدة بطبيعة الحال، ولهذا فإن إيماننا نحن المسلمين أو تصديقنا بوقوع هذه المعجزات أكّد -فيما نلاحظ- من تصديق كثير من أولئك الذين وقفوا في الإيمان عند عتبة تلك الرسالات. ولم يتجاوزوا أنبياءها وكتبها إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن؛ لأن مسألة النقل

عندهم يكتنفها الغموض والاضطراب؛ ولأن أسانيدهم في الرواية لا تصمد أمام قواعد النقد العلمي، وهي المسألة التي أثارها على وجه الخصوص الفيلسوف (اسبينوزا) في رسالته عن اللاهوت والسياسة، حين عرض بالنقد لأسانيد العهد القديم- في حين أن القرآن الكريم ارتقى بهذه المعجزات أو الخوارق في عقيدة المسلم، كما ارتقى كذلك بسيرة الأنبياء السابقين وحياتهم مع أقوامهم، إلى درجة التوثيق الإلهي الذي لا يعتريه باطل ولا يتطرق إليه شك.

ثانياً: بين هذه المعجزات وإعجاز القرآن:

إذا انتقلنا إلى الحديث عن خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإننا نجد أن آيته وبرهانه على صدق نبوته وعلى أنه رسول يوحى إليه: (إعجاز القرآن)، وبغض النظر عن الآيات الحسية التي جرت على يديه، فعل الأنبياء السابقين، لأنها لم تكن المناط الأهم للإيمان والتصديق، ونحن إذا قارنا (إعجاز القرآن) بمعجزات الأنبياء السابقين أو بالصفات المذكورة -وبإيجاز شديد- فإننا نلاحظ مايلي:

أبرز سمات إعجاز القرآن وأخطرها أنه مقرون بالتحدي؛ بل هو ثمرة له ونتيجة لعدم الاستجابة لهذا التحدي، أو لعدم القدرة على الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله أو بعشر سور مثله مفتريات. ولعلنا لو قلنا: إن الإعجاز لا معنى له بدون هذا التحدي لما كان ذلك بعيداً. ولهذا لم ترد كلمة (الإعجاز) في القرآن الكريم كما وردت كلمة (برهان) أو سلطان بحق الأنبياء السابقين؛ لأن هذا المصطلح إنما ظهر بثمرة للتحدي المذكور في آيات التحدي الخمس رداً على من زعم أن القرآن مفترى، أو ظن أنه من عند غير الله. وربما كان الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير

المتوفى ٣١٠هـ) أول من تحدث عن «البرهان الذي يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق» وعن «عجز المشركين والكفار عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن» بوصف هذا المعجز حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه[١]. علماً بأن أول كتاب حمل عنوان (إعجاز القرآن) كان (لمحمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦هـ)، والذي أخذ علم الكلام عن أبي علي الجبّائي المعتزلي[٢]. وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب مع كتب أخرى حملت عنوان «نظم القرآن» لابن الإخشيد، وللحسن بن علي بن نصر، وللجاحظ. وذكر هذه الكتب الأربعة تحت عنوان: «الكتب المؤلفة في معاني شتى من القرآن»[٣].

السمة الثانية: أن إعجاز القرآن -كما يدل عليه اسمه- ليس مفصولاً عن الوجه والرسالة، كما هي الحال في رسالات الأنبياء السابقين؛ فالكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، وآية النبي أو معجزته الدالة على نبوته قائمة في الكتاب نفسه، أو هي الكتاب نفسه، ومعنى ذلك أن (الدعوى) ودليلها، أو القضية وبرهانها شيء واحد.

قول ابن خلدون: ثم يربط ابن خلدون بين هذه السمة أو هذا المعنى والحديث التالي للنبي صلى الله عليه وسلم: قال: وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما

---

(١) انظر الأعلام الزركلي، ٧/ ١٣٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨.

(٣) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر رحمه الله لكتاب (الظاهرة القرآنية) للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ص ٠٣٠

مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحي إلي، فأنا أرجو أن أكثرهم تابعاً يوم القيامة).

أما وجه الربط والاستدلال فهو ماعقّب به ابن خلدون على هذا الحديث الشريف بقوله الصائب: قال: «يشير بذلك إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الحي، كان الصدق لها أكثر، لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة»[1] ولا يسعنا ونحن ننقل هذا الكلام النفيس لابن خلدون إلا أن نؤكد على أن الحديث النبوي أشار إلى معجزات الأنبياء السابقين على أنها آيات كما لاحظنا في مطلع هذا البحث. وفي الوقت الذي قوبلت فيه هذه الآيات بالقرآن والوحي، أو بإعجاز القرآن.

«اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها، وأوضحها دلالة، القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرةً للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه. والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجزة فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل له كسائر المعجزات مع الوحي. فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه».

ويبدو عند التدقيق في هذه السمة، ومن خلال معارضتها مرة أخرى بالسمة المقابلة في رسالات الأنبياء السابقين -سمة الفصل بين كتبهم ومعجزاتهم- أن المعجزة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لا تتصل كذلك بالقرآن من حيث هو وحي ينطبق عليه ما ينطبق على التوراة والإنجيل؛ بوصفها جميعاً من كتب الله المنزلة، ولكنها تتصل بالمعنى

---

(١) قيل: «ولا يثبت إعجازه على الكافة إلا بما يعزب على الكافة الإتيان بمثله، مع اعترافهم بأن في مقدورهم من جنسه» الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ابن القيم ص ٣٣٨.

الإضافي أو الخاص الذي صار به هذا الوحي الأخير معجزاً أو الذي وقع به التحدي وتحقق -من ثم- الإعجاز، بدليل أن تلك الكتب ليس فيها (إعجاز) على الرغم من كونها وحياً يوحى.

وليس في وسعنا، ولا من همنا هنا، أن نستقصي هذا المعنى؛ لأنه يتصل بتاريخ الإعجاز الطويل كما هو معلوم. ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أمر حاسم، وهو أن العلماء في القرون الأولى، ومعظمهم أو كثير منهم في سائر القرون بحثوا عن هذا المعنى في «وصف القرآن وبيانه ونظمه، وفي مدى مباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب»[1]، ولم يبدأ البحث عن هذا المعنى في مضامين القرآن؛ أي في الوحي أو (الدعوى) والرسالة ذاتاً إلا عند بعض العلماء من جهة، وفي ركاب الحديث عن النظم والبيان أو في خضم الحديث عن هذا النظم من جهة أخرى. ويبدو أن أول النقاط ظهوراً في هذا الجانب كان الحديث عما تضمنه القرآن الكريم من أخبار الغيوب المستقبلة.

ندع هذا الآن لنقرر أن اتجاه العلماء إلى البحث عن إعجاز القرآن في بيانه ونظمه كان صحيحاً ومنطقياً تماما؛ لأن التحدي لا يكون تحدياً على الحقيقة إلا إذا كان الأمر المتحدى به معروفاً عند من يتحداهم، ومتساوياً، في صورته وظاهره، مع مقاييسهم والمعهود من أوضاعهم[2]. وإلا لا فتقر إلى شروط التحدي الحقيقية، وكان تليفاً بما لا عهد لهم به أو بشيء غير مؤهلين للإتيان بمثله.

---

(١) كتاب الصناعتين، ص٧.

(٢) الطراز، ٣٢/

والأمر الذي يؤكد أن إعجاز القرآن انطلق من هذا المعنى السليم أو من هذه الدائرة الصحيحة: أثره البارز في نشأة علم البلاغة العربية كما هو معلوم. وعلى الرغم من أن هذين العلمين: علم إعجاز القرآن وعلم البلاغة العربية سارا فيما بعد جنباً إلى جنب؛ فإن البلاغة كانت الوسيلة لإدراك الإعجاز، وبقيت -لذلك- في خدمة هذا العلم الجليل. قال أبو هلال العسكري، «وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب. . . »[1]. وقال الإمام يحيى به حمزه العلوي: «يراد علم البلاغة لمقصدين: الأول منهما مقصد ديني وهو الإطلاع على إعجاز كتاب الله. عرف البلاغة بأنها«علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز؛ لأن الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الإطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه»، وحين أخر الحديث عن الإعجاز في كتابه المشهور في البلاغة -الطراز- إلى الفن الثالث من علوم هذا الكتاب قال: «ونحن وإن ذكرناه على جهة التتمة والتكملة فهو في الحقيقة المقصود والغرض المطلوب»[2].

وقد سمى كتابه: (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز). بل إن الإعجاز إذا أطلق صار يراد به البلاغة نفسها.

قلت: وربما حملت إشارته السابقة إلى الإجماع المنعقد على ذلك من جهة أهل التحقيق، الدلالة على أن الإعجاز كان قد خرج به إلى ساحة أخرى في هذا العصر المتأخر (توفي يحيى بن حمزة عام ٧٤٩هـ) من قبل

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٢١٣

(٢) الطراز، ١/ ٣٣

غيـر أهل التـحـقـيـق، أو من قـبـل الذين لا يعـتـد بخـروجـهم على هذا الإجماع. ولهذا قام بنقض فكرة (الصرفة) -كما سنتحدث فيما بعد- وأكد على أن القرآن إنما كان إعجازه من أجل ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة. ولم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه»[1].

السمة الثالثة: وغني عن البيان أن نشير بعد ذلك إلى سمة الخلود أو الاستمرارية وعدم الانقطاع التي تميز إعجاز القرآن؛ بمعنى أن الإعجاز لا نتحدث عنه اليوم، ولا تبحث فيه الأجيال القادمة بوصفه مسألة تاريخية مقصورة -أو كانت مقصورة- على عصر معين، أو على جيل على وجه الخصوص، ولكنه قائم ومستمر إلى يوم الدين، بدليل قوله تعالى في سورة البقرة: «ولن تفعلوا» قال تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» سواءً قلنا إن (لن) لمطلق النفي أم لتأبيد النفي كما ذهب إلى ذلك الزمخشري. وبدليل آية سورة الإسراء التي أطلقت هذا التحدي في آخر مراحله، فأشدها وطأة في باب التعجيز والتيئيس؛ قال تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (٨٨). فالإنس والجن مجتمعين ومتظاهرين لو قدر لهما التعاون والتظاهر -أو حين يقدر لهما ذلك- (لا يأتون) بمثل القرآن. بصيغة المضارعة هذه (يأتون) الدالة في هذا السياق على الاستقبال. والجدير بالذكر أن هذه الآية لم يأت التيئيس فيها مقروناً بالرد على من زعم أن القرآن مفترى، أو إن زعم ذلك ولكنه

(١) الآيتان ١-٢ من سورة الجن: وانظر الآيات ٢٩-٣٢ من سورة الأحقاف.

جاء عاماً ومطلقاً. وربما كان هذا هو السبب في مجيئه دالاً على الاستقبال كما قلنا.

وتحسن الإشارة في هذا السياق إلى أن ضم الجن إلى الإنس له دلالته المهمة، لا بحكم قدرات الجن وكونهم من عالم الغيب فحسب، والقرآن وحي من عالم الغيب، ولكن كذلك بحكم كونهم مخاطبين بالقرآن الكريم، وأن فيهم المؤمن والمكذب برسالة الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم بحكم انفعال النفر الذين استمعوا إلى قراءة النبي للقرآن: وتأثرهم عند سماعه ووصفهم له بما يدل على إدراكهم لبعض أسراره أو وجوه إعجازه: قال تعالى في مطلع السورة المسماة باسمهم: «قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا»[1]، فوصفوا القرآن بمجرد سماعهم له، بما يدل على إعجابهم بأسلوبه، وإدراكهم لرسالته ومضامينه، فقد وصفوه بأنه (عجب)، وأنه «يهدي إلى الرشد» الأمر الذي دعاهم إلى اطراح الشرك والدخول في دين الله. إن اسلامهم بمجرد سماع القرآن يدل على أنه أحدث في نفوسهم وعقولهم مثل ماأحدثه هذا السماع في نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو قريباً منه. (وقد بين الله تعالى في غير آية في كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم وأنه ليس من كلام بشر، بل هو كلام رب العالمين. وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (التوبة: ٦)[2].

---

(١) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر رحمه الله لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن بني ص ٢٥.

(٢) راجع كتابه (إعجاز القرآن) بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله ص٦٦

٤ . **السمة الرابعة:** والسؤال الآن: أو الذي يطرح نفسه أخيراً: هل يقابل استمرار التحدي ولزوم الإعجاز في جميع العصور بالقول: «إن كل عصر له واحد من أسباب الإعجاز مالم يكن الجيل أو العصر السابق قد وقف عليه؟».

والجواب: أن ذلك ليس شرطاً بطبيعة الحال؟ فقد توجد نظريات وآراء في تفسير الإعجاز في بعض العصور دون بعض، وقد يمثل عصر لاحق -في بعض الأحيان أو على ألسنة بعض العلماء- نكوصاً عن عصور خلت، كما هي الحال في مسائل الفكر والنقد والأدب والفن، وفي سائر المعارف المتعلقة بالإنسان بوجه عام. والأصل في جميع الأحوال: استمرار التحدي ولزوم الإعجاز؛ سواء أذهبنا في تفسير الإعجاز مذهباً جديداً أم عولنا فيه على آراء المتقدمين.

وإذا كان باب القول في إعجاز القرآن لا يوصد إلى يوم الدين؛ فإن في وسعنا أن نقول في هذا الموقف، ومن خلال استعراض تاريخ الإعجاز: إن كل الآراء التي قيلت في تفسيره، أو في تعيين الوجه الذي كان به القرآن معجزاً حتى استحال على الثقلين أن يأتوا بسورة من مثله... لا تتسع فيما يبدو لترجمة شعورنا بحقيقة الإعجاز ونحن نقرأ القرآن الكريم أو نستمع إليه! على الرغم من بعدنا النسبي عن السليقة العربية. فضلاً عن أن هذا هو شعور المتذوق للبلاغة العربية، وشعور الذين اعتادوا على مزاولة فن الكتابة والتعبير.

ويبدو أن شعوراً من هذا القبيل كان يخامر بعض العلماء الذين كتبوا في الإعجاز، كالإمام الباقلاني على سبيل المثال. فقد دفعه هذا الشعور -فيما نقدر- إلى جمع طائفة من خطب النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله، ومن خطب سيدنا علي وبعض الصحابة رضي الله

عنهم أجمعين، إلى جانب طائفة أخرى من أبلغ ما وصل إلينا من خطب أرباب البيان[(١)]، ومقارنة هذه الخطب والأقوال والأحاديث بالقرآن الكريم، ليثبت للقارىء من خلال هذا الدرس العملي أو التطبيقي انفصال كلام الله تعالى عن سائر أنواع الكلام بوجوه من البيان صار بها معجزاً أبد الدهر، وكأن لسان حاله يقول: وإن قصّر بالكاتب علمه وقلمه عن إدراك هذه الوجوه أو نقلها والتعبير عنها.

بل إن هذا ماصرح به الإمام يحيى بن حمزة بعد ذلك: مؤكداً على أن تميز القرآن عن سائر هذه الضروب من الكلام البليغ لا يشتبه على (من له أدنى ذوق في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته) فعول في هذا الفهم أو التمييز على (الذوق) على الرغم من أنه فصل القول بعد ذلك في أسباب ومرجع ذلك التميز من الوجهة البلاغية. قال الإمام يحيى بن حمزة العلوي: (إنك إذا فكرت وأمعنت النظر في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كلام أمير المؤمنين وغيرهما ممن كان معدوداً في زمرة الفصحاء، وكان له منطق في البلاغة في المواعظ والخطب والكلم القصيرة، ومواقع الإطناب والاختصار في المقامات المشهودة والمحافل المجتمعة وجدت القرآن متميزاً عن تلك الكلمات كلها تمييزاً لا يتمارى فيه منصف، ولا يشتبه على من له أدنى ذوق في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته)[(٢)].

بل إن السكاكي (ت ٦٢٦) نص على مسألة (الذوق) هذه وأبان عن مقصده فيها في سياق حديثه عن البلاغة التي (تأخذ في التزايد متصاعدة

---

(١) الطراز ٣/ ٢١٥.

(٢) مفتاح العلوم تحقيق د. نعيم زرزور ص ٤١٦ قال السكاكي: (وطريقة اكتساب الذوق: طول خدمة هذين العلمين° البلاغة والفصاحة)

إلى أن تبلغ حد الإعجاز) الذي وصفه بأنه (عجيب ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة! ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا)(١).

ثم نجد الأستاذ الأديب الناقد المفسر سيد قطب رحمه الله يشير كذلك إلى هذا المعنى، على الرغم من إضافاته وإضاءاته المهمة في تاريخ الإعجاز، والتي أفردت بالبحث والتصنيف. قال رحمه الله في تفسير آية سورة يونس: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (الآية ٣٨): (وقد ثبت هذا التحدي وثبت العجز عنه› وما يزال ثابتاً ولن يزال. والذين يدركون بلاغة هذه اللغة، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان)(٢). وقال أيضاً: (والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى مافي الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب. . .) ثم قدم للإلمامة الخاطفة التي قدمها عن الإعجاز بمناسبة شرحه للآية المذكورة، بقوله:

(ومع تقدير العجز سلفاً عن بيان حقيقة هذا الإعجاز ومداه، والعجز عن تصويره بالأسلوب البشري. ومع تقدير أن الحديث المفصل عن هذا الإعجاز، في حدود الطاقة البشرية، هو موضوع كتاب مستقل، فسأحاول هنا أن ألم إلمامة خاطفة بشيء من هذا. إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري. . . . إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٥

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٦-١٧٨٧

للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لايعرفون من العربية حرفاً).

ثم شرح طرفاً من هذا السلطان بين يدي الحديث عما أسماه: (الجوانب المدركة التي يعرفها أكثر من غيرهم من يزاولون فن التعبير، ومن يزاولون التفكير والشعور)[1].

ونؤكد مرة أخرى على أن سيد قطب رحمه الله تعالى يقول هذا على الرغم من حديثه عن بعض مزايا الأداء القرآني على نحو غير مسبوق، فضلاً عن حديثه أو نظريته في التصوير الفني، وما دفع به عن هذه الفكرة في وقت مبكر. وإن كان الحق أن نقول: إن هذه الإضافات التي قدمها سيد قطب إنما جاءت وراء ملاحظاته تلك، أو وراء منهجه (الذوقي) وتعويله في إدراك الإعجاز على الذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم (بصر بالأداء الفني) بحسب عباراته رحمه الله.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن منهج (التذوق) في إدراك إعجاز القرآن أو بعض وجوه هذا الإعجاز، لأن هذا بحاجة إلى دراسة موسعة، ولكن حين يتحدث أديب ناقد مثل الأستاذ سيد قطب، وراوية أديب صاحب بيان غير مسبوق خلال مئات السنين أو منذ أيام الجاحظ (ت٢٥٥)، وأعني الأستاذ محمود شاكر رحمه الله. عندما يتحدث كل منهما عن هذا المنهج (الذوقي)أو منهج التذوق في إدراك إعجاز القرآن أو في نقد النصوص الأدبية والتعامل مع الشعر والنثر بوجه عام؛ فإن الأمر يحتاج في هذه العجالة إلى شيء من البيان.

---

(١) راجع قصة الفلسفة الحديثة لأحمد أمين وزكي نجيب محمود ٢/ ٣٦٦-٣٧٢ وكتاب المذهب فى فلسفة برجسون للدكتور مراد وهبة ٦٠.

يذكرنا هذا المنهج الذوقي بمذهب الحدسيين في المعرفة، وهو المذهب القائل إن المعرفة بصرية أو لقانة. وأبرز من دافع عن هذا المذهب من الفلاسفة المعاصرين (هنري برجسون)[1]. الذي دار حديثه عن معرفة تنفذ إلى باطن الشيء لا عن معرفة تدور حوله، وعن معرفة لا تلعب فيها اللغة دوراً وعن معرفة مطلقة لا عن معرفة نسبية! وعند التأمل فيما عرضه (برجسون) نجد أن للحدس عنده طابعاً عقلياً، بل نجده يتحدث أو يصف معرفة فائقة للعقل تسمو على كل ضرب من ضروب المعرفة الاستدلالية المحضة! وفي ذلك يقول برجسون: (إن المعرفة العلمية الدقيقة بالواقع لهي الشرط الضروري الذي لا بد أن يسبق كل حدس ميتافيزيقي يكون من شأنه أن ينفذ إلى مبدأ تلك الوقائع).

فلا تعطيل إذن عنده لأي من الحس أو العقل، ولكنه انطلاق منهما ومن ثم تجاوزهما إلى أفق الحدس أو (البصيرة) وكذلك الحال في موضوعنا. لا إهمال لأي باب من أبواب البلاغة والنقد ومدارس تحليل النصوص، بل على العكس من ذلك: نحن أمام بصر هائل بتلك الأبواب واطلاع شامل ومعايشة مستمرة لا تكاد تنقطع مع هذه النصوص.. يفضيان بصاحبها أو يصلان به إلى درجة الحدس إن صح التعبير أو إلى (مقام) التذوق وإدراك مواطن الجمال وتقرير ما يستطيعه الإنسان أو يقدر عليه، أو لا يستطيعه ولا يقدر عليه من ضروب الكلام وفنون التعبير. لقد جاء حديث كل من سيد قطب ومحمود شاكر من هذا المنطلق أو على هذه القاعدة في الفهم المتميز للنصوص والحديث المتميزعن إعجاز القرآن في وقت واحد.

---

(١) راجع شرح السنوسية الكبرى، ص ٣٥٣

نذكر هذا وننوه به على الرغم من تسليمنا بأهمية بعض الآراء والنظريات التي قيلت في تفسير إعجاز القرآن ودورها في الأخذ بيدنا نحو تذوق الكثير من جوانب هذا الإعجاز وإدراك مواطنه والوقوف على أسبابه. ويأتي في مقدمة هذه الآراء والنظريات -فيما نرجحه ونذهب إليه- نظرته النظم التي بسط فيها القول الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) وبالمفهوم الذي ذهب إليه رحمه الله، مع الإشارة إلى أن نظرية النظم هذه عند عبد القاهر ربما كانت تطويراً وامتداداً لما كتبه الجاحظ في رسالته (نظم القرآن) أو انطلاقاً منه وتأسيساً عليه.

والذي نراه -بهذه المناسبة- أن نظرية النظم هذه ماتزال تشكل قاعدة ماقيل في تفسير الإعجاز وهيكله العام إن صح التعبير. ولم نر فيما اطلعنا عليه حتى الآن من آراء ونظريات ما يمكن عده قسيماً لهذه النظرية، أو تمضية عليها، بل مالا تتسع له هذه النظرية بوجه عام، اللهم إلا فكرة الصرفة التي ندت عن أي اعتبار، وكما سنعرض لذلك فيما بعد.

ثالثاً: أبرز القضايا التي تثيرها هذه السمات في ضوء تعريف المعجزة إذا عدنا للنظر في هذه السمات الخاصة بإعجاز القرآن في ضوء تعريف المعجزة الذي صدرنا به هذا البحث. أو توقفنا لمقارنة هذه السمات بالتعريف أو التعريفات المذكورة؛ فإن في وسعنا أن نلاحظ القضايا التالية:

القضية الأولى: أن (معجزات) الأنبياء السابقين لم تكن مقرونة بالتحدي بأي عبارة من العبارات؟ اللهم إلا أن نقدر نحن أو نقول: إن الموقف كان يقتضي ذلك ويدل عليه!! ولكن إذا لاحظنا أن القرآن الكريم

لم يسم واحدة منها (معجزة) ولكن سماها (آية) وسلطاناً -والتعبير بـ(آية) كان أكثر وروداً- وأن كونها كذلك لم يكن ثمرة التحدي لأنها وصفت ابتداءً -وانتهاء- بأنها آية أو سلطان؛ لجاز لنا أن نقول: إن قولهم في تعريف المعجزة -أي معجزة- إنها مقرونة بالتحدي، ليس بصحيح، أو أنه يحتاج إلى مراجعة وتدقيق على أقل تقدير

ولجاز لنا أن نقول أيضاً: إن هذا المصطلح (معجزة) نفسه ربما لم يحل محل آية السلطان أو البرهان لولا الطبيعة الخاصة للآية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت السبب فيما يبدو وراء ظهور الإعجاز والمعجزة جميعاً: لأن الإعجازمصدر من: أعجز ومعجزة اسم فاعل منه لحقته تاء التأنيث، والله تعالى هو فاعل العجز وهذا يناسب وقوع التحدي مع بقاءالقدرة. فإطلاق العجز على انتفاء القدرة في (آيات) الأنبياء السابقين توسع لا لعدم قيام التحدي من الأصل.

والراجح أن الآيات التي جاء بها الأنبياء السابقون أو التي أظهرها الله تعالى على أيديهم أقرب إلى أن تكون تصديقاً من الله تعالى لأنبيائه أكثر من كونها تحدياً لأقوامهم. ويبدا أن هذا ماقصد إليه بعض العلماء عندما قالوا في سياق شرح المعجزة: إنها تقوم مقام قول الله تعالى لنبيه: (صدقت) أي في التبليغ عن ربك ولهذا فإن هؤلاء الأقوام هم الذين بادروا إلى المعارضة والتكذيب؛ بمحاولة رد هذه الآيات إلى المعهود من أوضاعهم وأحوالهم، أو لجأوا إلى السخرية والاستهزاء بهذه الآيات؛ كما فعل فرعون وملأه مع موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى﴾ (الآيات ٥٦-٥٨ سورة طه).

ويصعب علينا ملاحظة موقف التحدي أوروح التحدي من قبل النبي في مثل هذه المواقف والأحوال، فضلاً عن استحالة ملاحظتها في عدم تكليم الناس ثلاثة أيام سوياً، أو في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، أو في إخبارهم بما يأكلون أو يدخرون في بيوتهم، أو في عدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام.

هل يمكننا القول: إن مسألة (التحدي) استعيرت من (إعجاز القرآن) كما استعير المصطلح نفسه (المعجزة) وسحب على آيات الأنبياء السابقين؟ يبدو لنا ذلك والله أعلم.

القضية الثانية:

وفي المقابل، أي في مقابل مسألة التحدي هذه التي استعيرت من إعجاز القرآن استعار علماؤنا مسألة ارتباط معجزات الأنبياء السابقين بالبيئة التي ظهروا فيها. والقوم الذين بعثوا بين ظهرانيهم وسحبوها على (إعجاز القرآن) فقالوا: إن السبب في كون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم بيانية أن العرب كانوا ذوي فصاحة وبيان، وأن البلاغة أنفس بضاعتهم وأعظم مابرعوا فيه؛ كما جاء عيسى بن مريم بمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص في قوم برعوا في الطب، وكما جاء موسى عليه السلام من قبل بمعجزة قلب العصا حية في قوم كانت بضاعتهم السحر.

وعندنا أن هذا الكلام المتداول عبر العصور -ونحوه كثير- فيه إشارة أو دلالة غير مباشرة على أن القرآن معجزة العرب وحدهم، بل إن النسبة قد وصلت ببعض المحدثين إلى حد الزعم بأن القرآن رسالة عربية، وأن الرسالة التي نزلت فيهم وبلسانهم هي لهم، وأن الإسلام إنما هو دين العرب!

ونحن هنا نرى وجوب التفريق بين كون معجزة النبي بيانية، وكون هذا البيان جاء بلغة العرب، ويبدو أن مثل هذا التفريق لم يكن موضع ملاحظة علمائنا القدامى أو موضع اهتمامهم في الوقت الذي فرقوا -عبر عصور التاريخ المختلفة- بين كون الرسالة إسلامية نزلت في العرب وكونها رسالة إنسانية عامة وليست خاصة بالعرب وحدهم أو مقصورة عليهم.

لقد كانت معجزة النبي الكبرى (بيانية) لأنها إنسانية وليس لأنها نزلت في قوم بلغاء أو بضاعتهم البيان. أو بعبارة أخرى: اختار الله تعالى لها لساناً مبيناً لأنها معجزة بيانية، وليس العكس. ولا نتحدث هنا عن مزايا العرب وخصائصهم؛ لأن هذا عرضنا له في موضع آخر. وليس هو المقصود بالبحث هنا على كل حال.

إن الكلام والبيان هو ما امتاز به الإنسان، فجاء إعجاز القرآن بيانياً للإشارة إلى أن رسالته هي رسالة الإنسان حيث كان وفي أي زمان وجد. وإشارة كذلك إلى فضيلة (البيان) التي يتفاضل بها (الناطقون) والتي يمكن عدها زيادة في إنسانية الإنسان، بوصف النطق -والقراءة بأي لسان- أخص خصائص الإنسان. ولعل في ابتداء نزول القرآن بقوله تعالى (اقرأ) ما يشير إلى هذه الطبيعة الإنسانية لهذه المعجزة. بل لعل في تخصيص الإنسان بالبيان في قوله تعالى (الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان) ما يؤكد هذه المعاني؛ فبالبيان يمتاز الإنسان من سائر الأحياء، وبميزة البيان تمتاز رسالة الإسلام، وإن شئت قلت: رسالة الإنسان عن سائر الرسالات؛ وقد يكون لتقديم تعليم القرآن في هذه الآيات البينات على خلق الإنسان علاقة بهذا الذي نقول.

ولـم يكن البيان بمعناه الأدق من (النطق) وقفاً على لغة من اللغات أو أمة من الأمم، لكن اختيار لغة العرب لينزل بها القرآن وليحمل بها إلى العالم رسالة الإنسان يشير إلى فضيلةبيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان. وقد أفردنا الحديث عن هذه الفضيلة في بعض المقالات الأخرى، ووجدنا أنها تتمثل في كونها لغة إنسانية وقد أفضى بنا ذلك إلى عدها مثال اللغات كما شرحنا في موضع آخر أن العرب مثال الشعوب وقد أخذنا في هذه المقالات مما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله في كتابه (اللغة الشاعرة) على وجه الخصوص. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض هذه المقالات ونكتفي بالقول: إن اللغة العربية لغة إنسانية اتسعت لمضامين القرآن العامة والخالدة؟ بوصفها مضامين إنسانية وهذا هو السبب -والله أعلم- في كون الآية التي جاء بها النبي -أو معجزته- بيانية تمثلت في (إعجاز القرآن) وليس لأن العرب كانوا ذوي فصاحة وبيان قياساً على معجزات أو أدلة الأنبياء السابقين صلى الله عليهم أجمعين، وما برع فيه كل قوم من أقوامهم في التاريخ.

وأخيراً فإن أقل ما يمكن ترتيبه من نتائج على عدم التفريق هذا بين كون المعجزة بيانية وكون هذا البيان نزل بلغة العرب -وهي نتائج تستحق البحث والدراسة- أنه كان وراء عدم ظهور علم مقارنة اللغات في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية؛ قياساً على علم مقارنة الأديان الذي يمكن رد نشأته إلى المسلمين[(١)]، من خلال إيمانهم بعالمية الإسلام وهيمنة الكتاب في الوقت الذي ضاعت فيه فكرة هيمنة اللغة إن صح التعبير. إن مثل هذا

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص ٥٩ من كتاب ٠الحاكم الجشمي) وانظر الأحالة على كتاب فرق الشعية للنوبختي بتحقيق ريتر وكتاب الحضارة الإسلامية لآدم متز ١ / ٢٩١ الفقرات ٤-٦ من المقدمة.

العلم كان لا بد أن يؤسس ويتابع عبر العصور؛ من أجل إثبات مزية اللسان العربي على جميع اللغات؛ ما كان موجوداً منها بعد اكتمال نزول القرآن، وما نشأ منها بعد ذلك عبر تاريخ الإعجاز أو تاريخ التحدي الطويل والممتد إلى يوم الدين. ولا يكفي لإثبات هذه المزية أو المزايا، الدراسات التي تغفل هذه المقارنات أياً كانت منزلتها في البرهنة أو الاستدلال على أن هذا اللسان لسان مبين، وأن هذه اللغة الشريفة لغة عبقرية.

ولو أن مثل هذا العلم -علم مقارنة اللغات- أسس على هذا النحو لكان له من الأثر الإيجابي لا في اللغة، وبحوث الإعجاز والبلاغة وحدها من جوانب الثقافة العربية الإسلامية، بل في جوانب وأبواب ثقافية وعلمية أخرى خطيرة. وإذا كانت اللغة -أي لغة- هي مرآة الثقافة كلها، وتعكس درجة التقدم العلمي والحضاري لمجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم؛ فأي لون من ألوان المعارف كان سيقف عليه العرب والمسلمون، لو كان الاطلاع على اللغات الأخرى ودراستها أحد تقاليدهم الثقافية عبر التاريخ الطويل؟ وأي أثر كانت ستحدثه مثل هذه المعارف -وبخاصة معارف الأمم المتقدمة - في أوضاعهم وأحوالهم بشكل عام.

القضية الثالثة: أما القضية الثالثة فتأتي تالية لهذا التفريق -وربما بناءً عليه- وهي مدى لزوم إعجاز القرآن لغير العرب، وهل يمكن القول إن هذا الإعجاز يلزم غير العرب أيضاً؛ لأن لزومه في أعناق العرب، وقد نزلت هذه المعجزة البيانية بلسانهم لا يحتاج إلى إيضاح. ولكن هل يعني ربطنا لهذا البيان بالإنسان أن هذا الإعجاز البياني -أو بعبارة أدق: البياني العربي- يلزم غير العرب أيضاً؟

ونقول في الجواب إن هذا ليس ضرورياً، وقد لا يبدو للوهلة الأولى منطقياً كذلك ولكن هذا لا يمنع من البحث عن آفاق أو ضروب من الإعجاز البياني -العربي- يمكن أن يدركها أو يقف عليها غير العرب. وربما كان من أسباب نزول هذا البيان بلغة العرب أن هذه اللغة تتسع لضروب من هذا الإعجاز يمكن أن يدركها أو يلاحظها أصحاب اللغات الأخرى، مثل ما أسماه الرافعي: إعجاز النظم الموسيقي، أو مابحث فيه الدكتور دراز تحت عنوان: (نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن):

الأولى: الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومداته وغناته.

والثانية: الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة، وقد أوجز الحديث فيهما الزرقاني تحت عنوان (نظام القرآن الصوتي وجماله اللغوي) وكذلك مثل ما أسماه بعض الباحثين: الإعجاز في نغم القرآن[1]. وأعتقد أن علم مقارنة اللغات -الذي أشرنا إليه- كفيل بإنضاج مثل هذه الألوان من البيان أو ضروب الإعجاز مع التذكير، أو التأكيد في هذا السياق على خصائص الحروف العربية في هذا الجانب بل في الجانب البصري من حيث الشكل الهندسي والقوة التعبيرية التي تدعو إلى التأمل وتثير الإعجاب ولا نعتقد أن تذوق ذلك كله أو إدراكه موقوف على العرب وحدهم.

نحن لا نملك في هذا الجانب أمراً حاسماً أو قاعدةً مستقرة، ولكن حين يؤثر القرآن بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً

---

(١) راجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص ٢٤٤ والنبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٠-١٠٧ ومناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٢/ ٣٠٩-٣١١ ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص ٣٨٥.

واحداً فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل والدراسة ويحتاج كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله إلى تفسير وتعليل. فقد ذكر حادثاً وقع له - ومعه عليه ستة شهود - على ظهر سفينة مصرية كانت تمخر بهم عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك. وقد اكتفى رحمه الله بذكر هذه الواقعة عن ذكر نماذج مما وقع لغيره. وخلاصتها أنه خطب الجمعة في المسلمين الذين كانوا على ظهر تلك السفينة وأمّهم في الصلاة ومعظم الركاب الأجانب متحلقون يرقبون الصلاة. يقول سيد رحمه الله: (وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منه يهنئوننا على نجاح (القدّاس)!!.. ولكن سيدة من هذا الحشد كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها. جاءت تشد على أيدينا بحرارة وتقول: إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح!... ثم قالت: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها (قسيسكم)؟ إنها ذات إيقاع موسيقي عجيب وإن كنت لم أفهم منها حرفاً! ويضيف الأستاذ سيد رحمه الله قائلاً: «ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: (ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه... إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن (الإمام) كانت ترد في أثناء كلامه بهذه اللغة الموسيقية فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً.. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيَّ رعشة وقشعريرة! إنها شيء آخر كما لو كان الإمام مملوءاً من الروح القدس -حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها- (وتفكرنا قليلاً ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً) [1].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٦.

ثم يعقب سيد رحمه الله على هذا ابقوله: (وليست هذه قاعدة كما قلت، ولكن وقوع هذه الحادثة -ووقوع أمثالها مماذكر لي غير واحد- ذو دلالة على أن في القرآن سراً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته).

وقال الإمام ابن القيم وهو يستعرض آراء العلماء في إعجاز القرآن: (ومنهم من قال: إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة، وما يلحقها من الخشية، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، أو عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة) قال: (وروي أن نصرانياً مر بقارىء فوقف يبكي فقيل له: مم بكاؤك؟ فقال: الشجا والنظم) الفوائد المشوقة ص٣٤١. ولا ندري إن كان هذا القول يشمل غير العرب كذلك.

ونحن نقول أيضاً ما قاله الأستاذ سيد رحمه الله: ليست هذه قاعدة، لكن الأمر جدير بأن يكون موضوع دراسة أو أن نقف عنده على أقل تقدير. مع التأكيد في هذا السياق على أن القرآن العام والخالد، أي الذي نزل لجميع الأمم ويخاطب به الناس إلى يوم الدين، لا يتصور من أجل تأكيد عمومه وخلود رسالته أن ينزل بجميع اللغات ماكان منها وقت التنزيل وما سيكون منها بعد ذلك لأن هذا لا يتساوق وحركة الحياة، أو طبيعة التكليف واختيار الإيمان، وإذا كان القرآن نازلاً بلغة واحدة فلا توجد لغة -كما قلنا- أولى من اللغة العربية لينزل بها بوصفها لغة إنسانية في المقام الأول، فوق ما انطوت عليه أو اتسعت له من أسباب البيان الذي يمكن أن يكون على نحو من الأنحاء في متناول سائر أرباب اللغات الأخرى.

وعلى أية حال فنحن لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى أن نزول القرآن بلغة العرب وارتباط الإعجاز بها على هذا النحو يتضمن دعوة

الداخلين في الإسلام إلى إتقان العربية أو تعريب اللسان ، أو إلى أن تعمهم اللغة الأم أو اللغة المثال، وبخاصة وأن اطلاعهم على آيات التحدي يأتي تالياً -في الأعم الأغلب إن لم يكن في جميع الحالات- لدخولهم في الإسلام وليس سابقاً عليه، كما سنشرح ذلك في بحث قادم إن شاء الله.

لا نكتفي في ختام هذا البحث بالقول إن الحديث أو التساؤل عن كيفية دعوة غير العرب إلى الدخول في الإسلام في الوقت الذي لا يمكنهم أن يقفوا على الإعجاز البياني العربي يقصد به غالباً حملنا على التسليم بالإعجاز المتصل (بمضامين) القرآن وبما يسمى في هذه الأيام: الإعجاز العلمي. وسوف نخصِّص البحث القادم لهذه القضية بشيء من التوسع والتعمق أو محاولة التعمق في وقت واحد. وبحسبنا هنا أن نشير إلى أن هذا يعيدنا إلى حيث بدأنا في هذا البحث، حين قلنا إن أدلة الأنبياء السابقين أو براهينهم على نبوتهم سميت في القرآن الكريم (آيات) ولم تسم معجزات. إن مثل هذه الآيات -بغض النظر عن الإعجاز الذي ارتبط بالتحدي- موجود في القرآن نفسه، ولذلك فهي خالدة وممتدة أيضاً. وهذا ما يميزها عن (آيات) الأنبياء السابقين. ولم يقل أحد إن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم ممن درجوا على إيمانهم اعتماداً على مثل هذه (الآيات) لا يمكن دعوتهم إلى الإيمان بنحوها! بل إنهم من خلال القرآن نفسه أو من خلال منهجه ومضامينه مدعوون إلى الإيمان بنحوها أو بأخطر منها وأعظم شأناً.

وإن كان مما يسترعي النظر حقاً بل يحتاج إلى وقفة تأمل وتحليل أن يطلب من العرب أنفسهم الذين شهدوا التنزيل وعاصروه... ولكنهم

تحيروا وتخبطوا في أسباب الكفر والجحود والتكذيب. أن يطلبوا (آية) من جنس آيات الأنبياء السابقين لا (إعجازاً) يبهرهم وينسب إلى (لغتهم) قبل أن يخلدها أبد الدهر يحدث لهم هم في العالمين ذكراً!!

وقد كانت هذه النقطة أحد محاور سورة الأنبياء: قال تعالى -في الآية الخامسة- (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هوشاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون).

وقال تعالى -في الآية العاشرة- (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون)؟! وقال تعالى -في الآية الخمسين- (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون)؟

وأخيراً جاء في الآية ١٠٧ قوله تبارك وتعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، لقد طلبوا (آية) كتلك التي جاء بها الأنبياء السابقون، فجاءهم الرد بالكتاب الذي أنزل إليهم[1]، والذي سيكون فيه عزهم وشرفهم ومجدهم! فأي عاقل ينكر هذا ويأباه ويطلب ما هو دونه في حكم العقل وسجل الخلود؟.. مع التأكيد مرة أخرى على الطابع الإنساني العام والخالد لرسالة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، أو الذي يسره الله تعالى بلسان نبيه الكريم فخاطبه في السورة المذكورة بقوله عزّ من قائل: ﴿وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ صدق الله العظيم.

---

(١) وانظر الآيتين ٥٠-٥١ من سورة العنكبوت.


جمعية الدراسات والبحوث

من الاستشراق إلى الاستشراق المضاد

أ. خيري منصور

سعدت بأن يكون لقاؤنا بحلقة أضيق من الندوات التقليدية، فتكون غالباً الهوّة واسعة بين المحاضر المتلقي غالباً لعدد من الأوهام من الجمهور. ولم أشأ أن أصطحب معي شيئاً مكتوباً لسببين:

الأول: خروج الاستشراق من الموضوع الأكاديمي الضيق إلى النقاش والسجال الثقافي العام، جعل القارئ اليومي مشاركاً عادياً في مثل هذه الموضوعات. والسبب الثاني: تعويلي على الحوار الذي تتجه فيه هذه الجلسة المتقاربة.

وأبدأ بتقاطع اصطلاحي لأطروحة الاستشراق وما آلت إليه.

التسليم بمصطلحات الجغرافيا الصمّاء، البوصلة، شرق غرب، جنوب شمال، به كثير من المجازفة العلمية، الشرق لم يكن في مطالع الحضارات هو الشرق الراهن، وكذلك الغرب أيضاً، نحن الآن -مثلاً- ننظر إلى الثقافة الإغريقية إلى أثينا على أنها غرب، كانت كذلك عند اختلاف جغرافية العالم تشكل شرق العالم، الفكر المسيحي هو أقنوم ثالث أساسي في تشكّل الحضارة الغربية، يُنظر إليه الآن على أن مركزيته هي الغرب، وكان -والمفروض أنه لا يزال- ديانة شرقية، نفوذها يطلع مع الشمس نفسها، كما كان يطلع بزوغ الحضارات القديمة.

لذلك، التسليم بالمصطلحات الساكنة يوقفنا في الكثير من الإشكالات. وعندما يقول الشاعر البريطاني «كبلنج»: (الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا) فهو يعني شرقه، الشرق الذي يزامنه هو، وليس شرق أثينا، أو شرق الإمبراطورية الرومانية. لكل شرقه في موضوع الاستشراق، لهذا كان البروفيسور «أدوارد سعيد» خير من وُفّق في صياغة عبارة موجزة ودقيقة تقول: «الشرق هو بدعة الغرب» ليس بمعنى أن الغرب اخترع الشرق كجغرافيا، وإنما اخترع مقولة الشرق، كمنظومة من الأفكار الثابتة الهاجعة في لا وعي القارئ الغربي من خلال مصادر مشوبة بالسحر والأسطورة، لأنه مضت عدة قرون على الغربيين وهم لا يعرفون عن الهند، ولا عن معظم الدول في اسيا أكثر مما وصلهم من الأساطير، وبالنسبة لنا كحضارة عربية إسلامية، كان مدخلهم لفهمنا باستمرار «ألف ليلة وليلة» والرحلات التي قامت بها بشكل مبكّر طلائع استعمارية، على سبيل المثال: «إدوارد لي» دخل مصر قبل نابليون، وكتب كتاباً في فرنسا عن طبائع المصريين وحياتهم وجغرافية مصر. «نيبر» أيضاً قبل دخول أي شكل من أشكال الاستعمار إلى مداخل أفريقيا، و«جان كنيرڤل» وكثيرون من الرحالة الغربيين ومن الشرقيين من روسيا وجنسيات شرقية، كانوا يمهّدون طلائع لغزاة قادمين من بعدهم. ذلك لأن مؤسسة الاستشراق تحديداً في القرن السابع عشر، بدأت تتفهّم الحوار السياسي الاقتصادي الموجود في العالم.

لم يكن هدف رحّالة فرنسي يأتي إلى مصر كي يستحم في النيل، أو لكي يتضمّخ بشمس متوسطة غير موجودة في بلاد الصقيع. كان الهدف أبعد من ذلك بكثير لذلك الجهة التي كانت مسؤولة عن إرسال طلائع الرحالة، لم تكن مؤسسات ثقافة ولم تكن أكاديميّات، إنما كانت من وزارات الاستعمار ووزارات الخارجية المعنيّة بتمهيد مناطق نفوذ في عالم

كان لهم قيد الاكتشاف، لا سيما على صعيد تسويق السلع المصنوعة. الأُطر الفضفاضة الواسعة التي نتحدث تحتها عن الاستشراق أحياناً تبدو لي طريفة. لأنه حسب إحصائية قدّمها د. نديم البيطار، فقد كُتب في الأربعة قرون الأخيرة في الغرب ٦١ ألف كتاباً في مجال الاستشراق.

لذلك كنت أفضّل وجود تفريعات للعناوين الكبرى، لأنه تحت كلمة الاستشراق من الممكن أن تقول كل شيء، وتنتهي إلى أن لا تقول شيئاً محدداً. وعندما كتب د. إدوارد سعيد الذي فجّر المسألة حقيقة عندما صدر كتابه عن الاستشراق، كان الموضوع مقفلاً، ولذلك أنا أستغرب مثلاً أنّ كتاباً أصدره «عمر ا لفاخوري» في بيروت عام ١٩٢٤ وهو آراء غربية في مسائل شرقية، أحاط بمعظم أطروحات سعيد، لكنه لم يستوقف أحداً، وكتاب "المستشرقون" لنجيب عقيقي من ٣ أجزاء، عن الاستشراق والمستشرقين، لم يستوقف أحداً، كتب (محمد أسد) أو الفصول الخاصة بالاستشراق لم تستوقف أحداً. حتى موسوعة المستشرقين التي أعدّها د. عبدالرحمن بدوي، لم تستوقف أحداً لا على صعيد أكاديمي ولا على صعيد ثقافي أو شعبي. إذن، الدكتور سعيد فتح الباب على مصراعيه لهذا الموضوع، والغرب الذي أثار زوبعة لم تنته حتى الآن عن إداورد سعيد ليس لأنه كتب ضد الاستشراق، لأن الغرب لم يكتب شيئاً ضد عمر فاخوري، أو عقيقي أو بدوي أو آخرين، الغرب استُثير ضد إدوارد سعيد لأن سعيد كتب من داخل المؤسسة الغربية، من جامعة كولومبيا وهو أستاذ فيها، باللغة الإنجليزية عبر دار نشر أمريكية، متوجهاً إلى قارئ غربي. استُثير الغرب هذه المرة لأنه الكتاب الذي يفضح ثنائيات الاستشراق، الثنائيات غير المتجادلة بين الشرق والغرب، لأنها جدليات تبعية، هذه الثورة ضده لأنه داخل المؤسسة، ولو كتب من خارجها عشرات الكتب لما استوقفت أحداً، لكن حتى إداورد سعيد

صاحب الفضل في الخروج من النطاق الأكاديمي الضيّق إلى الشارع والمجلة والكتاب والمقهى والندوات والحوار، أيضاً لم يخل د. إداودر سعيد من كيْدية في معالجة الاستشراق.

هنا نقترب أكثر من العنوان الفرعي وهو «الاستشراق المضاد»، وأحبّ أن أسمّيه «ميتافيزيقا الاستشراق» بمعنى نزع تاريخية الاستشراق، تحويله إلى ثوابت أزليّة في التاريخ، بنفس طريقة «كبلنج» (الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا).

إداورد سعيد بهذه الكَيْدية تجاه الغرب يروي حادثة له وهو صغير، يقول: إنه وهو في الحادية عشرة كان يعيش مع أسرته في القاهرة، وهو بالمناسبة من أسرة مستنيرة وتعد موسرة، كان أبوه لديه مكتبة إنجليزية كبيرة، وكان يعيش في القاهرة مع الأرستقراطية المصرية، وكان أبوه ينتسب إلى ناد للأرستقراطية المصرية والجالية الإنجليزية، يقول: أردت الدخول إلى النادي، فاستوقفني شرطي وطلب هويتي، فأعطيتها له، ولم يقبل أن يدخلني، فبدأت تفقس في القلب مواقفي من الغرب، إذ أن الغرب لم يتسامح معي بالرغم من أنني من الناحية الدينية مسيحيّ، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية من طبقة موسرة تستطيع أن تدخل ابنها إلى ناد للارستقراطيين والضباط البريطانيين.

إذنٍ الغرب لن يتسامح على الأطلاق حتى مع سماسرته من الشرق، بمعنى أن الوسيط لن تشكل وساطته للغرب اعتذاراً في أن يغيّر نظرته إليه. إدوارد سعيد كان مشروعاً راديكالياً لأنه يائس، كل تطرّف هو رديف اليأس، كل راديكالية هي وليدة اليأس، اليأس من الآخر، بمعنى أنني مهما قدّمت له لن يُعفيني ولن يستثنيني من هذا الشرط الذي ينظر إليّ من كل، باعتباره يعيش فَي منخفض حضاري إلى الأبد.

هناك قضية أيضاً كثيراً ما يتحرّز منها الأخوة الذين يكتبون في الاستشراق، وهي اعتبار ربطة بالكونلونية الغربية والتوجّه الاستعماري الغربي والاقتصار على ذلك، فيه تعسّف في قراءة التاريخ. الدولة العربية الإسلامية في إحدى مراحلها نتأت خارج حدودها، ولن أناقش بالطبع أسباب هذا النتوء.

الأيديولوجيا موجودة بمعنى الرسالة. البحث عن مجالات حيوية -أعتذر لاستعارة المصطلح-، الذي أول من استخدمه النازيون، واستقر فيما بعد البحث عن مجالات حيوية في الخارج. تفيض الدول فتبحث عن امتداد لها في الخارج. عندما أرسل الخليفة "المقتدر ابن فضلان" مجموعة إلى بلاد البلغار لدراسة الطريقة التي سيتم بها جمع الخراج، وعندما ذهبوا إلى الصين، وذهب آخرون إلى سمرقند -في أيام عزّها-، الدولة العربية الإسلامية أيضاً استغربت عندما قويت وتصلّب اقتصادها، وتمدّنت وتمأسست كدولة، تحديداً الدولة العباسية، وذلك في الذهاب إلى الأندلس وسبقت الناس الذين ذهبوا على خيولهم طلائع، كما قلنا عن ابن فضلان و "السيراما" وغيرهم. إذن، لكأنه موضوع تاريخي ليس محدوداً بالغرب وحده. يعني الغرب الذي اتّسعت مصالحه، وبدأ يبحث عن مجالات حيوية في الخارج، فكرّ في أن يحوّل هذا الشرق من فردوس ألف ليلة وليلة والقراءات الجنسوية والقراءات السحرية، أن يحوّله إلى منجم لصناعته في بواكير ثورة التصنيع، وبالتالي فهو يحتاج إلى سوق يمتصّ المصنوعات الجديدة. بعض المعالجات العربية وقعت من حيث لا تدري، في خدمة مرجعية الاستشراق الغربي، على سبيل المثال: من أبرز الدراسات ما كتبه د. صادق جلال العظم، وكان موضوعاً سجالياً في الرد على إداورد سعيد بعنوان «الاستشراق معكوساً»، كيف وقعوا في مطبّ الاستشراق في المفهوم الغربي.

إعادة تركيب جملة «كمبلنج» الذي يقول (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) تعاد الكتابة «الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا»، هنالك حوار حضارات بدأ مبكراً سواء من خلال كتاب ونهضويين، نذكر على سبيل المثال التجارب الأولى في اتصال المصريين أيام محمد علي باشا، وقبل ذلك أيام السلطان سليم في الدولة العثمانية وكان بداية الاتصال بالغرب. كان هنالك محاولة لإيجاد صيغة ثالثة، في علاقة شرق - غرب، وهي صيغة الحوار والتلاقح المعرفي. خصوصاً أنه خرج في الغرب أناس أقل عنصرية من التقليديين، وقالوا: لا يوجد هناك حضارة خالصة، غير مشوبة بحضارات أخرى، الحضارة الغربية متشكلة من ٢٦ حضارة سبقتها. منذ ما قبل الإغريق، إذا اعتبرنا الحضارة البربرية التي تحمل هذا الاسم، مما يثير التباساً في حضارتنا. إذا اعتبرناها حضارة قبل الإغريق، ٢٦ حضارة تناسلوا فيما بينهم، وكان طابع التداخل وليس التخارج هو الغالب على الحصيلة النهائية، كيف نعزل مثلاً منجزات الكيمياء في بواكير الكيمياء الغربية عن جابر بن حيان، كيف نفصل إنجازات الفلسفة الأوروبية في فرنسا، وثورة ديكارت والشك على سبيل المثال عن الغزالي، وخصوصاً أن هناك قرائن عينية منها ما رأيته أنا شخصياً في «اللوفر» من تعليقات على مخطوط للغزالي ومفهوم الشك لدى الغزالي.

ابن رشد له فلسفة كاملة في فرنسا، تحمل اسمه الصريح «الفلسفة الرشدية»، لا يوجد حضارة خالصة، ثمة مخرج من الثنائية الضدية للاستشراق، والاستشراق المعكوس أو المضاد وهي تحوّل هذا السجال إلى حوار، وتحول التبعية إلى تلاقح، حتى هذا التلاقح بمقياس ما، سيخضع إلى فهم آخر جنسوي، بمعنى أيهما الرجل وأيهما الأنثى، هناك بعض الكتّاب الغربيين، وكنت قد قرأت رداً لكاتب فرنسي على جورج

طرابيشي، مثلاً إذ يقول: «أسواء ما حمله الشرقيون من الموروث، بأنهم يعتقدون بأنهم يشكلون ذكورة العالم، وأن الغرب يشكل أنثى العالم» وهنالك دراسة بالفعل تأخذ مجموعة من الروايات المبكرة، التي بدأت بزينب وهيكل الأول، و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، مجموعة روايات يُخضعها للتحليل، فيجد أن أبطال هذه الروايات الشرقية ذهبوا إلى الغرب كَغزاة ذكور، ويتوصل إلى أن الشرق يحمل في لاوعيه نزعة نحو تأنيث الغرب. يعني حتى مفهوم التلاقح يجد أيضاً مصدّات شرقية وغربية في فهمه.

للاستعماري الغربي والعسكري أو الجنرال مبرراته في موقفه من الشرق، أما المواطن العادي فكيف يمكن أن تشكل لديه صورة قبيحة بهذا الشكل عن الشرقي، في ٧ لغات أوروبية، يُحصي أحد الباحثين حوالى ٣٠ مثلاً شعبياً متداولاً معناه في النهاية أن الشرق رديف للشارع، للقذارة، للصوصية، للجريمة، للاتصال الجنسي. ترد بعض هذه الأمثلة بـ«تركش» بالمناسبة عندما يستخدم الغرب كلمة «تركي» المقصود منها العربي، لا سيما في الفترة التي فقدنا فيها جنسيتا القومية في ظل الحكم العثماني، فنحن في مفهوم الغرب أتراك، فالتركي يقصد بها العربي المسلم، الشرقي.

هذه الصورة القبيحة التي تشكلت، ساهم فيها أولاً: مترجمون غربيون مقوّلون، أي يترجمون النص ويضيفون إليه من عندهم الكثير. حتى يكون شائعاً وجاذباً للقارئ الغربي، ليحلم عوالم سحرية، بعوالم علاءالدين، وأجواء الخلفاء، التي كانت تُنقل إلى الغرب وكأنها نوع من البخور المعرفي، وليس المعرفة المجرّدة.

جاء الاستعمار بموسساته وأصبح مطالباً أمام الغربيين أنفسهم - الغربيين الليبراليين المعتدلين- أصبح مطالباً كمؤسسة أن يُريهم ويفسر لهم لماذا استغلّ هذا الشرق، ويأخذ خيراته. خرجوا بثلاث نظريات: الأولى: تفوّق الغربي كآري غربي على الجنس الشرقي، ودعم هذا الكلام بأوهام علمية، العلم البدائلي، أو العلم المُمدّن، قدّم بأن العقل الآري يتكون من دماغ بعدد كذا من الخلايا، إحساسه بالزمن مختلف، ويشكّل مزيجاً كيماوياً مركباً بينما يشكل الشرق مجموعة وحدات متعايشة، دون أن يكون بينها مزج كيماوي.

هذه النظرية وجدت في الغرب نفسه من يقاومها من الغربيين، لكنها وجدت في الشرق العتيد من يتبنّاها ويبشّر بها. «إسماعيل مظهر» على سبيل المثال في الأربعينات، والذي كتب في التطوّر وغيرها. يرجح أن بعض الشخصيات من الفلاسفة الإسلاميين من أصول فارسية ليسوا من أصول عربية، ليس احتكاماً إلى نصوصهم، وإنما إحتكاماً إلى طبيعة العقل الذي أبدع هذه النصوص، فعقلهم لا بد أن يكون فارسياً. وفارس مصنّفة حسب العرقيات أنها آرية. حتى المرحوم سُلامة موسى أقام مملكة كاملة من المقاربات والمباعدات، أساسها الفرق بين العقل الآري والعقل الشرقي. حتى أنه درس إحدى مسرحيات توفيق الحكيم وقارنها بمسرحية (لبرناردشو)، ليتوصل من خلال قراءة مسرحيتين إلى أن هذا عمل هكذا في المسرحية لأنه يصدر عن ذهنية شرقية، والآخر يصدر عن ذهنية آرية. الآري درامي مركّب، والسامي غنائي أفقي.

عبدالرحمن بدوي في كتاب «الموت والعبقرية» يتبنّى النظرية بكاملها، هنالك ما يمكن تسميته بالوعي السالب لدى المستشرَق -اسم مفعول مقترح للمستشرق- لديه وعي سالب بحيث يتمثل لمنتجات المستشرق ومصطلحاته ويتماهى معها، وأحياناً يتمثل لها ويدافع عنها بتطرف أكثر

منه، وهؤلاء هم الذين شكّلوا ما يمكن تسميته «النهضة الثانية في الحياة العربية» لأنهم يحملون اسم روّاد، وكانت نسبة القرّاء والمتعلمين في الوطن العربي متدنية جداً. وكانوا كنخبة صانعي رأي عام في ذلك الوقت. لذا لا تستغرب أن تجد الآن في سوريا ولبنان وفي مصر، وعندما تصف شخص بأنه -مرادف لكلمة جنتل مان (Gentel Man) يصفونه بأنه «خواجا» اختزالاً لكل الصفات الحميدة والحضارية في شخص ما.

لم يكن ليترسب مثل هذا القول على الإطلاق، لولا نفوذ النخبة في توصيل آرائها وتماهياتها مع الغرب.

الاستشراق استشراقات متعددة، حتى لا نقع في تعميم، لأنه ليس متجانساً ولا يُوضع في سلة واحدة. لا يمكن وضع الاستشراق الأمريكي مع الألماني والفرنسي والروسي مثلاً في سلة واحدة. الاستشراق الألماني وما نعرفه عنه، وما تُرجم من كتب إلى الإنجليزية أو العربية عن الاستشراق الألماني، يكاد يكون مديحاً للثقافات الشرقية، وتحديداً للثقافة العربية الإسلامية. من أبرز المستشرقين الألمان «نولديكا» كان يقترح أن تُعلّم المعلّقات السبع في المدارس الألمانية، وكان يقول إنها أفضل بكثير من الإلياذة والأوديسّة. الألمان لماذا شكّلوا استثناءً في هذا السياق، ليس كرماً إطلاقاً، ولكنه لم يُتح لألمانيا ذلك الاحتكاك الاقتصادي الاستعماري الذي أُتيح لفرنسا وبريطانيا، فلو نجحت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، لأخذ الاستشراق الألماني منحىً آخر. بدليل أن الاستشراق الأمريكي في الحرب العالمية الثانية كان استشراقاً بريئاً في كثير من الحالات، وكان رغبة لمعرفة هذا الشرق الكتابة عنه. لكن ما إن خرجت أمريكا كقوة بعد الحرب العالمية الثانية، حتى بدأت تطارد فلول الإمبراطورية الإنجليزية الغاربة، ابتداءً من الجندي وانتهاءً بالمستشرق.

وأي مراجعة لخطبة «ڤان دايك» في افتتاح الجامعة الأمريكية في

بيروت، هي بيان في الاستشراق الصريح. «جورج طومسون» الذي كان يسمّي العقل العربي بأنه ثمرة الصُبّير، ويُسأل من أحد اللبنانيين ما قصدك؟ فيقول مسكت حبة صبر لأكلها، ونقّبتها وانتهت معي دون أن أجد شيئاً، فالعقل العربي كذلك.

لما بدأ الأمريكان في استشراقهم يرثون البريطانيين سياسياً وعسكرياً، ورثوهم استشراقياً، وصارت المدارس الأمريكية والأكاديميات تحتلّ الحيّز البريطاني من قبل. أما الرّوس -على سبيل المثال- إذا استثنينا من استشراقهم الجانب الأيديولوجي، نجد أنه كان بريئاً في معظم الأحيان، كتابة الرّوس الذين جاءوا إلى فلسطين والأردن والشام ومصر واليمن، كانت استكشافات لمنطقة من العالم طازجة بالنسبة لهم. لكن عندما تأدلجت روسيا بعد حرب أكتوبر لعام ١٩١٧م، والوضع الفكري الجديد، أصبحت قراءة الشرق تتمّ من منظار أيديولوجي.

إذا، هناك عدم تجانس في الاستشراق، لكل استشراق حيثياته واستراتيجية الدولة تتحكم بذلك. ولكن، ما من استشراق بريء تماماً إلا لأن الظروف التاريخية قد برأته لهذا السبب أو ذاك، كما قلنا بالنسبة للألمان والرّوس. وطبعاً الآن، هناك استشراق جديد يظهر في المنطقة، لكنه ينطوي على تناقض ساطع، وهو الاستشراق «الإسرائيلي»، فإسرائيل تلعب دوراً آخر دوماً، تريد أن تكون غربي حوض البحر المتوسط، وشرقيّه في آن معاً. عندما يتعلق الأمر بالأفكار تُسمّى بعض الدراسات التي تقوم بها الجامعة العبرية والكتّاب الإسرائيليون، الدراسات التي تتحدث عن كتابات العرب، تسمّيها الاستشراق، فهي تقفز برشاقة إلى غربي البحر المتوسط وتنظر كما تنظر فرنسا، أو أي دولة غربية أخرى. ولكن عندما تأزف مناسبة أخرى

مـضـادّة، فـإنهـا تقـفـز بالرّشـاقـة نفـسـهـا إلى شـرقي الحـوض، وتـنـافـس الآسيويين والإفريقيين، فتتنافس على المِنَحْ والمساعدات الدولية المقدّمة.

وهذه الملاحظة غير معالجة عربياً، لأنّ إسرائيل بدأت في السنوات الأخيرة فقط، وعلى استحياء تتقدّم بهذا النمط من الاستشراق. آخر الأشياء كان تقريباً قبل ثلاثة أشهر، استمعت لبرنامج من خلال قصص يكتبـهـا كـتّاب أردنيـون، تحلّل هذه القـصـة للوصـول إلى رؤية المواطن الأردني للتاريخ والعالم وذلك في إذاعة إسرائيل في برنامج ثقافي. وهذا تدشين لحقبة قادمة من قراءتنا من قبلهم، وهذا سيوقعنا في مطبّات كثيرة. ممكن أن يكتب الكاتب نقداً ذاتياً لبلاده وعاداته، المقصود منه تقويم هذه التقاليد، وفائض الحب وليس فائض الكراهية، لكن عندما يُترجم بنيّة مضادّة، يحوّل على أن هؤلاء المثقفين الأردنيين، أو من أي بلد عربي يضيقون ذرعاً ببلادهم، وينتظرون مخلّصاً ما، والمخلّص هاهو يتهيأ.

حتى لا نظلم كل المستشرقين، بعضهم شذّ عن القاعدة المؤسسية الغربية، وهنالك مستشرقون نكرات عاشوا في مصر وماتوا بعد أن أعلنوا عن إسلامهم، وهنالك مستشرقون عاشوا في عمق أفريقيا غير العربية وإنما من العالم الثالث وقدّموا خدمات للناس، ولم يكونوا على ارتباط مباشر بالمؤسسة الاستعمارية، وهذا هو الاستثناء الجدير بالتقدير، لكنه الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

لأن نتائجهم لم تُتَبَنَّ، ولم يُنظر بجدية إلى ما أنجزوه على صعيد شخصي، وحتى بعض المستشرقين الفرنسيين يقولون عن المستشرقين الذين عاشوا في مصر وذابوا فيها أنهم كانوا مفتونين بالطقوس الإسلامية، بمعنى أنهم تعاملوا مع الدين كرقصة وجودية أخرى، هذا طبعاً بهدف تسفيه ذوبانهم في السياق الجديد في مصر.

يوجد وتر حسّاس جداً الآن، معظم الناس يعزفون عليه، وهو كيف يرى هذا الغرب أو هذا الاستشراق الإسلام، لأن كلمة العربي قد تكون أضيق بمعنى أنه إنجاز التاريخ فقط، وليس إنجاز التاريخ والفكرة معاً.

الطريقة الوحيدة لفهم رؤية الاستشراق للإسلام هي فتح ملف كتابات المستشرقين عن الإسلام كدين، وعن شخصية الرسول محمد عليه السلام. كيف عُومل الدين كفكرة مجرّدة، وكيف عُومل كفكرة مشخصنة. وشخصياً بقدر ما أُتيح لي أن أقرأ دراسات قد تناولت هذا الموضوع. وجدت أن ما صاغ الكراهية بهذا الحجم لدى المستشرقين هو فترة الحروب الصليبية تحديداً، لأن ما قبل الحروب الصليبية كان الدين معروفاً لديهم على صعيد طقسي، وليس كتهديد حضاري، أما بعد الحروب الصليبية فقد تطوّع كتّاب غربيون كثيرون لتأليف حكايات لا آخر لها عن الشرق. وعن اضطهاد المسيحيين في هذا الشرق بهدف تسويغ الحروب الصليبية لأنها ستأتي بمثابة خلاص لهم.

قد يكون بشكل أو بآخر هذا مفهوماً عندما يمارسه الغربيون المسيحيون، لكن كيف نفهم أن مقررات المدارس الابتدائية وحتى المتوسطة في لبنان منذ عام ١٩٢٧م إلى فترة قريبة منذ عدة سنوات حيث أُجريت إصلاحات بسيطة وراجعتها جميعاً، كانت تقول عن فترة الحروب الصليبية كما يُقال تماماً في الكتب الصادرة في أية دولة أوروبية عن الحروب الصليبية بأنها بسبب إنقاذ المسيحيين من الاضطهاد.

ونعطى هناك حصة كاملة عن الدستور العثماني في ١٩٠٨م وعن الظروف التي رافقت إصلاحات تلك الفترة من أجل المسيحيين. وكان هناك درس مقرّر -وقاله روجيه جارودي في كتابه حوار الحضارات- يقول: يوجد حصة مقررة موضوعها ماذا لو انتصر المسلمون في معركة

بواتيه على فرنسا، ماذا كان سيحدث للحضارة الغربية؟ هذا في حصة مقررة في لبنان في فترة الانتداب الفرنسي وما بعد الانتداب الفرنسي.

نعود إلى فكرة الوعي السالب، وكيف يتجلّى عبر مظاهر عدة، كيف المستشرق يتبنى نظريات المستشرق، ويُدافع عنها؟ بمعنى آخر كيف تدبّج الضحية هذا المديح للجلاد؟ ثم تشكو منه في النهاية؟ لو لم يجد الاستشراق من يتبنون نتائجه في هذه المنطقة، لكان تحوّل منذ زمن بعيد من مؤسسة تابعة للمؤسسة الاستعمارية الكبرى، إلى مؤسسة علمية أكاديمية تُعنى بحوار الحضارات. لو أردنا بشيء من حسن النية أن نصدق البيان الذي أصدره المستشرقون الفرنسيون وعلى رأسهم «مكسيم رودنسون»، هناك تفاؤل بأن الاستشراق قد أدرك خطأه السابق، وأنه بدأ يتحول من تابع استعماري إلى محاور حضاري.

لكن لدي تفسير أن مثل هذا البيان أعقب الحملة ضد «إدوارد سعيد» وأراد الاستشراق أن ينقذ نفسه، لا لينقذهم وإنما ليتمظهر بمظهر آخر بعد أن يكسب ثقة المثقفين العرب الذين يتعاملون مع لغات أخرى.

هناك بُعد خطير بالنسبة للاستشراق، وهو فروع دراسات الأدب العربي واللغات الشرقية في جامعات الغرب. أذكر هنا شهادة قدّمها الأستاذ «محمد أركون» في أحد كتبه عن الكيفية التي تمنح بها شهادة الدكتوراة في بعض الجامعات الغربية لطلبة من العالم الثالث، تحديداً العرب، يقول محمد أركون: يحدث نوع من التسهيل مبالغ به لتسطيح المعرفة، وضرب عصفورين بحجر واحد، عندما تأتي أنت لتكلف شخصاً عالماً بأن يفعل شيئاً ضد بلده وحضارته، فلن تفلح، لكن عندما تأتي إلى شخص أقل علماً، لكن تغدق عليه من الألقاب ما يُعمي بصيرته، عند ذلك يفعل أي شيء لكي يستمر في استحلاب هذا الإغداق. ويذكر أركون شيئاً يذكرنا بعقدة اللااستحقاق في علم النفس،

وهي نوع من الـ (Cpmplex) يتكون لدى أشخاص تضعهم في أماكن ليسوا جديرين بها. عند ذلك تستطيع أن تبتزّهم كيفما شئت لأنه منهمك في أن يستطيل في قامته حتى يصل إلى المسافة التي نحتّها له.

لذلك فإن الفئات التي كان يعتمد عليها الغرب لتوصيل الكثير من الأفكار والاتجاهات وما يُسمّون «سماسرة الحضارات» غالباً ما كان ينتزعهم الاستعمار من عديمي الاستحقاق. ذلك ببساطة، لماذا في مصر وهي البلد التي دخلت قبل الدول في الدورة الرأسمالية العالمية، واتصل بأوروبا من خلال محمد علي ورحلة الطهطاوي ومدرسة الألسن وغيرها. هذا البلد ما تُسمى بالبرجوازية الوطنية فيه، هي التي كانت تسعى إلى الاستقلال عن الإنجليز. يعني بقدر ما نجد واحداً مثل «طلعت حرب» مطالباً بالتمصير -لأن مفهوم التعريب في مصر لم يكن موجوداً، وإنما تمصير الاقتصاد وتوطنيه- كان هناك شخصيات هامشية في مصر، تعمل مع الوجود البريطاني، وبأقصى طاقتها، لأن الإنجليز اتّبعوا هذا المفهوم في علم النفس، وبحثوا عن أشخاص يعانون من عقدة اللااستحقاق، وبالتالي طلبوا منهم ما يشاءون. وفي استطراد أقول: آخر دراسة يقوم بها واحد من الحفريين عن حكومة فيشي الجاسوسة التي قامت في فترة الاحتلال النازي لفرنسا، يدرسها من خلال عقدة اللااستحقاق. أقل جنرال شأناً في فرنسا كان «بيتان» فلما أصبح رئيس جمهورية فهو مستعد لأن يبيع فرنسا كلها، وهذه المتوالية تحدث الآن. وأرجو أن يأتي يوم ندرس فيه الشخصيات السالبة في تاريخنا الوطني والجواسيس الأبطال الكبار، ندرسهم من خلال عقدة اللااستحقاق.

أكتفي بذلك مع اعتذاري وانتظاري بأن نتحاور معاً لمناقشة الموضوع. وشكراً.

أ. د. سعيد التل:

في البداية أشكر الأستاذ خيري منصور على هذه المحاضرة القيّمة، عندي مجموعة ملاحظات، الأولى: أعتقد أن المستشرقين يمكن أن يُصنّفوا إلى فئتين، الأولى: كانت جهودهم أكاديمية هدفها البحث العلمي والاستكشاف. وأعتقد أن الأغلبية منهم من هذا الصنف، قد تكون قد استفادت من جهودهم حكومات وجهات أخرى، لكن هذا لا ينفي أمانتهم من حيث غرضهم الأساسي.

الصنف الثاني: بُعثوا لجمع معلومات لتخدم الدول التي أوفدتهم. والمتتبّع يجد أن مثل هذين الصنفين موجود. وخصوصاً أن كثيراً من الكتب التي تنشر لهم الآن، ولم نكن على علم بها، تبين ذلك. النقطة الثانية: الأستاذ ذكر محمد أسد، وهو يهودي نمساوي أسلم، فهو ليس مستشرق أو مستغرب وهو في مكان بينهما. بالنسبة للحضارة الغربية ذكر الأستاذ منصور أن الحضارة الغربية مزيج من ٢٦ حضارة، الحقيقة أن الغربيين يصفون حضارتهم بأنها تقوم على الحضارة الأوروبية المسيحية. الحضارة الإغريقية المسيحية كانت البوتقة التي صبّت هذه الحضارات، والحقيقة تناظرها الحضارة العربية الإسلامية فهي قامت على أساس مبادئ وقيم الإسلام، وانصهرت مجموعة من الحضارات قد تتجاوز ٥٠ أو ٦٠ أو ٧٠ حضارة، ابتداءً من حضارة الفندال في الأندلس، للمصرية والعربية، البيزنطية والحضارات القديمة في بلاد الشام كالعبرية والفنيقيّة والكنعانية والآرامية، ثم الفرس... الخ. كلها تبوتقت في بوتقة

الإسلام، فتحصّلت الحضارة العربية الإسلامية، ولو حلّلنا الحضارة العربية الإسلامية لوجدنا أن لجميع الشعوب الإسلامية حصة فيها، وقد تكون حصتنا كعرب ليست الحصة المتميزة، فقد تكون حصة الإيرانيين أكثر منا. يُقال أن من أهم ١٠ كتب في الحديث، ٦ للسنة، و ٤ للشيعة، الـ ١٠ كتب من وضع فارسي.

النقطة الثالثة: ذكر الأستاذ مفهوم الشرقي في تراث الغرب، خصوصاً هذا المفهوم في أوروبا الشرقية، الحقيقة أن الأتراك العثمانيين مع تقديرنا أنهم حموا بلاد الإسلام في مرحلة مهمة ودائماً. ننظر إلى المماليك والأتراك نظرة غير إيجابية، وأنا أقول -ولست بمؤرخ- أن هذه البلاد لولاهم لما كانت عربية إسلامية. لما جاء الصليبيون أخرجهم بصورة رئيسية المماليك والأتراك. وكتب التاريخ تقول ذلك.

والعرب فتحوا بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا، وكان فتحهم مفهوماً، لأنهم أصحاب الرسالة أو حملتها، فاستوعبوا الإسلام ونقلوه، في حين في الغرب كان العثمانيون شرسين جداً، كانوا عندما يحتلوا بلداً، يقتلون جميع الرجال في الغالب، تُسبى النساء، يؤخذ الأطفال ليربوهم وهم الإنكشارية، لذلك انتقلت في الغرب هذه الصورة غير الدقيقة عن الإسلام. طبعاً أنا لا أتهم العثمانيين -لا سمح الله-، أنهم كانوا مسيئين، لكن هذا كان فهمهم، وبالتالي كثير من التوجهات الغربية نحو العرب والمسلمين كانت من هذا المنطلق إلى حد كبير.

أقول: لو أن الإسلام انتقل إلى دولة غربية، أو لو صار الألمان مسلمين لتغيّرت أمور كثيرة، ولو انتصر العرب المسلمون في «بواتيه» لاختلفت الأمور. أخيراً يُهيّأ لي أن هذا الإرث الخلافي بين الحضارات والأديان أوشك أن ينتهي، وبدأت مرحلة حوار الحضارات وتعايشها، بمعنى أن المجتمعات الإنسانية تطوّرت، ولم يعد بالإمكان قلب مجتمع

من عقيدة إلى عقيدة، أو أن يستعمر شعب شعباً آخر. فأوشكت الصراعات القديمة على الانتهاء، وظهر تعاون الحضارات وإغناؤها لبعضها البعض. وشكراً.

الأستاذ: عبدالسلام القدّومي:

أشكر الأستاذ على موضوع المحاضرة. الأستاذ خيري يقدّم نفسه ككاتب على الساحة الأردنية، وأقرأ مقالاته كلها في الدستور، لكنني لم أستطع تصنيفه في أي خانة، وما الذي يريده منا كل يوم؟

الأستاذ: أمين نايف ذياب:

أفهم الاستشراق بأنه لم يكن للتأثير في عقولنا، وجاءت الدراسات الاستشراقية للتأثير في عقول الغربيين أنفسهم، أي بوضع صورتنا عند عامة الغربيين، وليس لتغيير صورتنا، فلم يكن مفهومه تبشيرياً بقدر ما كان عكسياً، أن يعطي صورة عن الشرقيين لهم، فأوجد ما يُسمى العقل الغربي العدائي الشديد العداء للإسلام والمسلمين وحضارتهم وما زلنا نعانيه. وله منحى آخر في استهداف النخبة وليس الجماهير، فأنتج نخبة تفكر كما يفكر الغرب.

وكل ما يُسمى بالتّيّار الرأسمالي والتيار اليساري إنما هو حقيقة منحرف عن تراثنا وهادم له، ولا يفرق بين التراث والحقائق التاريخية، أخطاء تاريخية تطبيقية في تاريخ أمتنا حدثت، فيبرز الأخطاء على أنها نحن المسلمين. والأستاذ خيري هاجم المرأة عند الأفغان والسودان، وكنت أتمنى أن يكون قارئاً لوضع المرأة في الإسلام، أما أن يأتي ليهاجم من خلال (الطالبان) يهاجم تراثنا.

ونقطة ثالثة: وهي رد على دعوة معهد الفكر الإسلامي والأستاذ خيري: لا يمكن إجراء حوار الحضارات، فالدعوة إلى حوار الحضارات

هي دعوة إلى اندثار أمتنا، وهذا الكلام مؤسف جداً أن «نديم نعيمة» ألقى محاضرة اسمها «التراث والحداثة» قبل ٤ أيام في شومان، من أرقى المحاضرات وهو مسيحي، قال: الأخذ بالحداثة يعني زوال أمتنا، وأنا أرفض حوار الحضارات إطلاقاً، فالمهم الدعوة إلى إنجاز حضاري وليس إلى حوار الحضارات، وأحذّر من دعاة اندثار الأمة. وشكراً.

د. محمود الرشدان:

شكراً للمحاضر، عندي سؤال حول حوار الحضارات أو صراع الحضارات -ويبدو أن الأستاذ أمين سبقني في جزء مما كنت سأقوله- استمعنا في المرة الماضية إلى حتمية ما يُسمى الحوار، باعتبار أن العالم أصبح قرية صغيرة فليس هناك مجال -عند بعض المفكرين- لما يُسمى صراع الحضارات. سؤالي: هل ترى أستاذ خيري من قراءاتك أن الحضارات تتحاور، أم أنه عندما تنشأ حضارة قوية تنصهر فيها وتتعلم من غيرها ما تصهره في شخصيتها، أو تعدّله، لأن الحوار يقتفي تكافؤاً أو قرباً بين المتحاورين. يعني إذا جاء -على مستوى الشعوب- قوة حضارة لها غلبة، مع أناس آخرين، هل ينشأ بينهم حقيقة حوار حضارات، أرجو التعليق.

وهل البديل عن الحوار هو الحرب أو الصراع، أم أن هناك بديلاً آخر لا هو حوار بالمعنى التقليدي بين مستعل ومستعلياً عليه، ولا هو صراع بالمعنى العسكري. وشكراً.

أ. عبدالحميد درهلي:

نهنئكم يا أستاذ خيري على حواركم الشيق، ﴿وقل رب زدني علماً﴾ وأقول: زادتنا محاضرتكم الدّسمة تقديراً عظيماً لشخصكم، ومقالاتكم زادتنا علماً على علم، بارك الله فيكم وفي قلمكم الرزين الممتع. أخي

أود طرح موضوع يشغل بالي راجياً إيجاد جواب شافي: لا شك أنّكم تعدّون الأستاذ كمال صليبي مستشرقاً نجح في إثبات زيف تاريخ يهود والعهد العقديم والتلمود والتوراة وكذلك أكاذيبهم التي نطق بها إلههم الصنم «يهوه» واستناداً إلى ما وضّحه بالدليل القاطع في مؤلفاته عن فضح أساطيرهم وتحركاتهم أي قبائلهم الإثنا عشر في شبه الجزيرة العربية، والعجيب في الأمر أن المفكرين والمؤرخين العرب لاذوا بالصمت إزاء شروحات «كمال صليبي» باستثناء الشيخ «محمد الجاسر» المؤرخ النجدي الذي طعن في مصداقية محتوى كتابه. إذن، لماذا؟ ولماذا لم يترجم هذا الكتاب أو مؤلفات المؤلف، كما أرجو أن تبدوا لنا رأيكم فيما ذكره المولف من طروحات ولماذا لزموا الصمت دون إبداء الرأي من معارض أو مؤيد، وهذا يلزمنا سياسياً، بينما أخذ بعض المفكرين العرب بتحريات المستشرقين الآخرين الألمان والفرنسيين والإنجليز، التي أجروها في اليمن وشماله، وربما لا تكون صحيحة، هل لزموا الصمت خشية أن يزحف اليهود الجدد إلى المناطق التي ذكرها المؤلف؟ أم لأن الشروحات التي جاءت في الكتاب تتعارض مع بضع السور في القرآن الكريم؟ أما لأن جميع ما ذكره المؤلف مجرّد خزعبلات وأراجيف. وشكراً.

أ. خيري منصور:

شكراً على المداخلات جميعاً، نبدأ بملاحظات معالي د. سعيد، أنا أتفق معه بهذا التصنيف بين المستشرقين التابعين للمؤسسات الاستعمارية والأكاديميين الأبرياء، لكن عملية التصنيف ستبدو صعبة، لأن الاستشراق خلق مناخاً في الغرب مثقلاً بالعدائية تجاه الشرق، مما أفقد حتى من يصنفّون إلى مستشرقين أبرياء براءتهم. فعند ما تشيع فكرة ما تتحول إلى مناخ مبثوث في كل وعي المجتمع.

وبالنسبة لحوار الحضارات، عندما تكون الحضارات أنداد، فمن الممكن أن تكون بينهم الحوار. أما وجود الحضارة الأضعف فهي مرشحة

للابتلاع من الحضارة الأقوى. وأصوغ إجابتي بشكل سؤال استنكاري إلى حد ما: «تيمور لانج» عندما جاء إلى هذه المنطقة المسلمة، هل كان مسلماً؟ لم يكن مسلماً. تصوّر أن هذه الحضارة التي تخاف الآن، لم تكن تخاف في عمرها، الحضارة الوحيدة التي امتازت بأن غزاتها كانوا وثنيين ويعودون معتنقين فكرتها. وصدّقني أن هذه الجملة وردت في بالي بالرغم من أني لست أظهر إسلامياً لكن وردت في بالي: على قبر «تيمور لانج» في طقشند، وطلب مني رئيس اتحاد الكتّاب في طقشند أن أكتب كلمة، فكتبت هذه الكلمة: «أن الغزاة يأتون إلى هذه الحضارة وثنيين ويعودون مؤمنين، انتصار «تيمور لانج» (وهو لاكو) في عزّ الحضارة الإسلامية وهدمهم لها، كانت الحضارة مهزومة كأشخاص ومؤسسات، لكنها كانت منتصرة كفكرة. إذن، لماذا تخاف من الاحتكاك بأي حضارة أخرى إذا كانت ماثلة، رضيت أم غضبت، الآن الحضارة الغربية ماثلة أمامك، لا سبيل إلى نكرانها، إما أن تتحاور معها أو تلزم الصمت، وتتحور إلى مجرّد صدى لها.

بالنسبة لسؤال الأخ عبدالحميد درهلي نرحّب به، أقول: أختلف معك قليلاً، كمال صليبي عربي من لبنان، وليس مستشرقاً، وأقام فترة في الأرن، وألّف كتاباً عن الأردن السياسي، والرجل يكتب باللغة العربية، وكتابه أثار هذه القضية الكبرى «التوراة جاءت من الجزيرة العربية» واعتُبر الكتاب أطروحة خطرة جداً، لأنه يتحدث عن مناطق اليهود القدامى في عسير، وهذا في وقته أحدث قلقاً في السعودية، بمعنى أن اليهود سيبحثون عن أطلال دولتهم القديمة في عسير، وعندئذ سيصبح هناك مشكلة كبيرة وتنتقل القضية الفلسطينية جغرافياً من فلسطين إلى الحجاز. إذن، الصمت كان بمتسويين إزاء طروحات د. صليبي: صمت رسمي، احترازي، تخوّف من المستقبل. وصمت عربي عام ناتج عن

الجهل. الرجل طرح موضوعات تحتاج ليس إلى إنشاء، وإنما إلى نبش حجارة ومخطوطات، ثم لم يُقدمَ د. صليبي على مشروعه إلا عندما أتقن ٤ لغات قديمة على الأقل، وهذا استغرق ٣٠ سنة من العمل الجاد. التصدّي لمشروع من هذا النوع لا يكون بنعم أو لا، ولا يتم بالإنشاء، يجب أن يكون لديك نفس أجهزة المفاهيم، التي تنقد بها العمل، فيكون عندك أدوات نقده ومفاتيحه. ومفاتيح هذا الموضوع نادرة، لأن المتخصصين في هذا الإطار نادرون، وبالنسبة للكتاب فهو موضوع بالعربية، وهو ممنوع من بعض الدول العربية، وصدر الكتاب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

أ. حسن أبوهنية:

شكراً أستاذ خيري، سمعت كلمة استشراقات، ولا شك أن كلمة استشراق تعبّر عن آلة فخمة، ويذكر (فؤاد سسكين) أن هناك ٥٠ ألف كتاب أنجزت هذه الآلة الاستشراقية الفخمة، المثير في الأمر الأن الأستاذ «إدوارد سعيد» مما كتبه كجهاز مفاهيمي، أدخل الشرق في مفاهيمه، وأعاد إنتاجه وغربنته وشرقنته، بطريقة أو بأخرى معتمداً على الحفريات الفوكونية، وأي مستشرق لا يستطيع أن يخرج عن نظامه المعرفي إلا نادراً، وإذا خرج يخرج بلا عودة، مثل «محمد أسد» وغيره، أقول: استشراق موضوعي المعنى الموضوعي غير موجود على ا لإطلاق، لكن الاستشراق هنا يعيد إنتاج الشرق بطريقة غربية، وهذا ما أوضحه الأستاذ «إدوارد سعيد»، وإذا رأينا الاستشراق الروسي مثلاً فهو سيختلف، سيتبنى المادية التاريخية، وكذلك جميع الاستشراق البريطاني والفرنسي، قد يكون هناك منصف بالنسبة للرؤية العامة للشرق. القضية التي طرحها الأستاذ «أركون» صحيحة. بمبدأ بدوي وجورجي زيدان وأحمد أمين جرى نقل كامل عن الاستشراق والقضية العرقية، ويعيدون

التكرار الكامل لكل مقولات المستشرقين حرفياً، وحتى المفكر الكبير «الجابري» يعيد إنتاج الاستشراق بطريقة أخرى، فكر الشرق الذي هو فكر مباعدة وتفريق أو الانفصال والمجاورة حسب فكر الأشاعرة، أو فكر المغرب، وهو ينحاز إلى الغربي وهو الأندلسي. وهذه مقولات في داخل بنية العقل، والاستشراق ما زال يؤدي نفس الدور، وقضية صدام الحضارات، وأوضحها إدوارد سعيد. فالرؤية الغربية ليست عشوائية ولا عفوية، وإنما هناك جهاز مفاهيمي ناتج عن العنف التاريخي بين الحضارة الإسلامية والغربية، وهناك تغذّي السياسة باستمرار، فهو غير بريء على الإطلاق. وعبارة «الاستشراق المضاد» تحدثتم عن الاستشراق، لكن أريد أن أسمع عن الاستشراق المضاد.

لكن أطروحة إداورد سعيد حقيقة هي من داخل المنظومة الغربية، وعملية التفكيك التي مارسها في أمريكا غير معهودة على الإطلاق. وفي فرنسا بدأت بعض الأطروحات التفكيكية للميتافيزيقا الغربية. لكن الغرب لا يستطيع ذلك. بدليل أن إداورد سعيد، صرخ من موقف الغرب من الشرق، وكذلك «محمد أركون» في الإسلام وحواره مع الغرب، وأقول: إن الاستشراق شيء في بنية العقل الغربي بحاجة إلى إعادة نظر.

أ. محمود أبوالرز:

لفت نظري استغراب الأستاذ خيري لما يُسمى(الاستشراق الإسرائيلي) الذي يستغرب كما يشاء كما استوثق الجمل، ويستشرق كما يشاء، وكيف يغيب عن أستاذ بهذا العقل الفذ، وأن هذا الموضوع ليس موضوع استغراب على الإطلاق، اليهود هم ركيزة أساسية في الاستشراق الغربي على الإطلاق، ابتداء من «مرجليوث» إلى (برنارد لويس) في أمريكا، وهو من أصدقاء إدوارد سعيد، أذكر عندما كنت

طالب دراسات عليا في جامعة «هارفرد الأمريكية» قال أحدهم كلمة تنمّ عن عمق الفهم الدقيق الانفصامي: أن الفكر الاستشراقي هو الذي يبني الجدار بينه وبين الحضارة العربية الإسلامية. هو الذي يستعدي بها ويشوّه صورتها في الذهن الغربي، وعن سابق عمد وإصرار. لأنه يرى أين عدوه الأصيل، والوحيد، قد لا يكون الوحيد بالمعنى المطلق، يقول دكتور في جامعة هارفرد وهو «صموئيل هانتغتون» في صراع الحضارات كلمة مشهورة قال: «الخطر الحضاري الإسلامي وهو مؤمن بصراع الحضارات» ويروّج له في أمريكا وله تلامذة في أمريكا وعلى مستوى صنّاع القرار. والدليل على ذلك، أن الغربيين ينظرون إلى ألمانيا كجزء من العقلية الغربية لم تضرب بالنووي، لماذا ضُربت اليابان؟ فالدم الأصفر والدم المسلم مباح عند الغربيين وهذا لا يخَفي على أحد، أما الدم الآري وهو الدم الغربي ومنه اليهودي -وبالمناسبة نجح اليهود نجاحاً مذهلاً في أمريكا على أن يجعلوا الناس من تلميذ الابتدائي إلى صنّاع القرار في البيت الأبيض يجاهر حينما يتكلم عن المعجزة الأمريكية الحديثة- إن جاز التعبير والبوتقة الأمريكية أن يقول إن الحضارة الغربية بكل منجزاتها الحضارية الحديثة قائمة على الحضارة اليهودية المسيحية. أدخلوا اليهودية كعنصر أساسي لا يتجزأ من الفكر الغربي والاستشراقي تحديداً في مواجهة للآخر العربي المسلم. وبالتالي أعتقد أنه لا غرابة على الإطلاق أن يكون هناك استشراق إسرائيلي، لأنه هو أصلاً امتداد للاستشرق اليهودي ولعمق الحقيقة الـ(Contribution) المساهمة اليهودية في نسخ المفهوم الاستشراقي المشوّه عن العربي المسلم، الحقيقة أن اليهود لهم الباع الأكبر والطويل في هذا. وهذا مجرّد تعليق، وأنا لا أختلف مع كثير مما طرحته، ولكن أؤكد على أن اليد اليهودية ساهمت بموضوع الاستشراق بجملتها التاريخية، وشكراً.

د. أحمد البشايرة:

شكراً للأستاذ على محاضرته الغنية، أشار الأستاذ إلى(ابن فضلان)، ودخول العرب الأندلس، والطلائع التي سبقت ذلك، وكأني فهمت أنه اعتبر ذلك نوعاً من الاستغراب، وكأنه وضع هذه الحالة مع الاستشراق الذي حصل فيما بعد كعملية متكافئين متقابلين، في المنطلق والهدف. ألا يعتقد الأستاذ أن بهذا يريد الاستشراق بسوءاته الكثيرة، وفيه تساوي في الحالتين، مع علمنا بمنطلقات ودوافع أسماه الاستغراب، والاستشراق فيما بعد مختلفة جداً، وأعتقد أنه لا تشابه هنا لا من حيث المنطلقات ولا الأهداف. وأشار كيف أن الاستشراق في أمريكا بدأ أكاديمياً، ثم تحول بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن أصبح استشراقاً مماثلاً للاستشرق اللاأوروبي من حيث نظرته العدائية والقومية للشعوب العربية الإسلامية بشكل خاص. ولم يذكر الأستاذ تفسيراً لذلك، ألا يمكن أن تكون الصهيونية وفق سياسة معينة ترى آثارها ونتائجها. وشكراً.

أ. زيد أبوالحاج:

شكراً للأستاذ خيري منصور على هذه الاستشارة التي دفعتني للحديث: هل الاستشراق تنظير موجّه من الغربيين نحو جمهورهم أي أنفسهم؟ أم هو نحو أبناء الشرق؟ أظن أن الـ ٦١ ألف كتاب التي أشرت إليها هي موجهة للعالم ككل وبالتالي فمثلاً دائرة المعارف الإسلامية بلغاتها الثلاث وترجمتها العربية، هي موجهة للعالم بما فيه نحن. كأنهم يقولون لنا: نريد أن نعرّفكم أنفسكم، وهذه حقيقتكم خذوها من عندنا، لا يختلف اثنان أننا صدى، حتى مؤسساتنا وجامعتنا الكبيرة، جامعة القاهرة كأن على رأسها إسرائيل ونيكلسون وكرومر وغيرهم، وحتى الآن الجامعات العربية تعتمد الشهادات العليا الغربية حتى في الدرسات الإسلامية، تعتمد من يتخرج على أيدي المستشرقين، مقابل من يتخرج

على يد أبناء أمته. وأما عندما نتحدث عن حوار حضارات أظن أن جبهتنا مخترقة وهي ليست متماسكة بالقدر الذي يصنع حواراً متكافئاً مع الغرب. إذا كنا لا زلنا لا نثق بأنفسنا وعلمنا ومنهجنا. هنا تعليقات على سياق الاستشراق وأنه جزء من سياق تطور الفكر الغربي في القرن الثامن والتاسع عشر، سيطرة الغربي الأبيض على العالم، في أمريكا وأفريقيا والهند وحتى على القمر. الاستشراق هو جزء من هذا الفكر الذي يريد أن يهيمن ويسيطر. البواعث كثيرة: الدين، توابل الهند، أي بعد التجارة ورأس المال، والسياسة، مكتب الهند الشرقي البريطاني في الهند أو مكتبتها في القاهرة كانت مكاتب ترسل تقارير شهرية إلى لندن عن أحوال المنطقة. المغامرة والفضول وحبّ الاستطلالع العلمي أو اللغوي جاءت أيضاً في سياق مواز في حدما مع هذا. آخر شيء أو أخطر شيء، أشبّه إليه، وهو المحتوى التوراتي للفكر الغربي ومعه الاستشراق. الأمثلة كثيرة: فكرة السامية وهي مقولة توراتيه، أن أبناء نوح هم سام وحام، بدأها أحد المستشرقين اليهود النمساويين في القرن الثامن عشر، وأخذت أبعاداً سياسية وفكرية وأصبح «رينان» وغيره يصنّفون العالم كله ضمن مقولة يهود أساساً.

تاريخ منطقتنا، البحث في التاريخ الديني لهذه المنطقة، كل الحفريات التي جاءت إلى هذه المنطقة تحاول أن تثبت أن اليهود هم فقط الذين عاشوا هنا وبقوا هنا، وهي لهم. والمؤسسات التي خصصت للحفريات الهيودية مثل صندوق استكشاف فلسطين، كلها تنطلق من فكر توراتي، أقول: أن المحتوى التوراتي للفكر الغربي والاستشراق جزء منه، حاضر هنا.

أ. خيري منصور:

لا أخفي سعادتي بما سمعت من ملاحظات، وأن موضوعات الاستشراق الآن حيوية، ويقرأها الناس ويناقشون حولها. بالنسبة للاحظات الأستاذ كيف استغرب الاستشراق الإسرائيلي، وليس اليهودي، وللتفكير إسرائيل الآن تستخدم وللمرة الأولى وعلى استحياء مصطلح «الأسرلة» أسرلة اليهودية، مفهوم يقول بأن (مكسيم رود نسون) يهودي. مستشرق فرنسي يهودي، وليس يهودي فرنسي كما تقول إسرائيل، مع أنه فرنسي ابن فرنسية، يعيش في سياق الحضارة الفرنسية، لكنه ديناً يهودي، إذا أنظر إلى المستشرقين اليهود من أوروبا أو من قوميات أوروبية مختلفة على أنهم تابعون تماماً للقوميات التي يعيشون فيها، وإلا سأكون عندئذ أعمل على استكمال الهجرة اليهودية من العالم على صعيد الأفكار، الآن إسرائيل لم تكتف بعودة المهاجرين الأشخاص، تريد أن تعيد الماركسية أيضاً إلى إسرائيل. ماركس يهودي، لكنه ضد اليهودية في نهاية المطاف اختلف وتقاطع تماماً مع المثيولوجية اليهودية وكل أدبياتها عندما قال: (اليهود عاشوا بفضل التاريخ وليس رغماً عنه فيما الأطروحة اليهودية المعروفة أن اليهود عاشوا على التاريخ «مارجليوث» هل تعرف سيدي أن كل الزوبعة التي أثيرت حول طه حسين في عشرينات القرن على أنه أخذ من منهج «مارجليوت» أيضاً اشتغل حولها أناس، غريب كيف كان في ذلك الوقت يهود في مصر، تسلّلوا إلى مجلات كبرى، للأسف حتى المرحلة اللاحقة في بداية الأربعينات، أتضح أن مجلة «الكاتب» المصري التي كانت تصدر سنة ١٩٤٦، كان يشرف عليها عن بعد «إيبان نفسه» الذي كان وزير خارجية إسرائيل، وكان ينفق علهيا ٥ آلاف جنيه إسترليني في السنة.

انفتحت معلومات خطيرة، فالقول أن طه حسين أخذ عن (مارجليوت) والمحاكمة التي حدثت، كل هذا صناعة ترويجية لا معنى لها، المؤثر الأساسي في طه حسين هو «ابن سلام الجمحي» وليس مارجليوث، وعملية التشكيك بقصة التكرم والشعر قديمة وموجودة لدى مؤرخين عرب وعلماء لغة وممحصّي شعر جاهلي، ولم يكن مارجليوث، ولقد لُبِّسَت القصة وكأن «مارجليوث» هو المرجعية الكاملة لطه حسين، حتى يحدث نوع من القطيعة المعرفية مع كل موروث الشكل للتاريخ العربي على اعتبار أنه كان موروثاً يُسمّى. (عقلية ما قبل منطقية)، فبالتالي العقلية ما قبل منطقية لا يوجد لها مرجعية تستند إليها، حتى علي عبدالرازق في كتاب «الإسلام وأصول الحكم» والزوبعة المماثلة التي أُثيرت تحوله وحاولوا أن يجدوا له مرجعية أخرى غير مرجعية.



المنهج الفقهي في التفكير الإسلامي

الدكتور عمر الأشقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله صحبه أجمعين. هذا البحث يهدف إلى تحديد المنهج الفقهي، وكما هو العنوان في التفكير الإسلامي، وإن كان في ظني أن المنهج الفقهي وحده يكفي.

الوقوف على هذا المنهج يحتاج إلى تحديد معنى الفقه، وتحديد الموضوعات التي يتناولها الفقه ثم بيان طبيعة المنهج؛ بمعنى هل نريد أن نضع منهجاً جديداً للفقه الإسلامي، أم نريد أن نكشف عن المنهج الأصيل للفقه الإسلامي.

في ضوء الجواب على هذه المشكلة يتضح مسار البحث. ولزاماً على الباحث أيضاً أن يبين المنهج فإن كان المنهج أصيلاً فيجب عليه أن يبين المناهج التي زاحمت هذا المنهج عبر التاريخ الإسلامي. نريد بعلم الفقه عند المسلمين علماً يسمى بعلم الحقوق أو علم القانون اليوم، فإذا أنت قارنت بين فروع القانون وبين موضوعات الفقه الإسلامي تجد أن مدونات الفقه الإسلامي مشتملة على فروع القانون بالرغم من الاختلاف بين الفقه والقانون تأصيلاً وتفريعاً.

فالقانون كما تعلم يقسم إلى قسمين: داخلي وخارجي، والقانون الخارجي مع الدولي، والداخلي عام وخاص، وكل فرع من هذين الفرعين تندرج تحته فروع كثيرة.

مدونات الفقه الإسلامي على اختلاف المذاهب الإسلامية تعرضت لكل الموضوعات التي تندرج تحت فروع القانون المختلفة، بل -كما يقول الباحثون حتى الغربيين- إن الفقه الإسلامي أشمل من المدونات القانونية؛ لأن فيه مباحث لا توجد في القانون، كالعبادات مثلاً، و أحكام الأسرة، التي تسمى بالأحوال الشخصية، كذلك الإيمان، النذور، الذبائح، الحلال الحرام، هذه كلها لا يعرفها القانون.

أصل الفقه عند العرب هو الفهم. وكل من أحاط منهجاً بعلم من العلوم فهو فقيه عند العرب بذلك العلم. وعالم العرب وفقيه العرب هو الذي أحاط بجملة من العلوم. بعد نزول الإسلام غلب اسم الفقه على العالم بعلوم الوحي التي جاء بها القرآن وجاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم. فالفقيه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد الصحابة هو العالم بعلوم الوحي؛ عقيدة وشريعة، عبادات ومعاملات، قصص، أخلاق، قيم، كل العلوم التي جاء بها الوحي. لا فرق بين عقيدة أو معاملة أو أخلاق.

في القرن الثاني الهجري وفي أواخره بالضبط عندما بدأت العلوم تدوّن، أصبح لعلم الفقه مصطلح خاص به فإذا أطلق لقب الفقيه، فهو يطلق على العالم بالأحكام الشرعية العملية المأخوذة من الأدلة التفصيلية. وبعبارة أخرى رجال الفقه عندنا في التاريخ الإسلامي هم رجال القانون بالمصطلح المعاصر. فالأحكام العملية التي تتعلق بكيفية عمل الفرق بين هذا وذاك أن القانون وصفي لكن هذا بالأحكام الربانية النبوية المأخوذة من الكتاب والسنة.

على ذلك، نحتاج إلى وقفة قصيرة للمقارنة بين الفقه والتشريع وليتضح معنى الفقه. الشريعة هي الوحي الإسلامي. في القرآن تتعلق بمصطلحين فتطلق على كل الدين «ثم جعلناك على شريعة من الأمر

فـاتبعـهـا» صـدق الله العظيم، أي على الدين كله. وتطلق أيضـاً على النصوص التي تتحدث عن الأحكام العملية وهي بمثابة القانون أي على نصوص القانون مما يسميه عندنا الفقهاء وعلماء الشريعة (آيات الأحكام) و(أحـاديث الأحكام)، وهذا مـادل عليـه قـوله تبـارك وتعـالى: «ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً»، والرسول صلى الله عليـه وسلم يقـول: (نحن الأنبياء أولاد علات، ديناً واحد وشرائعنا شتى». أولاً، العلات هو: أب واحد متزوج أكثر من امرأة، ابوهم واحد وأمهاتهم مختلفة؛ كـذلك الأنبيـاء دينهم واحـد يدينون به لله عـزوجل، وعـبـودية للواحـد الأحد، ولكن الشرائع مختلفة؛ فقد يحرّم شيء في شـريعة ويباح في شريعة أخرى وقد تضيق شريعة وتتسع شريعة أخرى. وعلى ذلك فالفقه الشريعة، وكـما قلنا الشريعة هي الـوحي المنزل من الله عزوجل، والفقـه هو فـهـمنا لهذه الشريعة، وعلى ذلك فـالشـريعة صـواب لا خطأ فـيـهـا، والفقه فيه صواب وفيه الخطأ.

تجتمع الشريعة والفقه في الأحكام التي أصاب فيها العالم أو المجتهد حكم الله تبارك وتعالى، أما الخطأ من المجتهد فهو فقه وإن أخطأ، فهـو ليس بوحي وليس من الشريعة التي هي لكل البشر، أما الفقه فيكون عاماً بمقدار ما يصيب فيه الفقيه حكم الله تبارك وتعالى.

النقطة الثـانية: نبـدأ في صلب المـوضـوع، هل المنهج الفـقـهي منهج نريد بناءه الآن ونبحث كيف نبني منهجاً فقهياً؟! أم أنه منهج موجود نريد أن نتعرف إليه؟!! بمعنى آخر، هل الصحـابة فـهمـوا المنهج الفـقـهي كـما ينبغي أن يكون، أو جـهلوا هذا المنهج؟ الإجابة تكاد تكون واضحـة، فإننا لانتحدث عن منهج نريد أن نقوم ببنائه الآن ولكننا نريد أن نتعرف إليه. هو موجـود، ومهـمة البـاحث أن يتعرّف على هذا المنهج، وإلا فإننا نطعن في جيل الصحابة بأنهم لم يفقـهوا المنهج. وهذا ليس شيئاً غريباً، فـالله

تبارك وتعالى أخبر بأنه بين للأمم الحق، ثم اختلفوا بعد مجيء الحق في قوله تعالى: «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم». أن يكون المنهج غير موجود كما كان الحال عند بني إسرائيل، فلم يكن اختلاف بني إسرائيل عند جهلهم لأن المنهج غير موجود، أو لأن العقيدة غير موجودة، أو لأن الحق غير موجود، لا فالحق موجود، ولكن استقام عليه أناس وضل عنه آخرون.

كما بين الله سبحانه في سورة مريم حقيقة سيدنا عيسى، ثم بعد ذلك قال: «فاختلف الأحزاب من بينهم» فبعد أن بيّن حقيقة عيسى، وقوله: «وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» اختلف الأحزاب بينهم بعد بيان الحق.

الشاهد في هذا أن المنهج الفقهي الأصيل كان يعرفه الصحابة، وليس فقط المنهج الفقهي، حتى العقائدي. فكل هذه المناهج التي هي جزء من الدين. هذا الموضوع منذ فترة وجيزة شغلني، فبدأت أضع معالم للمنهج، وفعلاً اجتمع عندي أربعة عشر معلماً تحت عنوان (تلقي التشريع والعمل بالتشريع)، وضمّنتها في كتاب ينشر قريباً، اسمه «فقه الاختلاف». والقسم الثاني من فقه الاختلاف هو بيان المعالم التي كان في ضوئها الصحابة رضوان الله عليهم يتلقون التشريع. تلقي التشريع يحتاج إلى منهج، والعمل بالتشريع يحتاج إلى منهج. أستطيع أن أجمل أهم الخطوط الرئيسية أو المعالم للمنهج عند الصحابة بالنقاط التالية:

أولاً: الأحكام والمشكلات المنصوص على حكمها بالكتاب والسنةيجب الوقوف في ذلك عند حدود النص. فعندما يقول ربنا: إن الربا حرام، يجب أن نقف عند النص ومهمة الفقيه أن يشغل فكره لفقه النص، ولا يجوز أن يتعدى أحكام الشريعة إلى الشرائع السماوية المحرفة، ولا إلى القوانين الوضعية في ماكان منصوصاً عليه في كتاب الله

وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز أن نقدم أهواءنا وآراءنا «ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» فلا يجوز أن نقدم آراءنا ولا آراء المفكرين وأقوال القانونيين ورجال القضاء بين أيدي النصوص، فنقدمها على ما نص عليه كتاب الله أو نص عليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: يجب على الفقيه أن يستفرغ وسعه في البحث والتنقيب عن حكم المسائل التي تعرض عليه؛ أي ينبغي أن يكون عالماً وأن يستفرغ العالم وسعه وجده في التنقيب عن الأحكام التي تعرض عليه، ولا يكتفي بمجرد نظرة سريعة. فربما كان الحكم موجوداً في النصوص القرآنية ولم يهتد إليه، وربما كان في الأحاديث النبوية ولم يصل إليه، كأحد الأساتذة وهو أستاذ الإمام أبو يوسف، أبو حنيفة سأله عن حكم فأجابه، قال من أين أخذته يا أبا يوسف؟ قال من الحديث الذي حدثتنا به، قال: والله إني لأحفظ الحديث قبل أن تلتقي أمك بأبيك، وما فهمت هذا الفهم الذي فهمته من النص. اذن النص قد يكون موجوداً لكن تتفاوت العقول في فهمه، فبعض الناس يفقهونه، وبعضهم لا يفقهونه.

وكما نعلم قد يغيب عن العالم مهما بلغ علمه النص، ولذلك كان أبوبكر رضي الله عنه قبل أن تجمع السنة إذا عرضت له مسألة يسأل الصحابة في المسجد، أيكم يعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم مسألة كذا وكذا. وعمر ابن الخطاب خفيت عليه أحكام كثيرة، وذكر ابن القيم جملة من الأحكام خفيت على أبي بكر، وعلى عمر بن الخطاب وعلى غيرهما.

ثالثاً: أن الصحابة ومن بعدهم كانوا يمعنون عقولهم في استنباط الأحكام من النصوص التي لا يجدون فيها حكماً في الكتاب والسنة، فإيماءات الكتاب والسنة، واقتضاءاتهما، وحمل النظير على النظير،

والشبيه على الشبيه، فيها علم واسع لمن رزق البصيرة والفكر الثاقب والنظر السديد.

رابعاً: إذا وجد الصحابة ما يخالف قولهم سواءً نصاً أو استنباطاً رجعوا عن آرائهم، ولهذا أمثلة كثيرة في رجوع عمر وغيره عن أقواله عندما كان يبلغهم النص فلا يذعنون لقول أحد إذا وجد النص.

كان الصحابة لا يسارعون إلى القول بغير علم، ويتروون في الاجتهاد، ويقدرون الرأي قدره، إذا كانت المسألة ليس فيها نص، وكانت المسألة اجتهادية. كانوا يقدرون الرأي، فلا يجعلون آراءهم مقدسة، وهذه مشكلة نعاني منها اليوم؛ فيجعل الإنسان رأيه مقدساً قداسة الكتاب والسنة ويوالي ويعادي. ولذلك عندما التقى عمر بن الخطاب مع رجل وسأله عن مسألة، قال: وما يمنعك والأمر إليك فأنت الخليفة، قال: لو كنت أردك لكتاب أوسنة لفعلت، أما الرأي فالرأي مشترك، فلا فرق بين رأيي ورأي عثمان.

خامساً: لم يكن الصحابة يخوضون في مالم يقع، بل كانوا يعدون تشقيق المسائل والسؤال في مالم يقع من التكلف والتنطع، وأخذوا أنفسهم بمنهج اليسر «ونيسرك لليسرى». هذه الجملة من أهم الخطوط التي تبين أو تضبط اجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم. ابتدأ الانحراف عند الأمة الإسلامية أولاً عقائدياً. وكان للانحراف العقائدي انحراف في الفقه، وكان له آثار حتى في الأخلاق. ابتدأ الانحراف في حياة الصحابة وكان أول انحراف نشأ هو انحراف الخوارج، الذين كفّروا كل من خالفهم في موضوع التحكيم، وكفّروا علي بن أبي طالب، كفّروا الصحابة الذين رضوا بالتحكيم، وقالوا لعلي بن أبي طالب إن انحرفت بالكفر ثم رجعت فنحن معك. قال لهم أبطل جهادي مع رسول الله، لا والله! وكانت النتيجة أن أجتثت قواعد عند الخوارج -من جملتها- أي

من القواعد الفقهية التي بنيت على هذا الانحراف أن الحكم لما نص عليه القرآن، فإذا خالف الحديث مافي القرآن فيرفض. ولذلك قالوا الزاني لا يرجم فليس هناك إلا الجلد لأن القرآن نص على الجلد، أين الأحاديث إذن، والسيل من الأحاديث التي تكاد تصل إلى درجة التواتر، قالوا مادامت تخالف القرآن لا نأخذ بها، نحن لا نأخذ أي حديث يخالف القرآن. وأباحوا أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها، وإجماع أهل السنة بما فيهم الأئمة الأربعة والصحابة والتابعون وأتباع التابعين أن هذا محرف، ولا خلاف بينهم، لكن الخوارج قالوا إن هذا يخالف حكماً في كتاب الله، وما هو الحكم في كتاب الله قوله تعالى: «وأن تجمعوا بين الأختين» فالقرآن حرم الجمع مابين الأختين وهكذا. .

ونشأ عن الانحراف العقائدي انحراف فكري وهذا الانحراف اشترك فيه الخوارج والمعتزلة، وبعد فترة من الزمن نشأ غلو وأصبح علي بن أبي طالب إماماً معصوماً عند فرقة الشيعة، والأئمة الأحد عشر من بعد علي معصومون لا يخطئون.

ونشأ عن هذا المنهج أيضاً خلافات في الأصول الفقهية، رفض الشيعة السنة التي رويت عن الصحابة، لماذا؟ لأن الرسول في زعمهم أوحى بالخلافة لعلي بن أبي طالب فخان الصحابة الأمانة إلا أربعاً اجتمعوا على قول، أو اثني عشر على قول. بقية الصحابة خونة بمن فيهم أبو بكر وعثمان وعمر وابو هريرة وبقية الصحابة، معنى ذلك أنهم فسقة، وبما معنى ذلك أن الفاسق لا تقبل روايته، فما رواه إذن أهل السنة واجتمع عليه أهل السنة من بخاري وترمذي ونسائي وابن ماجه ومسلم ومسند أحمد مرفوض. وما السنة إذن؟ هو ما قال به أئمتهم ما في مدوناتهم وكتبم عن علي بن أبي طالب عن الحسين عن موسى الكاظم عن فلان بن فلان من أئمهم لأن الأئمة معصومون فلا يخطئون، وكل

قول يقولونه هو الصواب وهو السنة. وهذا منهج جعلنا ننحرف انحرافاً كبيراً جداً ويصبح بين أهل السنة والشيع بون شاسع.

أهل السنة والجماعة تميزوا بمنهج عقائدي، هناك ثلاث خطوات لتحديد الخلاف على المستوى العالمي، ثم على المستوى الإسلامي، ثم على مستوى أهل السنة، إذا كان الخلاف في أصول الاعتقاد. اليهود لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولا يؤمنون بالقرآن، فهؤلاء ملل واليهود ملة، والنصارى ملة، والمسلمون ملة. والفارق أننا نؤمن أو عندنا أصول للإيمان، وهم يكفرون ببعضها بناءً على ذلك.

كل الفرق الإسلامية تدخل بمسمى يسمى المسلمين بما فيهم الخوارج والمعتزلة، والشيعة وغيرهم؛ لأن الجميع يؤمنون بالأصول الأساسية. فإذا كان الخلاف خلافاً عقائدياً، دون الأصول الكبرى فهو خلاف بين الفرق الإسلامية، أهل السنة لا يكفرون بالذنوب، الخوارج يكفرون في الذنوب، فهذا فاصل بين أهل السنة. والخوارج والمعتزلة والشيعة عندهم أصول، كونهم في إطار، لكن فرق في إطار أهل السنة. هناك مناهج ولكنها مناهج فقهية وليست مناهج عقائدية، ولا تؤدي إلى تكفير ولا تؤدي إلى تفسيق الفرق الإسلامية.

بالنسبة لأهل السنة تمثل إلى الآن نسبة كبيرة، فأهل السنة دائماً وعبر التاريخ الإسلامي يمثلون النصيب الأكبر ٨٠٪ - ٨٥٪ - ٩٠٪، بقية الفرق لا تشكل تياراً هائلاً في العالم الإسلامي، كل اتباع الأئمة الأربعة هم في إطار أهل السنة والجماعة، كل تركيا حنفية، وباكستان حنفية. يوجد هناك خلاف في إطار أهل السنة والجماعة هذا الخلاف له مساران: المسار الأول تيارات فقهية ضخمة تسمى بالمدارس، ثم تتشقق التيارات الفقهية الكبيرة عن تيارات أصغر نسميها المذاهب.

أكثر الباحثين الذين بحثوا في تاريخ الفقه الإسلامي وتاريخ التشريع الإسلامي جعلوا المدارس الفقهية مدرستين: مدرسة أهل الحديث

ومـدرسـة أهل الرأي. وفي دراسـة دونتـهـا في كـتـاب «تاريخ الفـقـه الإسلامي» تبين لي أن المدارس ثلاثة: مـدرسة أهـل الحديث، ومـدرسة أهل الرأي، والمدرسة الثالثة هي مدرسة أهل الظاهر.

وقد شكلت هذه المدارس تيارات كبيرة فقهية وتختلف وتتفق هذه التيارات الثلاثة في إطار أهل السنة والجماعة، لا تخرج عن أهل السنة، ولا يفسق بعضهم بعضاً، ولا يكفر بعضهم بعضاً، كيف ذلك والإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة والإمام مالك هؤلاء أئمة، وكان بعضهم أساتذة لبعض، وبعضهم تلاميذ لبعض، وكانوا ضمن هذه المدارس، وضمن هذه المذاهب. فالخلاف في الفروع لا يؤدي للتكفير والتفسيق، والتكفير على مستوى الملل يهود ونصارى ومجوس، والتفسيق على مستوى الفرق خوارج وشيعة ولكن ليس تكفيراً.

الخلاف الفقهي إذاً لا يؤدي إلى تكفير ولا إلى تفسيق، لكنه خلاف في الفروع، حيث في عصر الصحابة لم ينكر حديث، أيضاً في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن تشكلت ثلاثة تيارات ضخمة: مدرسة أهل الحديث، مدرسة أهل الرأي، مدرسة أهل الظاهر. مدرسة أهل الظاهر لم تنقسم إلى تيارات، ولأنها جزئية وضعيفة سميت مدرسة وسميت مذهباً، وهو مذهب داوود الظاهري.

مدرسة أهل الرأي قال بها مجموعة من العلماء وتوارثوها إلى أن وصلت إلى الإمام أبي حنيفة وشكلت مذهباً فقهياً واحداً.

أما مدرسة أهل الحديث فكان لها عدة تيارات في داخلها متقاربة لكن بينها فروقاً خفيفة وليست بالفروق الضخمة الكبيرة، بينها فروق ولكن خفيفة جداً. اذن بقي لهم اتباع، فمن مدرسة أهل الحديث الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد، هناك علماء كثير يدخلون في إطار مدرسة الحديث، كان لهم اتباع، ولكن انقرض أتباعهم. ابن جرير

الطبري رحمه الله كان له أتباع في القرن الخامس الهجري. الليث بن سعد، وكيع، مجموعة مؤلفة من ستة عشر من العلماء كانوا بمستوى الأئمة الأربعة انقرض اتباعهم بعد القرن الرابع، و بعد القرن الخامس، وبعد القرن السادس أيضاً لكن لم تنقرض مذاهبهم.

أما مدرسة المدينة فكانت لا تنسب لا إلى أهل الحديث، بل إلى الموضع التي نشأت به المدرسة. المدرسة هنا يقصد بها بناء، غرف، وقاعات. لا، فالمدرسة في المصطلح عند الباحثين تيار فكري فقهي له أصوله وقواعده وضوابطه، اتبع الذين قالوا به أولاً، وتبعهم غيرهم فيه فأصبح تياراً سارياً في الدولة الإسلامية يقول به جمع كبير من الناس، ثم يتلاحق الناس مؤصلين على هذا المنهج. ومع أنه لا يوجد هناك مدرسة أهل الظاهر، لكن لا يزال كثير من العلماء منهم الشوكاني من المتأخرين وكثير من طلبة العلم الآن لا يزالون يتبنون الفكر الظاهري، فهو تيار قال به جمع من الناس تبعهم غيرهم فيه فنسميه مدرسة له علماؤه و طلبته وقواعده وأصوله وكتبه ومناهجه.

في بداية الأمر كانت مدرسة **أهل الحديث** وكان موطنها المدينة المنورة مدرسة الصحابة رضوان الله عليهم. بعد وفاة الصحابة، استلم الراية فقهاء كبار كانوا يسمون بالفقهاء السبعة. ثم تسلسلت هذه المدرسة إلى أن وصلت إلى الإمام مالك، ثم جلس الإمام مالك وأصّل هذه المدرسة، وكتابه الموطأ ليس حديثاً صرفاً إنما يمثل هذه المدرسة بشمولها، فيه فقه الصحابة وفقه التابعين وفقهه هو -رضوان الله عليه- وصار أن سار إليه الناس من أقطار الأرض لا يأخذون عنه الحديث فقط، بل يأخذون عنه الفقه، وانتشر تلامذته في العراق وفي مصر والأندلس وفي مختلف أقطار الدنيا. تلامذته في الأندلس كانوا فقهاء الأندلس فقد درسوا على يد الإمام مالك، وكانوا فقهاء شمال أفريقيا، وكل مصر كانت مالكية،

حتى جاء الإمام الشافعي فزاحم شيخه الإمام مالك بعد أن ذهب إلى مصر، وكذلك في العراق. ومدرسة الإمام مالك، مدرسة أهل الحديث، انتشرت في أرجاء الأرض بعد ذلك سميت بمدرسة المدينة، ولذلك فالعلماء السابقون يقولون: صحة عمل أهل المدينة، نفضل أهل المدينة على غير المدينة. وفيما بعد عندما انتشرت، ولم يقتصر موطنها على المدنية المنورة بل أصبح أقل معاقلها في عهد الإمام أحمد بن حنبل في بغداد فسميت بمدرسة أهل الحديث ولم يصبح لها بعد ذلك موطن خاص بها.

هذه المدرسة لها علماؤها وفقهاؤها، وقد ذكر أسماء عدة لها منها: الإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ثم يأتي أهل السنة: البخاري، ومسلم، وأبو داوود، ومئات من أهل العلم الذين ورثوا علم الصحابة وورثوا منهج الصحابة في استنباط الأحكام أي في الفقه.

وقبل أن أنتقل إلى المدرسة الثانية يقول الشهرستاني: سمى أهل الحديث بهذه المدرسة لأنهم كانوا يعتنون بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الخفي أو الجلي إذا ماوجدوا خبراً أو أثراً، وكانوا يكرهون الخوض في الرأي ويهابون الفُتيا والاستنباط إلا للضرورة، إنه المنهج الذي كان عليه اصحابة رضوان الله عليهم نفسه. وكان من آثارهم حفظ السنة، واستنباط الأحكام الشرعية، وتأصيل المنهج الفقهي، وجمع أحاديث الأحكام، وجمع آيات الأحكام إلى غير ذلك.

من الفروق الدقيقة بين هذه المدرسة والمدارس الأخرى، أنهم كانوا يأخذون بالحديث إذا صح مادام قد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم، يأخذون به بشكل مطلق. في مقابل أهل الرأي، أنهم كانوا

يشترطون شروطاً في الحديث إذا كان الحديث في مشكلة عامة وغير مستفيض لا يأخذون به، إذا خالف الراوي ماروواه لا يأخذون بالحديث، إذا جاءهم الحديث -وهذا منهج بعض العلماء- قد جاء من بلد معين لا يأخذون به مثلاً، إذا روى هذا الحديث أحدا من أهل الشام يقول أنا لاآخذ من أهل الشام أو لا آخذ عن أهل خراسان، هم يشترطون شروطاً معينة. أما أهل السنة فيشترطون أن يكون الحديث صحيحاً، وإذا ما وجدوا نصاً عند ذلك يجتهدون على الصورة التي ذكرت سابقاً في منهج الصحابة رضوان الله عليهم.

المدرسة الثانية وهي مدرسة **أهل الرأي**. وكان موطنها في الكوفة، فالكوفة كانت مركزاً إسلامياً ضخماً، وحسبنا أن نعلم أن علي بن أبي طالب في الصراع بينه وبين معاوية كان قد جعلها عاصمة حكمه، واستقر فيها فترة من الزمن، وكان الأستاذ الأول الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. ويقول الباحثون والمؤرخون في التراجم إنه قد نزل في الكوفة أكثر من ثلاثمئة من الصحابة.

المراد بالرأي هو العلم بالشيء على سبيل الظن والاعتقاد، و خصه الفقهاء بالنظر وإعمال بالفكر في الوقائع التي لم يرد بها نص، وكثيراً ما استعمله الصحابة في الحكم المبني على الرأي والاجتهاد وليس هناك دليل. ليس المراد بالرأي، أن مشايخ أهل الرأي الذي انتهينا من المطاف بهم إلى أبي حنيفةوتلامذته، أنهم لا يأخذون بالكتاب والسنة، ليس هذا هو المراد، لكنهم أعملوا الرأي كثيراً ولم يتحروا في معرفة النصوص وفي علم النصوص فأكثروا من استعمال الرأي. يقول الشهر ستاني: سمّوا بأصحاب الرأي لأن أكثر غايتهم بتحصيل وجه القياس، والمعنى المستنبط من الأحكام إلى كلامه.

هناك مؤاخذات على مدرسة أهل الرأي حصرها ابن القيم في خمس، وسأشير إلى عناوينها:

١. ظنوا أن النصوص قاصرة على بيان كل الأحكام.
٢. عارضوا كثيراً من النصوص بالرأي والقياس.
٣. اعتقادهم في كثير من الأحكام أنها شرعت على اختلاف الرأي والقياس، والذي يقرأالفقه الحنفي يرى أن هذا يتكرر عند الحنفية.
٤. اعتبارهم عللاً وأوصافاً لم يعلن اعتبار الشرع لها.
٥. تناقدهم في القياس.

المدرسة الثالثة: وهي مدرسة **أهل الظاهر**. الظاهرية ومدرسة أهل الرأي على طرفي نقيض، هؤلاء أكثر من استعمل الرأي، بينما أهل الظاهر تمسكوا بظاهر النصوص ولم يعتبروا العلل، أي لا يوجد علة. فمن جانب أنهم اعتنوا بالنصوص فقد اعتنوا بها أكثر من أهل الرأي، أولئك اعتنوا بالتعليل والغوص في معاني النصوص أكثر من أهل الظاهر، أما أهل الحديث فقد جمعوا بين الاثنين، وهذه المدرسة تنسب إلى الإمام داوود الظاهريالذي كان على مذهب الإمام الشافعي في بداية الأمر ثم خطّ منهجاً خاصاً به. هؤلاء يردون القياس، وهذه من المؤاخذات التي ذكرها ابن القيم على هذه المدرسة انهم يردون القياس الصحيح، قصدوا أيضاً في فهم النصوص تحميل الاستصحاب فوق ما يستحقه، جزمهم بأن عقود المسلمين -وهذه قضية خطيرة- وشروط المسلمين ومعاملات المسلمين باطلة، حتى يقوم دليل على الصحة. هذه عناوين مجملة جداً.

هذه التوجهات الفقهية الثلاثة الرئيسة أحدثت نوعاً من الصراع داخل المجتمع الإسلامي فبعض المستويات الفقهية المتدنية كان فيها أن تطاول أفرادها على الآخرين، وبقي لنا آثار أورثتنا جملة من الشتائم التي

كان يوجهها كل فريق للفريق الآخر، لكن وبالرغم من هذا وجد الكثير من العلماء الملتزمين المؤدبين، كالإمام مالك -رحمه الله- وكما يقول ابن تيمية فإنك إن تقرأ الموطأ لا ترى هذا، لكنه -الإمام مالك وكما يقول ابن تيمية- بنى فقه الموطأ رداً على الإمام أبي حنيفة لكن بكل ذوق وأدب.

في الموازنة بين المذاهب الثلاثة حصل نزاع على مستوى أئمة الإسلام الذين يشكلون هذه المدارس، وكان أكثرهم مؤدبين كالإمام مالك والبخاري، وكما يذكر الحافظ الزيلعي -وهو من رجال الحديث الحنفية- يذكر أن البخاري يتبع الإمام أبي حنيفة لكن لا يذكر الاسم بل يأتي بالأحكام ويورد عليها الأدلة والبراهين. أصّل أهل الظاهر أصولهم خاصة الإمام ابن حزم رحمه الله، فقد أصّل فقه المذهب الظاهري، وأهل الحديث أصلوا في مدونات كثيرة مثل «تاريخ بغداد»، «المصنف لأبي شيبة»، «تأويل مختلف الحديث»، علما أن الحنفية أيضاً أصلوا مذهبهم في كتبهم.

إذاً فهناك في الموازنة طرفان. أهل الظاهر يقابلون أهل الرأي وفي الوسط أهل الحديث. هؤلاء اعتمدوا على الغوص في النصوص والأحكام واستخلاص الأحكام، وهؤلاء وقفوا عند ظاهر النصوص لكنهم اعتنوا بالنصوص. الإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد هؤلاء جمعوا بين المحاسن التي هنا والمحاسن التي هناك، لكن يؤخذ على أهل الحديث عدة مآخذ ذكرها حتى علماء أهل الحديث وفي عصور متأخرة، بدأت أدمغة بعض من علماء الحديث تتقلص إلى مسألة الرواية، مسألة أحكام فيها طرف بعيد عن التأصيل الذي كان عليها أئمتنا القدامى.

كان حديثي في الأسبوع الماضي حول منهج التفكير الفقهي عند المسلمين، وكما قال الدكتور فتحي في بداية المحاضرة قد يكون للباحث تعديل في عنوان المحاضرة، وقلت قد يكفي أن يكون العنوان المنهج (الفقهي عند المسلمين)؛ كي يمكن استنباط الأحكام الشرعية. ونحن لا نستطيع أن نضع في الجانب الفقهي منهجاً للتفكير، وضع ذلك بعض الأصوليين. كيف يمكن استخلاص الأحكام الشرعية من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة. أما المنهج الفقهي عند المسلمين فهو مجموعة من ضوابط وقواعد تضبط المسار -مسار الفقهاء والعلماء- في اتجاه استخلاص الأحكام الشرعية. وقلت إن هناك تقسيمات عبر التاريخ الإسلامي، تشكل هذه التقسيمات تيارات عريضة تسمى بالمدارس الفقهية، هذه التيارات تقترب وتبتعد، وكل هذه التيارات التي وجدت في التاريخ الإسلامي هي في مدرسة واحدة: مدرسة أهل السنة والجماعة، وهذه المدرسة تتميز عن المدارس الأخرى: السنة، الشيعة، الخوارج، فهذه مدارس في تاريخ الأمة الإسلامية إلا أن أهل السنة والجماعة، يشكلون مدرسة كبيرة من هذه المدارس، بل هي المدرسة الكبرى قديماً وحديثاً، فالمدارس الفقهية تيارات عند أهل السنة والجماعة وقلت إن التقسيمات التي أكثر من الحديث عنها العلماء مدرستان: مدرسة أهل الحديث، ومدرسة أهل الرأي.

إلا أنني رأيت من خلال دراسة قمت بها فيما مضى أن هذه المدارس ثلاثة: المدرستان الماضيتان بالإضافة إلى مدرسة أهل الظاهر فمدرسة أهل الظاهر انبثق عنها مذهب واحد هو مذهب أهل الظاهرية، والذي أطال ابن حزم في تقييد أصول ذلك المذهب وتلك المدرسة وبيان مسارها.

ومدرسة أهل الرأي لم يبق منها إلا مذهب واحد هو مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله. أما مدرسة أهل الحديث فقد كان فيها أكثر من ستة عشر

مذهباً، الذي بقي منهم له أتباع هم ثلاثة المالكية والشافعية والحنابلة. وهناك مذاهب انقرض أتباعها، بقي مذهب ابن جرير الطبري إلى القرن الخامس الهجري. وهناك مذاهب أخرى انقطع أتباعها وإن بقيت آثارها؛ ففقه ابن جرير رحمه الله موجود في كتبه فالمذاهب تيارات تتفق فيما بينها في الأصول الكبرى، وكما قلت كل هذه المدارس والمذاهب هي اتباع جزء من أهل السنة والجماعة فأهل السنة والجماعة، يتفقون في أصلين كبيرين. . الكتاب السنة، ثم ينفرد أهل الحديث وأهل الرأي بالاتفاق على أصلين كبيرين وهما الإجماع، والقياس بينما أهل الظاهر لا يأخذون بالقياس، لقدخالفوا عموم أهل السنة في هذا الأصل. والإجماع وإن كانوا يقولون إن الإجماع وارد، لكن ليس على طريقة الأصوليين التي يقعدها أهل السنة الأصول. بعد ذلك أشرت إلى بعض المعالم عند هذه المدارس الثلاث ولم يتيسر لي أن أخوض في تفاصيل المذاهب الفقهية فقد انتهى الوقت وتركنا الجلسة، عندنا الآن وقت كاف للحوار والجلسة مفتوحة لأي حوار.

الأخ لطفي يقول: بسم الله والحمد لله . . . ، الحقيقة إن وضع منهج لفهم الشرعية أمر في غاية الأهمية، وهذا المنهج في الحقيقة وضّحه الصحابة الكرام؛ وهو أن نفهم الآية والحديث أنها الشرعية، والمقصود في الشرعية القرآن والسنة كما قال الله في الآية ١٨ من سورة الجاثية «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون».

فالقرآن والسنة يفهمان حسب لغة العرب، إذا لم يبين الرسول عليه الصلاة والسلام مدلول الكلمة، مثال ذلك الآية ١٥٩ من سورة آل عمران ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾.

يروي ابن كثير وهو يفسر الآية، أن ابن مردويه روى عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سئل عن العزم الوارد في الآية، فقال: مشاورة أهل الرأى، ثم اتباعهم، فلو صح هذا اللفظ المنسوب إلى

الرسول فلا يجوز للمسلم لا لأنه بيان لا يجوز أن تتجاوزه، ولكن لأنه لم يصح، فعلى المسلمين أن يفسروا الآية حسب اللغة، وبذلك أخذ كثير من العلماء ومنهم صاحب الكشاف عندما فسر الآية حسب اللغة.

قال: القرار النهائي لصاحب الأمر من الرسول، ومن يليه إلى يوم القيامة ممن يتولى أمر المسلمين، يشاور ثم لا يلتزم استناداً إلى الاية؛ لأنها تقول فإذا عزمت ولم تقل فإذا عزمتم. إذن فإذا صح أن الرسول بين معنى اللفظ، فلا يجوز أن يسار إلى غيره. أما إذا لم يصح، فلنا أن نفسر الآية حسب لغة العرب وأذكر مثالاً على ذلك الآية ١٤١ من سورة النساء يقول الله عزوجل: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

هذه الآية قد فسرها السابقون، منهم الصحابة ابن عباس، وعلي -كرم الله وجهه- تفسيرات خمسة، ذكرها صاحب صفوة التفاسير ذكر خمسة تفاسير، لكن هذه الآية بالذات في سنة ١٩٣٠هـ إمام مسجد (صعدة) سئل عن الآية فلم يستطع أن يفسرها، فحولها إلى مجلس العلماء في صنعاء، فلم يجيبوا عليها فقرروا أن يرسلوا بالآية إلى شيخ الأزهر -عليه رحمة الله- وكان يوسف الدجوي، وهو رجل من العلماء الأعلام، وكان رجلاً كفيفاً، فأجاب على الآية، وقال: هذا طلب من المسلمين أن لا يقروا حكم الكفر، ولكن جاء بصيغة الخبر. لقد فسر تفسيراً لغوياً والحقيقة أن تفسيره كان رائعاً وهو ليس من الخمسة تفاسير السابقة. أريد أن أقول إنه لأي مسلم إلى يوم القيامة إذا لم يصح عن الرسول إنه فسر الآية وبين مدلولها ومعناها (لأي مسلم) أن يفسر ذلك وأريد أن أصحح حديث أم سلمة فقد قلت أنه في الجزء الثالث والصحيح إنه في الجزء الثاني. شكراً جزيلاً.

الأخ مرعي:

بسم الله الرحمن الرحيم سؤال للدكتور وهو: أين تقع نقاط الالتقاء بين مدرسة أهل الحديث ومدرسة أهل الظاهر؟ حيث لاحظت أن أهل السنة وأهل الحديث يستشهدون بأهل الظاهر أرجو توضيح هذه النقطة وشكراً.

الدكتور عمر :

بالنسبة لما عرضه الأخ لطفي أنا لا أظن وجود خلاف بيني وبينه لما عرضه، نقد تكلم عن قضية جزئية، وأنا تكلمت عن منهج ينبغي أن نضع خطوطه ومبادئه وقواعده. هو تكلم عن جزئية حسب العنوان الذي وضعه المعهد تفكير وأنا أقول موضوعه هذا أصول الفقه وليس موضوعه الفقه. أما ماذكره، فأنا لا أختلف فيه أنه يجب الرجوع إلى العربية، لكن كما يقول ابن عباس في تفسير لا يختلف عليه المسلمون : (حرمت عليكم الميتة) وهذا لا يختلف عليه المسلمون أنه حرام، ويجب الرجوع للعربية في التفسير لقضايا واضحة لا يختلف عليها وهناك قضايا مختلف عليها قد يكون الرسول فسرها وقد يكون الصحابة. فهناك قضايا واضحة لا يختلف عليها وهناك قضايا مختلف عليها؛ قد يكون الرسول فسرها وقد يكون الصحابة فسروها، وقد نحتاج إلى أن نرجع إلى فهمنا وفهمي وفهمك قد يختلف بالنص . فمثلاً الآية : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ فالمراد بالظلم هنا الشرك، وهذا بيان من الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بعده بيان، لكن قد تأتي الأمور بغير بيان فيختلف العلماء في ذلك، إما ختلاف في معنى الكلمة كالأقراء، اختلف العلماء في الأقراء، هل هو الحيض أم الطهر، واللغة العربية فيها هذا المعنى وفيها ذاك، قد يكون الاختلاف سببه مرجع الضمير في اللغة العربية، فنحن ما أظن فيما عرضه الأخ لطفي فيه اختلاف الأخر .

مرعي : أين تقع نقاط الالتقاء ونقاط الاختلاف؟ الدكتور عمر أنا ذكرت أن أهل الحديث وأهل الظاهري يلتقون بالأصلين في الكتاب والسنة وفي تعظيم النصوص وفي العناية بالنصوص رواية ودراسة وحفظاً واستنباطاً، لكن المشكلة أين نقاط الالتقاء، السؤال يجب أن يكون أين نقاط الاختلاف بين أهل السنة وأهل الظاهر . أول نقاط الاختلاف . إن أهل الظاهر لا يعترفون بالقياس، ولا يعترفون بالعلة، والعلة باب واسع عند أهل الرأي، وعند أهل السنة الحديث باب واسع جداً الإمام الشافعي الإمام مالك الإمام أحمد الإمام

أبو حنيفة، وطبعاً هناك خلاف بين أهل الرأي وأهل الحديث، حتى في موضوع القياس، لكن يجمعهم أن للقياس اعتباراً إذا لم يوجد نص في الكتاب والسنة.

الظاهرية غطوا النقص الذي عندهم بسبب تركهم للقياس بأصول أخرى لم يوافقهم عليها أهل السنة، فالتوسع في الاستصحاب توسع فيه أهل الظاهر توسعاً كبيراً جداً، وبنوا عليه قواعد هائلة، فكل مالم تأت به النصوص يستصحبون فيه العدم الأصلي، وبنوا عليه قواعد كبيرة جداً في إبطال عقود المسلمين، وشروط عقود المسلمين إذا لم يأت شرط يجيز ذلك. وقد أخذت فئة من المعاصرين بهذا الرأي، فأوقعوا الناس في حرج شديد، فقالوا إن كل معاملة لم يأت بها نص فهي باطلة؛ فأوقعوا المسلمين في حرج. وهذا له موضع آخر في الشرع والبيان، وهناك نقاط اختلاف بين أهل الظاهر وأهل الحديث، وكلاهما من أهل السنة وشكراً.

الأستاذ عبد السلام القدومي

أول شيء أريد أن أقوله أنا لست خارجياً أنا حنبلي ولكن أريد إنه أقول إنه قال بعض المقولات التي يجب أن يبدي بها رأيه قال في المحاضرة السابقة إن الخوارج قالوا بجواز نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها، وقال إن الرجم أنكروه. هذا في المحاضرة في المرة السابقة. طبعاً نحن نريد التوثيق، وإذا لم يكن عنده توثيق، أنا أحضرت كتاب مسند الإمام الربيع بن حبيب وفيه ما يدل على أن القولين مفتريان على الخوارج، لا بل كتاب لأهل السنة والجماعة، منهم يقولون عدم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وعندهم الرجم، قالوا بالرجم كما نقول نحن أهل السنة والجماعة. هذه نقطة، النقطة الثانية أريد أن أذكر الدكتور أنه قال عن المعتزلة إنه بدأ الانحراف عندهم عقائدياً ثم صار فقهياً أقول كلمة واحدة وهي أن المعتزلة ليسوا فقهاء، وسبعون بالمئة منهم أحناف، وعشرون بالمئة شافعيون، وقسم زيدي وقسم شيعي، هم مدرسة فكرية بحتة وليست فقهية فكيف حدث عندهم انحراف كما ادعيت. ثم إن

الدكتور ركز على الشيعة وذكر أمثلة على التمسك بالمذهبية لحد الآن، نحن غير قادرين أن نخرج من الشرنقة التي وضعنا بها أنفسنا، ونحن في القرن العشرين. قال الشيعة: العصمة، أين هم المعصومون؟ وأخذوا على الخوارج أنهم لم يأخذوا من البخاري، فأقول إنهم أخذوا من مسند الربيع، والربيع إسناده ثلاثي والبخاري خماسي وسداسي وسباعي فهنا عندي اسناد ثلاثي لماذا تجبرني على أن آخذ الإسناد السباعي.

والنقطة الأخيرة أبو حنيفة ليس من أهل السنة والجماعة واسمعوا ماذا يقول كتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل في أبو حنيفة.

١. نيل الإمام مالك منه.
٢. استخفاف (ابن مهدي) رأيه.
٣. قول (ابن تيمية) فيه ليس بأهل الفتوى.
٤. قول (حماد) استقبل الأثر والسنن يردها برأيه واستتابته مرتين.
٥. قول (الأوزاعي) فيه ماولد بالإسلام مولود أضر على الإسلام من أبي حنيفة.
٦. قول (شريك) فيه لأن يكون في كل ربع من أرباع أهل الكوفة خمار أفضل من أن يكون فيهم أبو حنيفة وشكراً يا دكتور عبد السلام.

الدكتور عمر الأشقر:

أنا في ظني أن المحاضرات التي تقال فيها فائدة كبيرة. أنا عندي أن المنهج قد وضع نريد أن نرجع إلى أصالته وأنتم تريدون منهجاً جديداً، وأنا أقول لن نستطيع أن نخترع منهجاً جديداً هذا الفارق بين المسارين عندما ربنا يذكر الذكرى موجودة في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. أن نخترع طريقة للذكرى المأمورين بها لن نستطيع. فإذا كررنا كلام السابقين فإنما هو لتأصيل المنهج وكما يقول الأخ لطفي وجماعته (بدنا نزيل) الأتربة (وبدنا) نعود إلى الأصالة ونكشف الطريق من جديد (وما بدنا) نخوض طريق جديد أظن هكذا المسألة تكون واضحة وإذا كان كلامي صحيحاً فإعادتنا للتأصيل في

فهم الصحابة ومن إيراد النصوص القرآنية والحديثة ومن كلام العلماء الذين ساروا على هذا الطريق. هذا هو الطريق في فهمي وفي زعمي وإن كان هو تأصيل جديد (بدنا) نشق طريقاً جديداً ونبني طريقاً جديداً قضية ثانية مختلفة فنحن في نقطتين مختلفتين؛ أما إذا كان الأخ عبد السلام يوافقني فيما قلت ففيه فائدة من كل المحاضرات التي قيلت.

نحن مازلنا نعيش في الماضي صحيح والله إذا ماعشنا في الماضي ما عندنا شيء نقدمه للعالم إلا هذا الدين الذي جاءنا من عند الله عزبه من سبق ويعزبه من حلق إذا أخذوا به.

في حديثي عن الشيعة والخوارج والمعتزلة، قد نختلف في بعض التفصيلات لكن ينبغي لنا وخاصة الأخ عبد السلام من أتباع أهل السنة أن نتفق على الأصل الكبير وقد نخطىء في الجزئيات فالأصل الكبير أن أهل السنة يمثلون المسار الصحيح للمسلمين منذ عهد الصحابة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. الذين يخالفونهم في الأصول فرق، والذين يخالفوننا في الدين ملل. اختلافنا مع اليهود في أصل الدين فنحن ملل وفي دائرة الإسلام الاختلاف عن مسار الصحابة في الأصول اختلاف فرق، لا نخرجهم من دائرة الإسلام، ولكنهم فرق يخطئون ويصيبون في الأصول.

أنا قلت إن المسار الذي يمثل المنهج الصحيح، هو مسار أهل السنة، وعندما سئلت ماذا تريد بأهل السنة، قلت من الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: (من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي اليوم)، فنحن بمقدار ما نقترب من المسار الذين كان عليه الصحابة والذين رباهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم نقترب من المسار الصحيح.

في دائرة أهل السنة خلاف فقهي في الفروع، وليس خلافاً بالأصول، هذا المؤشر الكبير. هناك وبيننا وبين الخوارج فرق. الخوارج نشأوا في عهد الصحابة وكان بينهم وبين الصحابة شيء كبير ثم بعد ذلك خرج الشيعة وغيرهم من الفرق عن المنهج الذي كان عليه أهل السنة والجماعة، فهذه

مدارس منفصلة عن مدرسة أهل السنة، هذه تيارات ضخمة في الأمة الإسلامية لا تسمى مدارس بل تسمى فرقاً. فالخوارج شئنا أم أبينا لهم أصول يخالفون بها أهل السنة والجماعة والشيعة أنا الحقيقة لم أرجع إلى أصول الخوارج وأنا ما قرأت كتب الخوارج ولكن بيني وبين الشيخ الخليلي مفتي عمان صداقة وقلت له يوماً في جلسة عن ذلك فقال هذا ليس عندنا أنتم تنقلون من غير كتبنا، فقلت له: أهد لي كتبكم فأهدى إلي كتبهم، ووصلتني بعد حرب الكويت ولم أستطيع أن أقرأها حتى الآن. لكن هو نفسه قلت له: أتظن أنه لا فرق بيننا وبينكم، قال: لا، هناك فروق جوهرية، وعدّ لي أربعة -أنا لم أذكرها الآن- ولكنه قال هذه فروق بيننا وبينكم مذكورة ومأصلة في كتبنا، وهم يقولون أي الأباضية يقولون: نحن لسنا من الخوارج، هذا كلام الشيخ الخليلي.

لكن هناك أصول بدون شك مفقوده بيننا وبين الخوارج. أما الانحراف فقد بدأ عقائدياً، هذا الذي أعرفه أنا من كتاب أهل السنة أن الانحراف من الخوارج بدأ عقائدياً، وأول كلمة عرفت عن واصل بن عطاء المسألة في الأسماء، هل هؤلاء يطلق عليهم مسلمين أم كفار، فجلس يقول إنهم لا يسمون بالمؤمنين ولا بالكافرين. يبقى الجانب الاعتقادي وهو الذي يفرق، أما الجانب الفقهي فلا يفرقه قضية السنة أنا آتيك بكتبهم، وإن السنة مهدومة عن طريق الشيعة، وهم يوثقون في الصحابة من أربعة إلى ١٢ فقط، وبقية الصحابة خونة، روايتهم لا تقبل عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أليس هذا أصل كبير بيننا وبين الشيعة، ومع ذلك أنا لا أقول بالكفر الذي يخرجهم من الإسلام لكن هذا أصلٌ كبير يجعلهم فرقة.

أما أبو حنيفة فليس من أهل السنة والجماعة، أنا آتيك بكلام للشافعية في الإمام مالك، وباعتراف الجميع فيما بعد، الإمام مالك والشافعي من علماء أهل السنة، هذا الذي ينقل كثير منه يقال لك فيه ماقلته لي. إلى أي مدى قال الإمام أحمد ذلك، إلى أي مدى قال وكيع ذلك. هذا جزء، بالنسبة للإمام

أبي حنيفة، قال عنه الشافعي (ليت علي أوزاره ولي مثل حسناته)، في مقابل هذا كبار أهل السنة عندما يتحدثون عن الإمام أبي حنيفة يثنون عليه ثناء عطراً، كلام الناس القريبين من بعض لا يقبل، وعلى كل حال هذه قضية ملئت بالردود من قبل، أكتفي بهذا القدر.

أستاذ أمين:

قضية أهل السنة والجماعة هي وجود المذاهب الأربعة، كلمة لا تمت إلى الحقيقة بشيء، وجود فقهاء نعم، كلمة أهل السنة والجماعة مصطلح وجد بعد الأشعري، وهنا نحتاج إلى التوثيق. أما قضية أصول أهل الحديث فأهل الحديث لم يكونوا أصحاب أصول ابتداء، وإنما تكونت لهم أصول بعد ما يسمى بالمحنة، ولم يبدأ شيء اسمه (فرق) إلا في القرن الرابع الهجري، قضية الخلاف السابق خلاف كان على الفكر السياسي لمن الأمر بعد الرسول، وقضية التكفير هذه قضية يجب أن نعود لها بدقة.

الدكتور عمر:

شكراً للأخ الأساذ أمين وهو من محيي فكر المعتزلة. يا أخانا ليس عند المسلمين عقائد عندنا عقيدة واحدة. نعم الخلافات الفرعية هناك فرق تختلف وبشكل مقبول، ولكن أنا أتحدى أن الصحابة قد اختلفوا في أصل عقائدي واحد، أتحدى، وقد اختلف الصحابة في مسائل فقهية كثيرة، وكل أستاذ كتب في هذا الموضوع ولم يكن هذا يضير الصحابة بحال من الأحوال. ووجد في عهد الصحابة فرقتان جاءتا ببدعتين في العقائد الأولى: الخوارج وجاءت ببدعة التكفير، وكتب الأستاذ أمين كتب المعتزلة التي تقرر أن المعتزلة قالوا بالتفكير وأصول شرح الأصول الخمسة فيه هذا يا أستاذ أمين. فيه إثبات أن الخوارج كفروا وشرح الأصول الخمسة نأتي به الأسبوع القادم.

الفرقة الثانية التي نشأت في عهد الصحابة. قالوا لا قدر، وأن الأمر أنف، وقال عندما سئل عبد الله بن عمر عن هذه الفرقة. قال لسائله: أخبرهم أني منهم براء حتى يؤمنوا بالقدر خيره وشره من الله. هاتان فرقتان نشأتا في

عهد الصحابة عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، ومجموع من الصحابة. إذن الاختلاف العقائدي نشأ في عهد الصحابة ليس هناك أصول عقائدية.

الأصول العقائدية لأهل السنة والجماعة هي الأصول الذي قررها القرآن والحديث، وهي التي لا يختلف عليها: وحدانية الله تعالى، ربوبية الله تعالى أسماؤه وصفاته، عدالة الصحابة، القرآن، الإيمان بالمغيبات. هذه أصول الاعتقاد هي التي جعلتنا أمة الإسلام وميزتنا عن أمم الكفر، ومالم يؤمن المسلم بها يكون كافراً، ولا يكون مؤمناً. نشأ فيها بعض الخلافات؛ فالقدرية أنكروا القدر، والقدر قدرة الله تبارك وتعالى، وجاء الخوارج وخالفوا أهل السنة في أن الذي فعل الذنوب كافر. قضية كبيرة هذه قضية عقائدية ما خالفوا في أنهم كفروا بالله أو بالملائكة أو الرسل، وإلا كانوا كفاراً، لكن مسائل اعتقادية لا ترقى إلى المسائل الأصول، فالخلاف أصله حركي سياسي، هذا كلام المستشرقين.

المعتزلة لهم اسم يميزهم الخوارج، لهم اسم يميزهم، نحن ليس لنا اسم يميزنا سوى أننا نتبع السنة، وليس لنا اسم آخر. وفي الاعتقاد لا يجوز أن يكون واحد معتزلياً، واحد أشعرياً واحد. . . ليس هناك إلا اسم واحد في الاعتقاد ليس هناك اسمان، وأذكركم سنة أربعين ماذا سميت عام الجماعة، رجع المختلفون من الصحابة وغيرهم إلى الاتفاق وإلى الوحدة على أي أساس على أساس السنة شكراً للدكتور عمر.

رد الدكتور عمر على حوار حول المنهج الفقهي في التفكير

التجديد لا يعني العودة إلى الماضي هي فلسفة للعالم وهي فلسفة فرانكفورت، أريد أن أكون أرجع لمفهوم عند المالكية وأوسعه وأعطيه دلالات جديدة. الآن في وقتنا هذا مع التطور الهائل في البناء المعرفي وفي فهمنا الأشمل للكون وفهمنا الأشمل للغة، نستطيع أن نخضع هذه اللغة على مستوى الصوتيات على مستوى النحو والصرف.

نحن لا نقيس نصوصاً بل نقيس حوادث واجتهادات وننزلها على وقائع حالية . هذا مايجري الآن قياس الشاهد على الغائب . هذا هو الذي أفسد علم الكلام كله أو العقيدة وكذلك أفسد الفقه وهذا ربما أدى إلى المنظومة المغربية كاملة رفض القياس ليس على المستوي العقدي بل على المستوى الفقهي ولا بد من تجاوز هذا السياج المغلق ونعيد توسيع المفاهيم ونفكر كما نحن الآن أقول كبشر فاعلين شكراً للأخ حسن وبداية أريد أن أقول أنا أقول أنه هناك روابط بين الفقه والعقيدة ارتباط فروع الشجرة بأصول الشجرة لا أخالف في هذا لكن ليس معنى ذلك أن الإمام الشافعي لم يكن له منهج اعتقادي وأن الإمام مالك لم يكن له منهج اعتقادي وكذلك الإمام أحمد حتى جاء المتأخرون فصنعوا مناهج اعتقادية وأولئك كانوا خالين من المناهج الاعتقادية . كما ذكر الأستاذ أمين قبل قليل هذا ليس صحيحاً الكلام الذي قاله الأخ حسن أنه ما في مدارس وأن المدارس انقرضت لا أعلم أحد ذكر مدرسة رابعة .

وقلت أن الناس كانوا يسمعون فقه أهل المدينة وفقه أهل الكوفة ثم صار فقه أهل الحديث وفقه أهل الرأي . والتسمية بالمدرسة تسمية حديثة وليست قديمة ولم يذكر أكثر من مدرستين . وقليل جداً الذي قال أن المدرسة الظاهرية مدرسة ثالثة غير مدرسة أهل الحديث . أين المدرسة الرابعة والخامسة والسادسة كان هناك مذاهب فقهية نعم بلغت أكثر من عشرين مذهباً فقهياً وكان لها أتباع الباقي منها حتى الآن أربع . ابن حزم والشاطبي لم يشكلا مدرسة جديدة إنما ابن حزم ظاهري والشاطبي مالكي من علماء المالكية فهي ليست مدرسة جديدة إنما اختلاف من أصول وهذا اميز عن بقية أهل السنة .

الكلام الأخير الذي ذكره الاستاذ حسن يحتاج إلى توقف عندنا الأحكام الفقهية تختلف حسب تقسيمات المذاهب .

الموضوعات منها موضوعات جديدة . في كل عصر نجد موضوعات وتنشأ موضوعات لم تكن من قبل وهناك أشياء موجودة في القرآن والسنة وهناك أشياء حدثت في عهد الصحابة والتابعين . هل الأشياء الجديدة تحتاج إلى منهج فقهي غير الذي كان في عهد الصحابة .

وأنا أضرب لك مثالاً: جدت الآن مشكلات معاصرة في مجالات المعاملات في مجال الطب، ما كان الإنسان ما ينزع كلية ويضعها لغيرة وكذلك العين تقام وتوضع في إنسان ثان هذه قضية حديثة ماكانت بالماضي. هذه قضية حديثة والسؤال هذا حلال أم حرام.

النظريات العلمية الجديدة تعطيني جواباً عن هذه القضية أم هو حكم فقهي مبني على نص. ليس عندنا في الكتاب ولا السنة. فالخنزير حرام والخمر حرام هناك أشياء استجدت استجد الحشيش وكتب عنه علماء القرن الخامس الهجري والسادس الهجري وقبل فترة قليلة استجد الدخان بحث فيه العلماء منهجية البحث الفقهي. العلوم الحديثة تغير فيها والتقدم والتطور الذي حدث له أثر في استخلاص الحلال والحرام ما دخل هذا بذاك، هل يجوز نقل الكلي إذا كان الميت أو أهله قد أذنوا بذلك، العلماء قالوا نعم، لكن نقل الخصية قالوا ما يجوز لماذا لأن الحيوانات المنوية تكون ليست من جسدك لأن العلماء يقولون بأنها هي التي تفرز فإذا كانت منك تكون كأنها من شخص آخر. الواقع له أثر والمؤثرات الآن تجمع أهل الاختصاص وأهل الاقتصاد ويشير حوالى الوضع ويجمع علماء الشريعة ليقولوا لنا الحكم.

كذلك الأطباء هناك قضايا لم نكن نفهمها حقيقة وأول ما قالوا أطفال الأنابيب. ظنينا أنهم يخلقون أطفالاً وقلنا أعوذ بالله، وبعدين قالوا نأتي بالبويضة من المرأة والحيوان المنوي من الرجل ونضعهما في أنبوب ثم نعيدهما إلى الرحم بعد أن يتم التلقيح فقلنا لماذا تتعبون أنفسكم قالوا لأن هناك عيباً في المرأة ولا يتم التلقيح عندها فنحن نفعل ذلك بأنبوب ثم نضعهم في الرحم فجاء الحكم إذا كانت البويضة من زوجته وكانت هناك ثقة في الذي يقوم بالعملية بأنه طبيب مؤتمن فهذا يجوز، ومتى قلنا هذا، بعد أن فهمنا الواقع فلا بد أن نفهم الواقع حتى يأتي الحكم الشرعي منزلاً على الواقع الذي فهمناه. ما دخل التقدم والتطور والنظريات الجديدة والمعارف الجديدة، ليس لها دخل في ذلك فهناك أصول لفهم النص.

الأستاذ عبد الفتاح :

كانت المحاضرة مبتورة في النهاية فأنا أرى أن منهج التفكير لدى الفقهاء لا يختلف عليه العوام كما لا يختلف عليه العلماء فأي عامي وكلهم عن رسول الله مقتبس. نحن في واقع كل مسلم فيه أقام من نفسه فقيهاً وهو لا يمت إلى الفقه بصلة وكل مسلم أقام من نفسه مفتياً وهو لا يمت إلى الإفتاء بصلة، وكل ذلك لأنه لا يعلم ولم يعلم من أين يأخذ دينه وكيف يأخذه، لا بد الآن البحث الذي نريده هو دراسة المسألة أو المشكلة لفهمها ودراسة النصوص الشرعية التي تتعلق بها لاعطاء رأي فيها هذا للفقهاء.

أما نحن طلبة العلم فهذا ليس لنا، فالسؤال الآن أنك تأتي لتسأل عن مسألة أول واحد يعطيك رأيه وثاني واحد يعطيك رأيه وثالث واحد يعطيك رأيه فتختار ماذا تفعل وممن تأخذ، ماهي صفات التي علي أن آخذ منه. تأتي لشخص يقول لك إياك أن توالي غير مسلم ثم تراه يوالي غير المسلمين. ومع ذلك يقال لك خذ منه لأنه مفت أو إمام وهكذا نريد إن أمكن من الدكتور أن يحدد لنا المواصفات «للفقيه أو المتعلم الذي يمكن أن نأخذ منه»، إذا تعددت آراء أمثال هؤلاء لطلاب العلم. فكيف يمكن أن يخرج المسلم من هذا، هل يحكم مصلحته كما نرى عند الكثير، هل يحكم ما يراه أنه أسهل هل يحكم الأدلة أ هذه المواصفات التي وضعت للشخص، فنريد أ ن نعرف من أين يأخذ المسلم أحكام دينه.

الدكتور عمر :

أنا لا أتفق مع الأخ الكريم على أن المنهج واحد عند كل الفقهاء هناك مناهج وهناك اختلافات، وهناك كما ذكر هناك من يقول لك هذا حلال وهذا حرام. الدخان واحد يقول حلال وواحد يقول حرام فيه اختلاف وسببه اختلاف في المنهج وفي الاستنباط والعالم الذي ذكره الأول نقضه الثاني.

كان الصحابة يختلفون وهم أبناء عقيدة واحدة، وقلت هذا الفرق بين اختلافهم واختلافنا أنه لم يكن اختلافاً في قضايا العقيدة وإنما الاختلاف في

قضايا فرعية فقهية كل يفهم الحكم بشكل. الناس قسمان عالم وجاهل والإنسان الذي لا يعلم لا بد أن يسأل العالم وهناك فريق ثالث هم طلبة العلم الذين نسمح لهم بالتفكير والاستنباط أصابوا أم أخطأوا وإلا لم يتعلموا ومثال على ذلك عروة بن الزبير عندما قال لخالته عائشة أرأيت قوله تبارك وتعالى: «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» قال فوالله ما على أحد من بأس إن لم يطوف بهما. فقالت بئس ما قلت يا ابن أختي إنا لو كانت علي ما أولتها عليه لكانت فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، فوجهته إلى الفقه الصحيح ولم تنكر عليه أن يفكر وأن ينظر وأن يستدل ولكن صوبت مساره وصححت خطأه، وكذلك طلبة العلم نحن نتعامل معهم بهذا الشكل. نريدهم أن يتفكروا وينظروا ويتأملوا لكن لا نريد لهم أن يفتوا وأن يتسرعوا في الفتوى حتى يعلموا وهذا هو الفصل فيما يثور بين الناس اليوم بعض الناس ينكرون على أهل العلم أنهم يدرسون ويتعلمون وبعض الناس يريد أن يصبح مفتياً بمجرد أن يتكلم كلمتين وأنا أشبه هذا بطالب الطب في السنة الأولى أن يرجع إلى البيت فيعالج عين أمه أو يفتح بطنها ويعالج أذنها لأنها تؤلمها ويخزق لها طبلتها فيفسدها. لكن لا نمنعه من أن يتعلم في الجامعة ويصيب ويخطئ ثم يصبح طبيباً مشهوراً يجتهد في أمور طبية لم يسبق لها ولكن من ليس من أول ساعة بعد مرحلة من التعليم. كذلك طالب الشريعة نفس القضية أما بقية الناس إذا كان عنده علم يأخذ به ليس عنده علم فإنه يستثني أحسن ما عنده وهذا حسبه وينجو أمام الله عزوجل فقد قال ربنا: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون». هذه قاعدة بالنسبة للذي لا يعلم فإذا سأل من يظنه عالماً أو سأل الأفقه وعمل بقوله أصاب أم أخطأ فهو ناج أمام الله في المسائل الفرعية. أما بالنسبة للعالم إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد. وغير العالم يسأل العالم أصاب أم أخطأ وهذا الذي كان عليه الصحابة، إلا أن الصحابة كان لهم منهج أشرت إليه في المحاضرة. الصحابة قبل أن تعرض عليهم المسائل كانوا يسألون بعضهم بعضاً حتى الخليفة أبو بكر الصديق يسأل عن شخص مات وترك جده

هل علم أحدكم من رسول الله فيها شيء يقول المغيرة نعم أنا شهدت رسول اله صلى الله عليه وسلم أعطاه السدس يقول هل يشهد معه أحد فيقوم محمد بن مسلمة فيقول أنا شهدت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عمر بن الخطاب يسشير الناس وكان له مجموعة يستشيرهم حتى في الفروع وأحياناً الفقيه لا يجد من يعينه وفي الحديث الصحيح اسشتفتي عبد الله بن مسعود عن مسألة امرأة قبل أن يدخل عليها زوجها توفى عنها ما حكمها عليها عدة أم لا لها مهر أم لا لها ميراث أم لا وفي نظري لو عرضت على إناس لم يسمعونها قبل الآن سنجدهم بعيدين عن الصواب فيها .

كثيراً يظن الإنسان أنه يفهم المسألة لكن بالتأمل بالنصوص الواردة في هذه المسائل يجد أنه أخطأ الجواب بعد شهر قال لهم أقول فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، ما مهر نساءها لا بأس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث الذي يتبادر هنا الرأي الخطير أن يقيسها الإنسان على المطلقة قبل الدخول، المطلقة قبل الدخول لها نصف المهر، وعلاقة الزوجية فقط هنا قائمة ولم يحدث طلاق ومادامت علاقة الزوجية قائمة وزوجها قد مات عنها تختلف عن قضية المطلقة قبل الدخول، فقام رجل من أشجع من كانوا غير حاضرين السؤال أول مرة، ولكن كانوا حاضرين عندما أجاب وقالوا نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم في امرأة فينا بروح من نفس القضية فحكم فيها بمثل ماحكمت ، فقال فما فرح عبد الله بن مسعود بعد اسلامه بشيء بقدر ما فرح أن حكمه وافق حكم رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم. هذا الذي أجبت عليه به، نسأل أن نحسن به الظن ونعتقد صوابه وأنه أتقى وأروع، جزاك الله خيراً.

الأخ محمد :

طبعاً المحاضرة عنوانها المنهج الفقهي في الفكر الإسلامي قناعتي أنا أن المحاضر لم يلتزم بالعنوان بل تطرق إلى الفرق الإسلامية واعتبرها من وجهة نظره ضالة ومنحرفة وذكر الخوارج.

أما بالنسبة لأهل السنة والجماعةالآن نحن نلاحظ الآن في السوق تأليف كتب و رسائل أشرطة فيها شتم للمسلمين وتصنيف المسلمين إلى فرق ناجية وأخرى هالكة بالنسبة لقضية المنهج الفقهي طبعاً المنهج الفقهي عبارة عن علم المسائل الفقهية الشرعية، وهو فقه يتعلق بالحياة وما نلاحظه أن الكتب الموجودة في السوق تتحدث عن القبور وعن صيام السبت وأحكام الجنائز. كتب عن الجن وأهوال يوم القيامة فنلاحظ أن فقه الواقع أو الفقه السياسي والفقه المتعلق بالحكام غير موجود نهائياً، ونلاحظ علماء السعودية ينكرون أن الأرض كروية وأن الإنسان يصعد على القمر، فهل هذا له علاقة بالمنهج الفقهي.

آخر سؤال لي: هل يفكر أهل السنة الآن في النهضة واستئناف الحياة الإسلامية وكيف سيكون ذلك ومن أين نبدأ؟

الجواب للدكتور عمر:

الحكم بالعدل على الناس مطلوب (إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) ما قال (كل) الرهبان والأحبار قال (كثيراً) يعني استثنى فئة وقال: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومن إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك»، أي هناك أناساً أمناء من أهل الكتاب. منهج العدل مانقول. ولكن قلت هم في دائرة الإسلام وأنا لست في وضع تقييمي لفرق مختلفة مافي شك أن الفرقة المختلفة كان لها دور في الدفاع عن الإسلام وحفظه ولكن كان لها سيئات وأنا في البداية أشرت كيف يفترق المسلم عن غير المسلم باتباعه أصول الاعتقاد في الإسلام فهذا يميز المسلمين عن غير المسلمين.

ثم تقسيمات رئيسية ما يسمى بالفرق وهي اختلاف في فروع أصولية لا تخرجها من الإسلام وهي تبقى في دائرة الإسلام، لكن تتمايز هذه الفرق فيما بينها ثم الذين يتبعون الأصول العقائدية الواحدة كيف يتميزون فقهياً إلى مدارس وماهي النقاط الرئيسية التي تميزهم إلى مدارس، ثم بعد ذلك نقاط

فروعية تميزهم وأنا غير مقتنع برأي الأستاذ أمين وأضرب لك مثلاً . يكفي المعتزلة أنهم أقاموا لنامحنة جلدوا فيها علماء الأمة الإسلامية أنا لا أعدهم أحرار الفكر بل أعدهم مستبدين وظلمة ولم يمسكوا الحكم إلا بالجلد وجعلوا لنا محنة دامت ١٥ سنة أين حرية الفكر يجب أن نعتقد أن القرآن مخلوق وإلا الجلد . هذا الدفاع عن الإسلام . أنا واثق أن مايطرحه بعض المشايخ ما ينبغي أن يطرح التعظيم في أهوال القبور والدجل والخرافة وأنا واثق أنه هناك أناساً غير موفقين ونترك القضايا الحيوية ولكن هناك علماء أجلاء وقفوا في وجه الحكام وقالوا كلمتهم ووضعوا على المشانق وشنقوا لكنهم كتبوا الحق وصدعوا به واسألوا عن سجون المسلمين ماذا فيها آلاف من البشر ، يوجد إناس يقولون الحق وبجرأة ويوجد أناس يقولون الحق وهم يحملون البندقية في الجزائر وغيرها ليس معنى هذا أني أوافق على هذا الأمر والخط ، ولكن كل شيء موجود معنا في الإسلام كما أن الأدب موجود وبعضهم جيد وبعضهم سيء بعض الناس متفتحون وبعض الناس مغلقون والشيخ ابن باز رغم أنه متفتح ولكنه أغلق في قضية أن الأرض كروية وتدور ولا يتخربط ماعليها .

وحتى في البلاد المتحضرة في أمريكا وغيرها هناك أناس يقولون أشياء عجيبة ولا يزال عالم الذرة الهندي البوذي ينزل إلى المعبد ويجثو على رجليه أمام بوذا ولا يزال الرجل العالم الكبير ينزل عند تمثال العذراء ويعتقد أنه عيسى والأب والابن روح واحد الخرافة أين ماكانت موجودة ومنتشرة وفي الأمة الإسلامية من النور والصفاء شيء كثير لا أبعاد له عند أمة من الأمم وعندنا أناس عقولهم تضيق وأنا متفق معك في هذا .

أما كيف النهضة ، مافي شك أننا بحاجة للنهضة و إلى نهضة إسلامية ونحتاج أن يجتمع المسلمون على كلمة سواء وهذا قضية يضيق عنها الحديث في مثل هذه المحاضرة .

الدكتور علي الصوا

أنا الحقيقة أن أقول كلمة أن الموضوع كان سيكون مجزياً أكثر ومثمراً أكثر ومفيداً أكثر لو عملنا على تطويره وتنميته بدل أن نشد الموضوع إلى

موضوعات أخرى فنخرج الموضوع عن إطاره الذي طرحه وهذ يخرجنا دون الثمرة المرجوة فقد حصلت ثمرة ولكن دون الثمرة المطلوبة، كنا نتمنى على إخواننا جميعاً أن لا نتمرس خلف كمال المنهج أحياناً إذا وضعنا أنفسنا ضمن منهجية وقلت أنا شافعي وذلك حنفي وهذا معتزلي والثاني أشعري . سنخرج الطلقات من خلف هذا الخندق ولن أخرج منه وعندئذ لن نلتقي على نقطة معينة فكرة تطرح نود لها أن تتطور . أن نشققها ونضيف إليها ونبين فيها ولا نرجع إلى عناصر الهدم لأن هذا ليس من عناصر التقدم أصلاً وسيكون جدل ومراء بعد ذلك .

قضية أردت أن أشير إليها هي قضية المقاصد، وأحب أن أشير لأخي الحبيب بأن البحث في قضية المقاصد بدأت مبكرة في عصر التدوين يعني الإمام الشاطبي وسعها وأصلها وعمل لها ولم يغب تقديره عن ذهن الفقهاء وبدأ من الصحابة رضي الله عنهم . كان في الذهن ولم ينزل إلى أرض الواقع كما هو شأن الوليد الذي يكبر ثم ينضج . وأما في قضية القياس أريد أن أعلق عليها لكن في قضية ما ينسب أنه ما في فكر سياسي يتعرض للحكام . الدكتور عمر أجاب عليه المرة الماضية وتعليقي على المنهجية كيف ننفي أمراً وهو محسوس أمام الكتب المليئة بالفكر السياسي بل كل الحركات الإسلامية في الساحة تملأ الساحة بفكرها السياسي وفقهها السياسي ووجهة نظرها في استئناف مسيرة الحياة الإسلامية واكتفي بهذا وبارك الله فيكم .